المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب



حياته وأدبه

٩٧٧ - ١٠٦٩هـ

١٠٠٣٦٩١

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب

إعداد الطالب

عبدالله ابراهيم يوسف الزهراني

إشراف الدكتور

ابراهيم احمد الحاردلو

١١٠٢



١٤٠٦هـ/١٩٨٦م


بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيـــــــد

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ باللـــه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ،من يهده الله فلا مضل له ، ومـــن يضلل فلا هادى له ،وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك لــــه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين له المقتدين بسنته والمهتدين بهداه الى يوم الدين أما بعد :

فلقد عاش الأدب العربي في القرن الحادى عشر وما قبله بقليـــل فترة من النشاط تستحق من الباحثين الوقوف عندها ،وفاء بحق علمـــاء كثر كان لهم دور فعال في اذكاء الحركة الفكرية عامة والأدبية بشـــكل أخص .

وإن القارئ لسير بعض أولئك الأعلام وجهودهم العلمية ،لا يسعه الا أن ينظر اليهم بعين ملؤها الإعجاب والإكبار لعدد منهم تقديـــرا لآثارهم الأدبية الخيرة وتوضيحاً لمكانتهم البارزة ، من هنا ذهبت لأفتش عن رجل من أولئك الأعلام لأخصه بهذه الدراسة المنهجية المفصلـــة ، ووجدت ضالتي في " شهاب الدين الخفاجي " ، وقد دفعني الى ذلك الأمور التالية :

إن هذا العصر قد لفه الغموض الثقافي وأصابه من الظلم في الأحكام والإهمال في الدراسات ما لم يُصبْ أى عصر من العصور الأدبية الأخـــرى ، وأطلق عليه بعض الباحثين عصرَ الإنحطاط وفي الحق أنه ليس بوســـع أى باحث منصف أن يصدر مثل ذلك الحكم العام ،لأنه إن صح على فئـــة فلن يصح على أخرى ،وإن صح على شاعر فلن يصح على آخرين ،لذلك فـــان اصدار مثل تلك الأحكام فيه إجحافٌ بحق علماء وشعراء بارزين لا يمكـــن بحال من الأحوال أن يدخلوا ضمن ذلك . لذلك فينبغي على الباحثيـــن

أن يتجردوا من تلك الأحكام المسبقة التي أطلقت على هذا العصر لأنها قد تكون صادرة من صاحب هوى مفرض، على أن الحقيقة الواضحة للعيان أن جهود أولئك الأسلاف من علماء هذا العصر لا يمكن أن يغض من قيمتها أصحاب الأهواء، وإن كان هذا العصر فيه من عوامل الضعف ما ليس موجودا في العصور السابقة، ولكن هذا لا يعني أنه بلغ ذلك المبلغ من الانحطاط الذى صوره بعض الباحثين ففيه من العلماء كما أشرت - ما لا يمكن أن يدخلوا تحت حصر لذا اخترت هذا البحث أملا مني في الإسهام بنصيب لاجلاء تلك النظرة من خلال هذه الدراسة .

ثم إن شهاب الدين الخفاجي من العلماء والأدباء البارزين الذين أسدوا جهودا جبارة في العناية بالتراث الثقافي الديني والأدبي لعصرهم، ولم يحظوا بدراسات متخصصة تكشف النقاب عن شخصياتهم وآثارهم وآرائهم .

ثم ما للشهاب من منزلة شعرية رفيعة لم تلق عليها الأضواء حيث لم يزل ديوانه رهين الأوراق العتيقة، وعلاوة على ذلك فله من الجهود النثرية المتنوعة من مقامات ورسائل متناثرة في بطون الكتب، ولم تنل أى عناية تذكر، ثم إن كثيرا من مؤلفاته المخطوط منها والمطبوع لا يعرف كثير من المتخصصين عنها شيئا ، لذلك عولت على أن أدرس هذا العالم الأديب دراسة تنشره وتزيحُ عنه ركام النسيان الذى ران عليه أجيالا طوالا، وجعلت دراسته موضوعا لرسالتي الماجستير وجعلت عنوانها "شهاب الدين الخفاجي حياته وأدبه" ولا شك أن شخصية مثله تستحق العناية بها واظهار مكانتها الأدبية والعلمية إذ في ذلك مشاركة فعالة في إظهار التراث الثقافي لأولئك الأسلاف الأفاضل وفاء لجهودهم الخيرة والقيام بشيء من الواجب نحوهم .

المقدمـــــة

بعد أن عرفنا مدى أهمية الموضوع الذى نحن بصدد دراسته بين الدراسات الأدبية نود أن نشير الآن الى أهم المصادر التي رجعت اليها في اعداد هذا البحث فأقول :

لقد تنوعت فشملت كتب التاريخ العثماني ،كتاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك المحامي ، والدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها لعبد العزيز الشناوى ، وغيرهما من المصادر التاريخية .

ثم كتب التراجم والتراجم الأدبية كخلاصة الأثر ،ونفحة الريحانة للمحبي ،وسلافة العصر لابن معصوم ، الى جانب بعض كتب التراجم الأدبية المشابهة لبعض مؤلفات الشهاب التي عاش مؤلفوها قبل عصر الشهاب كيتيمة الدهر للثعالبي ، والذخيرة لابن بسام ،ودمية القصر للعماد الأصبهاني وغيرها على أنه يأتي في مقدمة المصادر التي رجعت اليها مؤلفات الشهاب الخفاجي المخطوط منها والمطبوع ،وقد استفدت كثيرا من مقدمة محقق ريحانة الألبا للدكتور عبد الفتاح الحلو ، كما رجعت إلى عدد موفور من المصادر القيمة مما سيتضح للقارئ في ثنايا هذا البحث ،ومن خلال الفهرس المعد لهذا الغرض .

ولاقيت من الصعوبات في لم شتات هذا البحث ما ليست بخافية على أى باحث ولعل أهمها أن كثيرا من مؤلفات الشهاب الخفاجي لم يزل مخطوطا بعد متناثرا في مكتبات كثيرة ،فتطلب مني ذلك السفر لطلبها وتحمل العنت والمشقة في سبيل الحصول عليها ،ثم أن بعض تلك المخطوطات ردئ الخط يصعب على باحث مثلي في مقتبل الدراسة والبحث قليل الخبرة في ذلك الميدان أن يخوض غمارها بيسر وسهولة و يتيسر له الخروج بنتيجة منها من

أول وهلة ،بل تطلبَ مني أن أقرأها مراتٍ ومرات حتى خرجتُ بما خرجتُ به في هذا البحث .

ثم إن كثيرا من كتبه المطبوعة علاها النسيان نظرا لقدم طباعة بعضها كطراز المجالس طبع سنة ١٢٨٤ هـ ،وشرح درة الغواص طبع سنة ١٢٩٩ هـ ولم تكن تلك المطبوعاتُ لتتوافر بسهولة نظرا لندرة وجودها .

والحق لقد أشفقت على نفسي عندما بدأتُ أخطو الخطوات الأولى في هذا البحث لأنّ الرجل لم ينلْ حقه من البحث والدراسة ،ولكني عزمتُ مستمدا العون من الله على المضي قدما في لم شتاته ، عزائي في ذلك

أني سأقدم شيئا يذكر عن هذا العالم الأديب ومؤلفاته بإذن الله

وقد تأتى لي جمعه بناء على ما عثرت عليه من معلومات الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : عصره وحياته .

وقسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الحالة السياسية والثقافية والاجتماعية في عصره .

وقد رجعت إلى الوراء قليلا في الحالة السياسية بينت فيها بداية دخول العثمانيين مصر ، وأوضحت في هذا الفصل أن هذا العصر أصابه الظلم في الأحكام من قبل بعض الدارسين وبينت وجهة نظري في ذلك مع الدليل والبرهان .

الفصل الثاني : قبيلة الشاعر ، نسبه ، ورحلاته .

تحدثت فيه عن قبيلته وبينت أنه يرجع في نسبه الى قبيلة خفاجة ، وأوضحت أنه نشأ في مصر في كنف أبيه ،وطلب العلم بها أولا ،ثم رحل

في سن مبكرة مع والده الى ديار الحرمين ،وطلب العلم بها على كبار علمائها .

ثم رحل الى بلاد الروم بعد أن ضاق ذرعا بمصر وأهلها ، وتحدثت عن توليته القضاء في بلاد الروم ، وعودته منها الى مصر قاضي عسكر ،ثم عزله عن القضاء ورحلته ثانية الى بلاد الروم و نفيه الى مصر وأسباب ذلك ،ومروره بالشام وما لقيه فيها من التكريم والتبجيل .

الفصل الثالث : مشايخه وتلاميذه .

تحدثت فيه عن مشايخه سواء بمصر أم بالحرمين أم بالشام أم بالروم ، وذلك بوضع ترجمة موجزة لكل واحد منهم حسب المعلومات المتوافرة عنهم ، وبينت أنه طلب العلم على عدد وفير من العلماء الذين يشهد لهم بالمكانة بين معاصريهم .وأوضحت أنه لم يكن ليكتفي بعلم واحد من العلوم ،بل أخذ من سائر العلوم المتداولة في عصره من تفسير و حديث وفقه وأدب وطب ونحو ذلك ،وأنه أظهر نجابة ومثابرة في طلبها .

ثم عرضت لتلامذته وبينت أن أجلهم علما ومكانة عبد القادر البغدادى ، وكفى الشهاب فخرا أن يكون هذا العالم الكبير من تلامذته ، ثم بينت ثناء العلماء على الشهاب ، وأنه مشهود له بالمكانة البارزة بين معاصريه ، ثم تحدثت عن تدينه ، ووجود بعض الملامح الصوفية في نتاجه الثقافي الشعرى والنثرى وإن لم يتضح لدى اعتناقه مذهبا معينا من المذاهب الصوفية المنتشرة في البلاد الاسلامية ثم نهايته أوضحت فيها أنه فرغ نفسه للعلم ومدارسته بعد نفيه الى مصر الى أن وافته المنية سنة ١٠٦٩هـ.

الباب الثاني : موءلفاته النثرية .

وقسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تعريف موجز بموءلفاته .

عرضت فيه لبعض موءلفاته الدينية والأدبية واللغوية ودرستها دراسة

تحليلية مختصرة ،أبنت فيها منهجه في كل كتاب عرضت له و تيسر لي الاطلاع عليه المخطوط منها والمطبوع ، مع بيان أماكن وجودها إن كانت مخطوطة ،وأماكن طباعتها ومن تولى تحقيقها إن حققت وطبعت. ثم أوردت نماذج من آرائه النقدية نظرا لتناثرها في كثير من كتبه.

الفصل الثاني : ريحانة الالبا دراسة موجزة

عرضت فيه لريحانة الألبا ومنهجه فيها ،وأبديت بعض ملاحظاتي على ذلك المنهج ، ووازنت بينها وبين بعض مثيلاتها في الأدب العربي كيتيمة الدهر للثعالبي ،وأوضحت بايجاز مواطن اتفاق الخفاجي في ذلك المنهج مع مؤلفي تلك الكتب السابقة له وما امتاز بهعنها حسب وجهة نظرى ، ثم تأثر المحبي وابن معصوم في كتابيهما بالخفاجي و منهج كل منهما.

الفصل الثالث : مجهوداته الانشائية : رسائله ،مقاماته ، فصوله القصار .

عرضت فيه لبعض رسائله وجميع مقاماته و بعض فصوله القصار ،مع بيان معاني بعض الكلمات التي قد تخفى على بعض الدارسين ، ثم بينت أهم خصائصه النثرية.

الباب الثالث : شعره

وقسمته الى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مظاهر عامة حول شعره .

تحدثت فيه عن مصادر شعره وبينت أن له ديوانا مخطوطا وأن له نسخا اطلعت على بعضها ، ثم عرضت لمظاهر عامة حول شعره تحدثت فيها عن حجم نتاجه الشعرى وأشرت إلى أن ديوانه يحوى على ٢٦٦ورقة

وهو بهذا من الضخامة بمكان ومع ذلك فلم يحو كل شعره اذ وجدت بعض مقطوعات وقصائد مشاراً اليها في بعض كتبه ولم أجد لها ذكرا في الديوان وضربت نماذج من ذلك .

أشرت لشعره بين الطول والقصر ،وذكرت أن له قصائد طوالا يزيد بعضها عن ثلاثمائة بيت كما أن مقطوعاته تحوى نحو ثلاثة أخماس الديوان .

وكذلك تحدثت عن مطالع قصائده وخواتيمها وبينت أنه تارة يحتفى بتلك المطالع وتارة تأتي عفوية ،وكذلك خواتيم قصائده تارة تنتهي بنهاية طبيعية ،وأخرى يحتفي بها ويختمها بما يشعر بقرب انتهائه ويتضح ذلك في شعر المطارحات أكثر من أى غرض آخر .

ثم شاعريته ،وذكرت أنه بدأ في نظم الشعر مبكرا ودللت على ذلك ببعض النماذج ،وكذلك تحدثت عن العوامل التي أذكت شاعريته وجعلته يصل الى ذلك المستوى بين شعراء عصره .

الفصل الثاني : موضوعات شعره .

تحدثت فيه عن أغراض شعره وبينت أنه نظم في نحو خمسة عشر موضوعا يأتي في مقدمتها المدح بأنواعه الثلاثة ،المدح النبوى وقد استأثر بمعظم قصائده الطوال ، ثم مدح العلماء والأقران ،ثم مدح السلاطين والولاة وهو أقل هذه الأنواع ،ثم تحدثت عن أغراض شعره الأخرى من وصف وغزل ورثاء وفخر . . . الخ

تلك الأغراض مع التوضيح والاستشهاد وضبط الأبيات قدر الامكان وذكرت أنه أظهر براعة في بعض الأغراض وتوسط في أخرى ، وأخفق في بعضها الآخر .

الفصل الثالث : خصائص شعره .

تحدثت فيه عن الخيال لديه ،وأنه أظهر براعة في التصوير والتجسيد وإنطاق الجمادات ،ولكنه لم يكن في كل شعره بذلك المستوى اذ أن هنالك بعض النماذج لديه ينقصه خيال الشاعر المجنح ويتضح ذلك في همزيته النبوية .

ثم عرضت للغته الشعرية ،وبينت أن اطلاع الخفاجي على اللغة وتمكنه من ناصيتها باعتباره أحد علمائها ، جعل لغة شعره قوية رصينة بعيدة عن الإبتذال وخلوها من الأخطاء النحوية واللغوية التي كانت شائعة عند بعض معاصريه من العلماء .

ثم تحدثت في هذا الفصل ايضا عن بناء القصيدة عنده ،وذكرت أنه تارة يجرى مجرى الشعراء القدامى في البدء بالتشبيب وذكر الأطلال والدمن ، وتارة يعرض عن ذلك ويبدأ في غرضه دونما مقدمات تذكر ، وما ذلك الا لإظهار البراعة والقدرة على المزاوجة بين القديم والمستحدث في أيام العصر العباسي .

و عرضت لاختيار قوافيه وأسباب ذلك الاختيار ،ثم وجوه البلاغة العربية في شعره من بيان و بديع مع ضرب الأمثلة من شعره للدلالة على ذلك على أني عندما أستشهد بشعره أحاول أن أبين مصدر ذلك وأعول على الديوان في كثير من المواضع وما لم أجده فيه ، أذكر مصدره دون الاشارة الى عدم وجوده في الديوان ،ثم أني لم آل جهدا في التعريف ببعض الأعلام الواردة في ثنايا البحث إلا في بعض مواضع خوفا من إرهاق الهوامش ،لذا اكتفيت بإيراد سني وفاة من لم أترجم له في الغالب .

ثم وضعت خاتمة البحث وبينت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها فيه .

وفي ختام هذه المقدمة أشكر الله إذ وفقني للم شتات هذا الموضوع ، ثم أشكر سعادة الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى الذى رعى هذا البحث طيلة اشرافه عليه ، وأشكر سعادة الدكتور ابراهيم الحاردلو على تقبله الإشراف على هذا الموضوع بعد سفر الدكتور الكفراوى ، وجزاه الله عني خير الجزاء إذ قابلني بصدر رحب وأفدت من توجيهاته الكريمة ،كما أشكر كل مسؤول في كلية اللغة العربية وأخص بالذكر عميد الكلية ووكيلها ورئيس قسم الدراسات العليا العربية لما أسدوه لي من نصائح وتوجيهات ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

نشأته وحياته

ويتضمن الفصول الثلاثة الآتية

- الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية .
- رحلاته .
- مشائخه وتلاميذه .

الفصل الأول

- الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية .

الفصـــل الأول

الحالة السياسية والثقافية والاجتماعيـــة

الحالة السياسية :

لقد بدأت تبعية مصر للحكم العثماني في صدر القرن العاشـر الهجري ،أي في سنة ٩٢٣هـ ،وذلك بدخول السلطان " سليم الأول" وجيوشه المنتصرة مدينة القاهرة ، وكانت مصر قبل دخول العثمانيين لهـا تحت حكم المماليك حيث كان السلطان "قانصوه الغوري " حاكمها ،وكانت سياسته الخارجية فاسدة الى جانب بعض الفساد الداخلي .

فحينما شبّ النزاع بين الدولة العثمانية السنية ،والدولة الصفوية الشيعية التي تحكم العراق وايران . انضم السلطان " الغوري " الى الشاه وكاتبه وأهدى له بعض الهدايا ، فكان ذلك سببا من الأسباب التي حدت بالسلطان "سليم" لضم مصر والشام تحت راية ملكه .

فبعد أن قضى على خصومه الصفويين ،دارت معارك طاحنة بين المماليك والأتراك على أرض الشام هزم فيها المماليك ،وانتصر الأتراك عليهم وتوجوا انتصارهم بقتل السلطان "الغوري" ، ثم اتجهوا صوب مصر التي نصبت "طومان باى " خلفا "للغوري" ، وما أن علم السلطان "سليم "بالخبر حتى عرض على "طومان باى" الصلح وأن يبقى حاكمـا لمصر شريطة اعترافه بالسيادة العثمانية ، الا أن ذلك العرض قوبل بالرفض...

فاستعد الجيشان للقتال ،والتقيا قرب غزة وهزم المماليك في ذلك اللقاء واستولى العثمانيون على غزة واتجهوا صوب القاهرة ،ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، التي كانت نتيجتها انتصار العثمانيين ودخول مصـر

تحت سيادتهم وبقي السلطان "سليم" بمصر نحو ثمانية أشهر سن خلالها بعض الأنظمة الادارية .

وولّي السلطان سليم على مصر في أثناء اقامته بها "خيربك" وهو من المماليك - وكانت له اليد الطولى في انتصار الجيوش العثمانية - وكان مشهورا ببعض الظلم والتعسف ولكنه مات سنة ٩٢٨ هـ .

ثم تعاقب الولاة على مصر وكان بعضهم على درجة طيبة من الاستقامة وحسن الخلق ومراعاة أحوال الرعية ومن هؤلاء :

"داود باشا الخادم" الذى حكم من سنة ٩٤٥ - ٩٥٦ هـ ، وكان كريما محبا للعلم وطلابه مشغوفا بمطالعة الكتب العربية ،وساد الأمن والرخاء ربوع البلاد طيلة مدة ولايته .

"اسكندر باشا" ٩٦٣ - ٩٦٦ هـ ، وكانت أيامه في غاية الرخاء .

"سنان باشا" ٩٧٩ - ٩٨١ هـ ،وكان مغرما باقامة المباني وأنشأ عدة مدارس وحمامات وأسواق .

"مسيح باشا" ٩٨٢ - ٩٨٨ هـ ،الذى ضرب بقوة على اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم من المفسدين .

ومن الملاحظ أن مدة الوالي العثماني على مصر قبل مطلع القرن الحادى عشر كانت طويلة الى حد ما بالنسبة الى ما بعد ذلك ، من أمثال "سليمان باشا" ٩٣١ - ٩٤١ هـ ،و "دادوباشا" ٩٤٥ - ٩٥٦هـ .

أما ما بعد طلوع القرن الحادى عشر فانه من الملاحظ كثرة العزل والتنصيب لدرجة أن بعضهم لا يمكث الا أشهرا قليلة مثل "مصطفى باشا الفلكي" ولي في جمادى الأول ١٠٣٧ هـ وعزل في محرم ١٠٣٨هـ وغيره من الولاة . وما ذلك الا صورة من صور الصراع الداخلي الذى كان يدور

في رحاب البيت العثماني على الرغم من حسن السياسة الخارجيـــة الى حد ما .(١)

ولقد كان الحكم العثماني للأقاليم العربية يقضي بأن تقوم ثلاث سلطات بيدها مقاليد الحكم وهذه السلطات هي :

١ - الوالي : "ويلقب "بالباشا" وهو نائب السلطان ،ووظيفته ابلاغ أوامر السلطان الى اعمال الحكومة والاشراف على تنفيذها ،وعليـه جمع الضرائب ... وارسال المؤن والكسوة الى الحرمين الشريفين ، ... ويتولى تعيين شيوخ البلد والصناجق من المماليك بعد موافقة السلطان ،وهو المسئول عن حفظ الأمن ونشر العدالة ".(٢)

٢ - الديوان : وهو "مجلس شورى الباشا المعروف بالديوان ويجتمـع اربع مرات في الأسبوع ومهمته النظر في الشئون الاقتصاديـــة والإدارية ،ولا يجوز للوالي أن يتخذ قرارا في أمر من الأمـــور الا بعد الحصول على موافقة الديوان ".(٣)

٣ - السناجق : "وهم حكام الأقاليم ولكل منهم في إقليمه سلطة كاملة وهو يباشر جميع الشئون الإدارية والإقتصادية ".(٤)

---

(١) محمد فريد المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، طبعة دار النفائس سنة ١٤٠١هـ ص١٩٢ ومابعدها ، تحقيق احسان حقي .
عبدالعزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م جـ١ ص١٩ .
تاريخ ملوك آل عثمان وولاتهم على مصر الى ولاية علي باشـــا مؤلف مجهول مصور بمركز البحث العلمي رقم ٥٨٣ .

(٢) أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م جـ٥ ص ٢٥٤ .

(٣) نفس المصدر جـ٥ ص ٢٥٥ .

(٤) نفس المصدر جـ٥ ص ٢٥٥ .

والسوءال الذى يرد علينا الآن و يتطلب منا جوابا هو : لماذا لم يتخذ العثمانيون "مصر" دارا لملكهم ؟

والجواب نجده عند الموءرخ "محمد بن أبي سرور البكرى"(*) فقد علل ذلك بقوله : " واما سادتنا آل عثمان فعدم جعلها دار ملكهم، وكرسي سلطانهم لخوفهم على " القسطنطينية " من الكفرة ، ولما ملكوا من جهة بر "روميل" من الكفار فخافوا أن يجعلوها دار ملكهم لبعد المسافة من مصر الى الجهة المذكورة ".(١)

و بعد : فلقد امتاز الحكم العثماني في مصر و غيرها من الولايات العربية بأنه حكم منظم و دقيق في مهامه الثلاث التي حددها لنفسه وهي : الجيش ،والقضاء ،والمالية. الجيش للدفاع والحماية للرعية وتوفير الأمن لها .

والقضاء للفصل بين الرعية في خصوماتهم.

والمالية لتحصيل الضرائب المفروضة على مصادر الانتاج من جمارك وصناعات و نحو ذلك ، وانفاقها في الوجوه المقررة لها .

تلك أسس النظام العثماني التي لم يعرفوا غيرها حتى في داخل سلطنتهم وكان ذلك مفهوم عصرهم لمسئولية الحكم(٢) ،وعلى الذين يصبون جام غضبهم على الدولة العثمانية أن يقتصدوا في احكامهم فان هذه الدولة ، قد خاضت حروبا ضارية تدافع عن الاسلام ،وأن تلك الحقيقة فهمها الشعب المسلم في مصر وغيرها من الولايات العثمانية ،

(*)

(١) محمد عبدالله عنان . موءرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى ، طبعة لجنة التأليف والنشر سنة ١٣٨٨هـ القاهرة ص ١٧١ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٦ .

فاضمروا وأظهروا لها كل هوامل الود والاخاء ،وأخذوا يرفعون أكفهم من أعلى المنابر ضارعين الى الله أن يحمي و ينصر دولة الخلافة ،لذلك من الواجب أن تصحح تلك الصورة المشوهة عن الدولة العثمانية و عدم الصاق التهم التي لا ترتكز على البحث العلمي ، " واذا كان العهد العثماني قد مضى وانقضى فان واجب الانصاف ،والامانة العلمية أن نزيل من الاذهان تلك التهم المغرضة التي أراد أعداء الاسلام تثبيتها في نفوس الناشئة لكي يباعدوا بينهم وبين الامة التركية المسلمة "(١).

ولننقل بعض ما قاله أمين سر الجامعة العربية عبد الرحمن عزام في حق آل عثمان "... كانت القرون الاولى لسيطرة آل عثمان عصورا ذهبية شمل فيها الناس الامن والرخاء والسلام الروحي ، ولم يكن فوز آل عثمان مستمدا كما يظن بعض الناس ، من السيف والشجاعة بل كان ما هو أعظم من السيف و من الشجاعة وهو احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع "(٢).

أما أن للحكم العثماني هنات ،وأن بعض السلاطين والولاة قد أتعب الناس فذلك ما لا ينكر ،ولكن ذلك لم يكن مسوغاً في نظري ، لهدم محاسن آل عثمان ،و ينبغي أن يعلم المغرضون أن الدولة العثمانية لم تبدأ في الانحدار الا في أيامها الاخيرة على الرغم من صلاح بعض السلاطين ولكن أعداءها الذين هم أعداء الاسلام تسوروا محراب تلك الدولة و سببوا المظالم للولايات العربية خاصة وما حدث ذلك الا بعد أن نحي الاسلام جانبا و نحي آل عثمان .

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٣٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٣٩ ، ٧٤٠ .

الحالة الاجتماعية :

لم يفرض العثمانيون على البلاد التي حكموها - ومنها مصر - أي طابع خاص بل تركوها تتابع حياتها الاجتماعية والاقتصادية كما يحلو لها .

وان كان ابن اياس أشار الى أن السلطان "سليم" نقل عددا كبيرا من الصناع مع من نقل من العلماء الى الاستانة وهذا يدل على أن الصناعة قد تعطلت في تلك الفترة ، وهي فترة وجيزة امتدت عامين و نصف تقريبا ،

فما إن مات السلطان "سليم" حتى خلفه ابنه السلطان "سليمان القانوني" ، فأصدر "فرمانا" يقضي بوجوب رجوع جميع العلماء والعمال الذين كان والده أمر بترحيلهم من مصر ، وباشروا نشاطهم العلمي والمهني في ربوع البلاد (١) .

ولا شك أن الصناعة تراجعت عما كانت عليه أيام المماليك على الرغم من عودة اولئك الصناع .

على أن تلك المهنة كانت عند فئة من الشعب المصرى ، وهي فئة قليلة نسبيا اذا ما قيست ببقية طبقات الشعب التي يشتغل بعضها في الزراعة والاخر في التجارة ، أما الزراعة فمعلوم أن العثمانيين ألغوا النظام الاقطاعي الذى كان سائدا ابان حكم المماليك ، وأحلوا محله نظام الالتزام ، الذى يقضي بامتلاك الحكومة لكل الاراضي فتعطي بعضها للحاكم ، وبعضها لنفقات الجند ، والملتزم يجبي من المزارعين ما يشاء ، وهذا يعني أن الفلاح كان يعيش في نوع من الشدة ، مما حدا بكثير منهم الى ترك أعمال الفلاحة فأثر تأثيرا سيئا على الانتاج الزراعي (٢) .

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ٢ ص ٦٩٢ .
أنور الرفاعي ، الانسان العربي و التاريخ ، طبعة دار الفكر سنة ١٩٧١م ص ٤٧٠ .

(٢) احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي طبعة مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٧ جـ٥ ص ٢٧٤ . محمد عبد العزيز كفراوى : تاريخ الشعر العربي ، طبعة دار نهضة مصر جـ٤ ص ١٧٠ .

أما الناحية التجارية فان الطريق التجارى الذى كان يربط أوروبا بالشرق الأقصى ويمر عبر بلاد الشرق الأوسط فيعود عليها بالرخاء، هذا الطريق تحول الى رأس الرجاء الصالح في صدر القرن السادس عشر الميلادى ، ولكن على الرغم من ذلك فان التجارة في مصر وغيرها من الولايات العثمانية بقيت مزدهرة سواء من قبل المسلمين أم غيرهم ،ولا أدل على ذلك من أن السلطان "سليم الأول" قد عقد في أثناء اقامته بمصر معاهدة مع جمهورية البندقية لتشجيع رعايا هذه الجمهورية على القدوم الى الاسكندرية بسفنهم ، ومباشرة نشاطهم التجارىفي جو من الطمأنينة والعدل والأمن ، الى غير ذلك من المعاهدات التي أبرمت مع عدد من دول أوروبا ،ولا شك أن ذلك يزيد من حجم التجارة الدولية في الولايات العثمانية مما يعود بنوع من الرخاء لشعوبها ،ناهيك عن الضرائب التي تحصل عليها الدولة من السفن التجارية التي تمخر في الممرات البحرية العثمانية ، مما حدا بها الى أن تنفق بسخاء على جيوشها ، وكانت البضائع الهامة كالتوابل والأصباغ والأقمشة الهندية تتبع في المعتاد الطرق التجارية القديمة عبر دمشق ومنها الى بقية الولايات العثمانية ، أما الطريق الآخر الذى كان يبدأ من موانيء سوريا ومصر عبر المتوسط ومنها الى الموانيء التركية ،فكان مخصصا للبضائع الثقيلة الوزن ، وكان الطريق البحرى أقل تكلفة من الطريق البرى لذا فقد فضله كثير من التجار.(١)

---

(١) تاريخ الشعر العربي جـ٤ ص ٢٨ .
والدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٢ ص ٧٠٠ .
محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، طبعة دار الثقافة القاهرة سنة ١٩٧٦م ص ٧٦ - ٧٧ .

و تلك الاتصالات التجارية عبر الموانيء المصرية عادت بنوع من الرخاء على الشعب مما وفر نوعا من الراحة النفسية التي كان لها عظيم الأثر في النتاج الثقافي ،الذى سنتكلم عنه فيما بعد ان شاء الله ، على أنه قبل الحديث عن ذلك سنتكلم في أسطر قليلة عن بعض الظواهر الاجتماعية التي كانت سائدة في القرنين العاشر والحادى عشر أكثر من ذى قبل ، ولم تكن معروفة قبل ذلك وعلى الأخص في مصر. وأهم تلك الظواهر :

١ - شراب القهوة " وقد قيل إن أول من اهتدى اليه هو أبو بكر بن عبدالله المعروف بالعيدروس .... وقد جاء الى مصر سنة ٩٠٥هـ" (١).
وشاع استعمالها بين المصريين في ذلك القرن ،وألفوا فيها مؤلفات كثيرة ، ودارت معارك علمية حول تحريمها وتحليلها وأسهم الشعراء بنصيب في ذلك فنظموا القصائد والمقطوعات في مدحها والاشادة بها (٢) ،وعلى رأس اولئك الشهاب الخفاجي وذلك حين قال :

أقولُ وقد دارتْ بنادىَّ قهوةٌ ... وقد سَرَّني منها الغَداةَ صَبوحُ
أصورةُ غِزْلانٍ بفِنْجان قهوتي ... إذا زقَّها ساقٍ اليَّ صَبيحُ
أم الظَّبيُ حقّاً قدتردَّى به فمن ... دمٍ طَفَح المسك الذكيُّ يفوحُ (٣)

وكان فريق من شاربيها يتعاطونها في أماكن معدة لذلك ،ويتخللها لهو وحضور من لا يحل حضوره من الجوارى والمرد فيتلذذ الحاضرون بذلك ، و فريق يشربونها في سكنهم أو يشربونها في المقاهي المعدة لذلك (٤).

---

(١) محمد سيد الكيلاني: الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ، طبعة دار القومية العربية سنة ١٩٦٥م . ص

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) شهاب الدين الخفاجي ،ريحانة الألبا طبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٨٦هـ جـ٢ ص ٢٢٦ .

(٤) العياشي ، رحلة أبي بكر العياشي المغزلى ،طبعة الجزائر سنة ١٣١٦هـ جـ١ ص ١٢٦ .

وفي كلا الحالتين لا نجد ذكرا للشعراء والأدباء في كونهم يتحاورون ويتدارسون الاشعار والاخبار في تلك المجالس .

٢ - والظاهرة الثانية التي وجدت في هذا العصر في العالم العربي وفي مصر بشكل أخص انتشار شرب الدخان الذى ظهر في مصر سنة ١٠١٢ هـ ، واختلف الناس فيه ما بين محلل ومحرم، وأسهم الشعراء أيضا في تلك الظاهرة ما بين مؤيد ومحارب له (١) ، وكان للشهاب الخفاجي بوصفه قاضياً شاعراً نصيب حيث قال مؤيدا :

ما شربْتُ الدُّخانَ إذ سِرْتُ عنكُمْ ... لِتَلَهٍ به عن الأحــــزان
أحْرَقتني الأشواقُ فالقلبُ منهـا ... صار بالوجْدِ مَخْزَنَ النِّيـران
فخشِيتُ الأنْفاسَ تَفْضَحُ حالــي ... فلهذا سَتَرْتُها بالدُّخَـان (٢)

وإن كنا لم نلاحظ أن للدخان مجالس خاصة .

فهذه الظاهرة والتي قبلها قد أدتا الى احتدام المناقشة كما قلنا بين أهل العلم مما أدى الى اذكاء الحركة الفكرية والتي سنتكلم عنها فيما بعد .

وما سبق ما هو إلا نماذج من الظواهر الاجتماعية التي راجت في هذا العصر ، مما يطول بنا المقام لو ذهبنا نتقصى كل ما حدث منها .

---

(١) الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ٢٢ ومابعدها .
(٢) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٨٣ .

الحالة الثقافيـة :

لقد تعود كثير من موءرخي الأدب والتاريخ أن يطلق عنان فكره تنقصا وازدراء لكل العصور التي تلت نكبة بغداد ، وإذا ما وصلوا الـى العهد العثماني ،زادوا الشتائم وأتوا بما تنفر منه الأذواق من زيادة الشتيمة لهذا العصر واهله ، وصوروه ليلا حالك السواد لم ير النور قط طيلة المدة التي بلغت زهاء اربعة قرون ، والحق أن الأمر لم يكن كذلك ،ولكي أبين ذلك لا بد من أن أرجع الى الوراء قليلا وألقي الضوء في أسطر قليلة عن الحالة الثقافية في العصر المملوكي فأقول :

معلوم أنه في العهد المملوكي تحولت مراكز الثقافة من بغـداد وقرطبة الى دمشق والقاهرة ،وبزغت شموس المعرفة من جديد في هذيـن القطرين واصبحا مركزين للعربية ورجالها ، وراجت أسواق العلم والأدب فيهما ،لأن السلاطين كان منهم من يخلص للاسلام ويتحمس للغته وأدبه ، وأن المدارس التي كانت مزدهرة في عهدهم لأكبر دليل على ذلك ، بل أننا نلاحظ أن كثيرا من الكتب ألفت برسم كثير من السلاطين المماليك ،وهاجر كثير من العلماء الى مصر والشام بعد الحملات المنيفة التي مني بهـا المشرق العربي -العراق - والمغرب العربي -الأندلس- وان نظرة متزنة الى ما بين أيدينا من كتب الأدب العربي الآن ماهي الا ثمرة من ثمرات ذلك العهد الميمون .(١)

---

(١) حسين مجيب المصرى ، في الأدب الاسلامي فضولي البغدادى امير الشعر التركي القديم طبعة دار الفكر للطبع والنشر ص ٦٣ ومابعدها .
عبداللطيف حمزة ،الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، طبعة دارالنهضة بمصر ص ٣٠ .

وجاء العثمانيون ليرثوا ما خلفه المماليك ، ولكنهم اتخـــــــذوا القسطنطينية عاصمة ملكهم ،فصارت الحياة العلمية فيها أنشط من غيرها ، ولكن ليس صحيحا ما يقال من أن الدولة العثمانية ضربت سياجا من حديد على العالم العربي ،وحالت بينه وبين الانتعاش الثقافي فالحـق أن تلك المدارس في القاهرة وغيرها في مكة والمدينة ودمشق استمرت فـــي أداء رسالتها الى المجتمع وأصبحت المدارس الملحقة بالمساجد مراكـــز لطلاب المعرفة ،ولم تنقطع عن التدريس والمدارسة للعلوم الاسلاميـــة والعربية وغيرها ،بل أطلق بعض المستشرقين على هذه المدارس اسم الكليات الملحقة بالمساجد (١) ، ويكفي للتدليل على ذلك ما ســطره الـرحالة المغربي -أبوبكر العياشي- (*) وذلك حين قال واصفا الأزهـر :

" وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر ،لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضـــان وفي الحقيقة كل الليالي بذلك المسجد كليلة القدر ،لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار ،لا تنقطع منه العبادة ليـــلا ونهارا صيفا وشتاء فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها ،حاشا المساجد الثلاثة ، لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها ، وان خـص هو بهذه الفضيلة فغير مستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل ، اذ الفضل بوجود التفضيل لا بوجود الفضيلة ".(٢)

---

(١) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٢ ص ٦٩٢ .
والانسان العربي والتاريخ ص ٢٧٣ .

(*) " هو عبدالله بن محمد بن أبي بكر أبو سالم العياشي شاعر ناثر رحالة مغربي له عدد من المؤلفات منها رحلته ماء الموائد أو الرحلة العياشية ولد سنة ١٠٣٧هـ وتوفي ١٠٩٠هـ" .
د . عائض الردادى ، الشعر الحجازى في القرن الحادى عشر ، طبعة مكتبة المدني جده ١٤٠٤هـ جـ ١ ص ٨١ .

(٢) عبدالله العياشي - الرحلة العياشية ،طبعة الجزائر ١٣٠٦هـ جـ١ص ١٢٦ .

ويقول أيضا عند وصفه لمدينة دمياط " وكان نزولنا بمسجدها الكبير وهو مسجد وثيق البناء ،فسيح الفناء ،على ساحل البحر يضرب الماء في سوره ، يتناول الشارب والمتوضيء الماء بيده من البحر وهو جالس في باب المسجد ،وفي المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ما في الأزهر ".(١)

ولم يكن ذلك الرحالة المغربي وحده من أدلى بتلك الشهادة فذا رحالة آخر يدعى "ابراهيم الخياري"(*) يقول واصفا الحركة العلمية بالأزهر " وصلت .... الجامع الأزهر الأقمر الأنور ، بعد عصر يوم السبت الرابع عشر من شعبان ، فاذا هو معهد للعلم و معهد للحلم ، به الفضلاء النبلاء ،والعلماء الكملاء ، من سائر المذاهب في سائر الفنون ، يديمون القراءة والاشتغال بالليل والنهار ، لا يهجعون فلله ما أعمره من مسجد بين مساجد الدنيا ، وما أنوره حسا ومعنى ،بالأحياء والمحيا ....".(٢) ويقول أيضا : " وشاهدت ... جماعة يقرؤون فيه دروسا تتعلق بفضل ليلة النصف من شعبان وما فيها من الفضائل فأجادوا وأفادوا ، وأبدوا فضلهم وأعادوا".(٣)

----

(١) نفس المصدر جـ١ ص ١٣٥.

(*) هو ابراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخياري المدني ولد بالمدينة سنة ١٠٣٧هـ أخذ العلم عن والده وغيره من العلماء مشهود له بالبراعة في كل العلوم والمعارف رحل الى دمشق والاستانة وغيرهما له شعر مفرق في عدة مصادر واهمها الكتاب الذى سطر فيه رحلاته مات سنة ١٠٨٣هـ .
المحبي ،خلاصة الأثر ، طبعة الوهبية جـ١ ص ٢٥ ، والشعر الحجازي في القرن الحادى عشر جـ١ ص ٩١.

(٢) ابراهيم الخيارى ،تحفة الادباء وسلوة الغرباء ،طبعة دار الرشيد بغداد جـ٣ ص ٦٧ تحقيق د. رجاء محمد السامرائي .

(٣) نفس المصدر جـ٣ ص ٦٩.

ويقول عــــن علمائه : " ولعمرى أن صولة العلماء فيه بالعلــم لظاهرة ،وان شدتهم على المعتدى عليهم نوع تعد لغالبة وقاهــرة ، يغلبون ان خوصموا ، يدحضون حجة الأخصام ان حوكموا ... كم لهم من وقائع مع الباشات والصناجق شهيرة ظهرت بالوجود أظهر من شمس الظهيرة ."(١)

ويعد القرنان العاشر والحادى عشر أفضل عهود الدولة العثمانية اذ تمتعت الدولة بشبه سلام داخلي ،وواصل العلماء وطلاب العلم دراسة العلوم والمعارف ،وكانت ثمرة تلك الفترة أن ظهر عدد من جهابذة علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ ،والدليل على ذلك ما حوته كتب التراجم في هذه الفترة من أعداد كثيرة لأسماء العلماء في شتى صنوف المعرفة.

فقد ظهر في هذا العصر عدد كبير من كبار الفقهاء من أمثـــال : محمد بن احمد الرملي ومنصور البهوتي (*) ، واحمد بن احمد الشويرى (**) وغيرهم من العلماء وهؤلاء قد استطاعوا استيعاب المذاهب الفقهيــــة التي ينتمون اليها ،وفهموها فهما جيدا وأصبح كل واحد منهم خبيـــــرا بمذهبه محيطا به احاطة تامة.

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٧١ .

(*) منصور بن يونس بن صلاح الدين بن حسن بن احمد بن علي بن ادريس البهوتي شيخ الحنابلة بمصر رحل الناس اليه لطلب المذهب الحنبلي له عدة مؤلفات منها شرح الاقناع وحاشيــة على الاقناع وشرح منتهى الارادات وشرح زاد المستقنع وغيرها كانت تأتيه الصدقات فيوزعها على طلاب العلم دون أن يأخــــذ منها شيئا ، توفي في سنة احدى وخمسين والف بمصر . خلاصة الأثر جـ٤ ص ٤٢٦ .

(**) احمد بن احمد الخطيب الشويرى شيخ الحنفية في زمانه درس على عدد من علماء زمانه كان مشهورا بالصلاح توفي في ١٠٦٦هـ . ترجمته في خلاصة الأثر جـ١ ص ١٧٤ .

وظهر أيضا من أعلام هذا العصر " حاجي خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧هـ المشهور بكتابه "كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون " وأحمد بن محمد المقري المتوفي سنة ١٠٤١ هـ الشهير بكتابه " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ، وعبد القادر البغدادي الشهير أيضا بمؤلفه " خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب " . وظهر في هذا العصر عدد ضخم من الشعراء والأدباء والمؤرخين ، وقد حوت كتب التراجم عددا كبيرا منهم وأهم تلك الكتب :

" ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا " لشهاب الدين الخفاجي ، و " سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر " لعلي بن احمد بن معصوم ، و " نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة " لمحمد بن فضل الله المحبي ، و " سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر " لأبي المعالي درويش محمد الطالوى ، إلى غير ذلك من المؤلفات التي تتحدث عن أدباء وشعراء هذا العصر .

إذا فتلك الدعوى القائلة بانحطاط الحالة الثقافية في هذا العصر فيها كثير من التجني وتعوزها النظرة العلمية المتزنة ، والا فما معنى وجود اولئك العلماء والأدباء الذين نحن اليوم مدينون بما أسدوه للمكتبة العربية والاسلامية من جهود مشكورة لا يمكن بحال من الاحوال نكرانها . والعجب أن أول من اطلق ذلك الحكم فيما نعلم المؤرخ النصراني الحاقد على الاسلام وأهله ذلك هو جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية وذلك حين قال : " فسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح ، وأصاب الشعر ما أصاب سائر الآداب العربية في هذا العصر من الضعف والانحطاط لما استولى عليه الجمود على القرائح ، وتوالى على الأمة من

الذل في تلك الفترة المظلمة ...".[1]

يا للهول ، بجرة قلم يحكم جرجي زيدان على الأدب العربي كله من المحيط الأطلسي غربا الى حدود روسيا شرقا بأنه كان أدبا منحطا متكلفا لا أثر للحياة فيه ،وتابع جورجي زيدان في هذا الحكم كل من جاء بعده من الكتاب الذين تعرضوا لهذا العصر".[2] بما في ذلك شوقي ضيف الذى نظن أنه انساق وراء ذلك الحكم بنية حسنة وذلك حين قال : " ويدخل العصر العثماني وتدخل مصر معه في ظلام قاتم .... ولا نستطيع أن نقول إن الشعر انمدم في العصر العثماني فقد كان موجودا ولكنه وجود خير منه العدم ،اذ اقتصر الأمر على جماعة يقرؤون بعض القصائد الموروثة وخاصة التي كانت قريبة من عصورهم ثم يعارضونها أو يخمسونها أو يربعونها ،فيأتون بنماذج لا روح فيها ولا جمال ،إنما هي تقليد ركيك ضعيف .... فقد أسف الشعر ولم يعد من الممكن أن يعود الى الارتفاع والتحليق في أجواء الفن العليا إلا إذا قدمت له إليه مجهودات شاقة وكأنما جفت في هذا العصر كل الينابيع الممكنة التي كانت تمد الشعر بأسباب الحياة .... فقد عم الظلام وعمت الكآبة ، ولم يعد هناك الا جو خانق يشمل كل شيء".[3] .

---

(١) جورجي زيدان ، تاريخ اداب اللغة العربية ، طبعة دارالهلال سنة ١٩٣١م جـ٤ ص ٢٧٤ .

(٢) الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ١ .

(٣) د . شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، طبعة دار المعارف بمصر ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

فهل يعقل أن كتب التراجم الأدبية في هذا العصر - السالفة الذكر - لم تحو شعراء يمكن ان يستثنوا من تلك القاعدة ،فهل يعقل أن يكون هؤلاء الشعراء : الأمير "منجك" وكذلك الطالوى ،وتقي الدين الصالحي الهلالي ،والشهاب الخفاجي ،ومحمد بن يحي المنوفي (*) وغيرهم كثير جدا ، ممن كان أدبهم منحطا متكلفا لا أثر للحياة فيه أم أن تلك الأحكام ألقيت هكذا دونما معرفة بأولئك الشعراء ؟ أظن أن الأمر كذلك ، والا بماذا نفسر تلك الأحكام من قبل بعض الأدباء الذين يظن بهم النية الحسنة ، لذلك ينبغي على المخلصين من ابناء هذه الأمة أن يبينوا الحقيقة ،وأن يفندوا تلك الآراء ، ولن يكون ذلك إلا بدراسة هذا العصر دراسة وافية لإيضاح دور بعض الشعراء الكبار في هذا العصر ، على أننا ونحن بصدد الحديث عن الحالة الفكرية في هذا العصر نود أن نشير الى الأمور التالية :

١ - إن الدراسات اللغوية والدينية والأدبية والتاريخية قد حظيت ،بنصيب أوفر مما حظيت به العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر في هذا العصر علماء في الطب ذوو شهرة ومعرفة لا تنكر مثل " داود الانطاكي " - الآتي ذكره باذن الله - ولعل السبب في الإقبال على الدراسات الدينية واللغوية والأدبية ،يرجع الى قانون العرض والطلب فأصحاب تلك العلوم لهم المكانة الاجتماعية عند الدولة والمجتمع لأن معظم وظائف الدولة تقوم على العلوم الدينية وما اتصل بها .

(*) ستأتي ترجمته ص ٣٤ .

٢ - اتخذت الدولة المذهب الحنفي مذهبا رسميا لها وآثرت معتنقيه بالوظائف الرسمية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان للمذاهب الأخرى أنصار ، وتشبث المصريون بالمذهب الشافعي على الأخص .

٣ - انتشرت المذاهب الصوفية انتشارا كبيرا ،وظهر في هذا العصر كثير من مدعي الولاية ،واتخذوها وسيلة للتكسب ،ولعل أهم مذهب صوفي انتشر في هذا العصر هو المذهب "البكرى" ، وقد شجعت الدولة هذا المذهب نظرا للخصومة القائمة بينها وبين الدولة الصفوية التي تتبنى المذهب الشيعي . وكان أشد بلاء فتك بالمجتمع في هذا العصر هو انتشار هذه المذاهب الهدامة ،ولكن دون أدنى شك أن المذهب السلفي كان له أنصاره المناهضون لهذه الأفكار التي لا تمت الى الدين بصلة (١) .

---

(١) تاريخ الشعر العربي جـ٤ ص ٢٤ . والأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ٣٥ ومابعدها . والانسان العربي والتاريخ ص ٤٧٣ .

الفصل الثانى

ـ رحـــلاته .

قبيلة الشاعر :

الخفاجي نسبة الى " خفاجة بن عمرو بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة".(١) وزعم السمعاني كما ذكر ابن الأثير -أن خفاجة اسم امرأة ورد عليه ابن الأثير بقوله : " وليس الأمر كذلك بل هو رجل اسمه خفاجة بن عمرو بن عقيل ، وقيل ان خفاجة لقب واسمه الحقيقي معاوية من قبيلة بني عامر الشهيرة ".(١) ولقد أصبح لهذه القبيلة فروع كثيرة في نجد والشام و مصر والعراق ،وكانت لهم دولة في العراق .(٢)

ومن المؤكد أن هذا الأديب يرجع نسبه الى هذه القبيلة العريقة ، حيث نجده يفتخر في مقدمة كتابه "ريحانة الألبا " بنسبته اليها حين قال : " ... وأرتشف من طبعي ما ينم عن سر الزجاجة ، وأرتشف منه ما أسأرته الجدود من ذوءابة خفاجة ".(٣)

ونجد ابن معصوم وهو معاصر للشهاب الخفاجي يقول موءكدا هذه النسبة : " أحد الشهب السيارة ،والمقتحم من بحر الفضل لجة تياره ، فرع تهدل من ذوءابة خفاجة ".(٤)

---

(١) عز الدين بن الاثير ، اللباب في معرفة الانساب ، طبعة دار صادر سنة .. جـ١ ص ٤٥٤ .
(٢) محمد عبد المنعم خفاجي ، الخفاجيون في التاريخ ، طبعة المكتبات الازهرية ص ٣٤ .
(٣) ريحانة الألبا جـ١ ص ٤ .
(٤) علي بن احمد بن معصوم ، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، مطبعة الخانجي ، القاهرة سنة ١٣٢٤هـ ص ٤٢٠ .

إذا فنسبة الشهاب الخفاجي الى قبيلة خفاجة مؤكدة لا شك في ذلك وإن كنا نجد المحبي في خلاصة الأثر يقول عنه : " والخفاجي نسبة إلى أبيه خفاجة ولا أدرى معناه ".(١)

و يحلل الاستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي عدم معرفة المحبي ذلك بقوله :

" وإذا كان المحبي في خلاصة الأثر لم يحقق هذه النسبة واكتفى بقوله : خفاجة من بني عامر فلعل أصل والده منهم ، فذلك لأنه لم يكن من علماء الأنساب ،وكانت حياته بعيدة عن الحجاز و تجد وصميم القبائل العربية ،ولم يكن من العرب الخلص وغير العرب الخلص لا يهتمون بالأنساب ومعرفتها اهتماما كبيرا ".(٢)

ونجد شخصا معاصرا للشهاب الخفاجي لم تذكر المصادر اسمه يهجو الخفاجي مدعيا عدم صحة نسبته الى تلك القبيلة العريقة حين قال :

شهاب الدين دَعْ عنْك اللَّجاجة فلسْتَ تُعدّ من عليا خفاجة
نُسِبْتَ اليهمُ ظُلْماً لعمرى كما نُسبتْ إلى الطيرِ الدَّجاجةْ (٣)

فهذا من قبيل العداوة الشخصية ،ولو كانت من شخص ذى مكانة يعتد بها لذكرت المصادر اسمه ولم تهمله .

---

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .
(٢) الخفاجيون في التاريخ ص ١٤٢ .
(٣) سلافةالعصر ص ٤٢٧ .

نسبه :

هو : " أحمد بن محمد بن عمر الملقب شمس الدين بن سراج الدين الخفاجي المصرى" [١] المولود سنة ٩٧٧هـ.

كان والده أحد أعيان علماء عصره المشهود لهم بالمكانة ، يقول عنه الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي : " كان والده - أى والد الشهاب - رأس المذهب الحنفي بالقاهرة يرجع إليه أمر الفتوى والرياسة ، بعد شيخ المذهب علي بن غانم المقدسي ، وكان فقيها واسع المحفوظ ، له الفتوى المشهورة وهي في مجلد كبير ، ولوالده كتب أخرى نافعة سائرة ، تفقه على والده ، وعلى قاضي القضاة نور الدين الطرابلسي المصرى" [٢].

ويقول عنه المحبي " ... أحد أجلاء العلماء في عصره ، كان سن الفضل في المكانة السامية والهضبة العالية ، مفننا بارعا محققا مدققا ، مشهور الصيت ذائع الذكر ، أخذ عن كبار الشيوخ وتصدر للإفادة والتدريس ، انتفع به جماعة من كبار العلماء منهم أبو بكر الشنواني ، وكفاه بتتلمذ هذا مفخرا ولزمه ابنه الشهاب وتأدب به وعليه تخرج ... وكانت وفاته في سنة احدى عشر بعد الألف" [٣].

ولكن سنة وفاته هذه التي صرح بها المحبي هنا يعتريها الشك حيث أن الشهاب الخفاجي في كتابه الريحانة يذكر أن والده نعى اليه في الوقت الذى نعي اليه خاله أبو بكر الشنواني ، والمحبي

---

(١) محمد عبد المنعم الخفاجي : الخفاجيون في التاريخ ، المكتبات الإزهرية ص ١٤١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المحبي ، خلاصة الأثر ج٤ ص ٧٦ .

نفسه يذكر أن وفاة أبي بكر كانت سنة تسع عشرة بعد الألف فلا ندري أيهما أصح وقد رثاه عند وفاته محمد بن يحى (*) المنوفي بقصيدة منها :

ما بَالُ أيْدِى النَّائِباتِ تَخُونُ ... وتُدِيمُ رَضَّ المَجد وهو رَصِين

يا دهرُ لا عُتْبَى عليك ولا رضا ... كلُّ المصائب بعد ذاك تَهُونُ

تَعِدُ الورى البُؤْسَى فتسرعُ وَقْعَها ... وإذا وعدتَ بما يَسُرُّ تَمِين

ومنها :

لو كانَ يُجْدِى النَّوحُ مَيْتاً قبلَه ... نَفَعاً لناحَتْ أعصُرٌ وقرونُ

يا واعِظاً بسُكونِهِ حَرَّكْتَنَا ... ولأنْتَ بالوعْظِ المُفيد قَمِينُ (١)

الرضف : الحجارة المحماة ، تمين : تكذب ، قمين : جدير .

ولقد كان أديبا شاعرا ، يدلنا على ذلك ما نقله الشهاب في كتابه "طراز المجالس" مفاده : أن شيخ الاسلام السراج البلقيني وجه اليه سوء الا سببه أن الشيخ محمد بن عبد الواحد الدكاتي المغربي قدم من المغرب الى مصر وفي أثناء إقامته بها لم يأتم بأحد من أهلها ولا غيرها ، لشبهة أن الأئمة يأخذون الأجرة على الإمامة وهو ممنوع ، فهجي من قبل بعض المصريين ، فسئل والد الشهاب عن هذه المسألة فأجاب

(*) هو محمد بن يحى المنوفي الشافعي أخذ العلم عن جمع من العلماء على رأسهم والد الشهاب ، رحل الى بلاد الروم وتمذهب بالمذهب الحنفي ، ولي القضاء في نواحي مصر ثم تركه واعتزل الناس . له شعر كثير ذكر الشهاب الخفاجي بعضا منه وكذلك المحبي ، ت : ١٠٤٢ هـ . خلاصة الأثر جـ٤ ص ٢٦٦ والريحانة جـ٢ ص ٨ .

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٩ - ١٠ .

بقصيدة عدد أبياتها عشرون بيتا منها :

لوجْهِ الهِ الخَلْقِ حمْدٌ تَبَجَّلا — تَبَارَكَ ربُّ العَرْشِ للدين فصَّلا

لشِرْعَةِ خَيْرِ الخَلْقِ أحْمَدَ عبده — ففيها إلهُ الناس للدين أكملا

عليه صلاةُ اللهِ ثمَّ سلامُه — يجيآنِ بالبُشْرى وبالخير مكملا

ومنها :

مساجدُ أهْلِ مصر فيها أئمةٌ — صلاةٌ لهم صحّتْ بما قد تفصّلا

وأخْذُهمُ الأرزاقَ ليس بقادحٍ — بفُتياهمُ حقاً وكلٌ تعدلا (١)

على أن هذه القصيدة هي إلى النظم التعليمي أقرب منها الى الشعر ،ولم نعثر على غيرها فيما بين أيدينا من مراجع .

نشأ شهاب الدين الخفاجي في حجر والده ،وعلى يده ترعرع وتربى ،وكان أبوه - كما مرننا - أحد أعلام عصره ،لذا كان من البدهي أن يكون أول تعلمه على يديه ونحن نجد الشهاب يتحدث حديث المفتخر بذلك المنشأ الذى نشأه حيث قال " فقد كنت بعد سن التمييز في مغرس طيب النبات عزيز ، في حجر والدى متمتعا بذخائر طريفي وتالدى ،مربى بغذاء علمي الظاهر والباطن ،في النعيم المقيم بأرفع المساكن ، ومقام والدى غني عن المدح " (٢) .

ثم بعد ذلك اتجه إلى أقرب الناس اليه بعد والده من علماء زمانه وهو خاله أبو بكر الشنواني حيث قرأ عليه علوم العربية ،وبعد أن نهل من

---

(١) الشهاب الخفاجي ، طراز المجالس ، المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٤هـ ، ص ١٧٣ .

(٢) شهاب الدين الخفاجي ، ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٢٧ .

علم والده وخاله ترقى في طلب العلم والاستزادة منه حيث قرأ " المعاني والمنطق وبقية علوم الأدب " ثم بعد ذلك وجه همته لطلب الفقـــه وعلومه ،وكان أهم مذهبين منتشرين في مصر وقت ذاك مذهبا أبي حنيفة والشافعي رحمهما الله لذا قام الشهاب بالنظر في كتب هذين المذهبين ، وأخذ علمه عن جهابذة العلماء بمصر (١) مما سنعرض له ان شاء اللـــه حين الحديث عن مشائخه .

هذا عن حياة الشهاب العامة أو بالأحرى العلمية أما حياته الخاصة كزوجاته وابنائه ونحو ذلك من الشئون الأسرية فان المراجع التي بيـــن أيدينا لا تسعفنا بأي معلومات في هذا الشأن.

---

(١) المصدر السـابق جـ ٢ ص ٣٢٧ .

رحلته الى الحرمين :

إن آمال الانسان في الحياة لا يمكن أن يبلغها على وجه السهولة مطلقا ، وكان لزاما عليه أن يجد وهو يخوض غمار الحياة كثيرا من المصاعب ، وإن التزود بالعلم وخاصة في الأزمنة الماضية لمن أفضل مطالب الانسان الطموح ، ولا بد له والأمر كذلك أن يتحمل كل ما قد يعترضه في سبيل تحصيله للعلم .

فهذا الشهاب الخفاجي ألزم نفسه التزود بالعلم ، ولم يأل جهدا في سبيل ذلك ، حيث نراه يشد الرحال من مصر الى ديار الحرمين ، علّه يجد فقيها يأخذ عنه فقهه ، أو محدثا يأخذ عنه حديثه ، أو أديبا ينثر اللؤلؤ فيلتقط عنه حباته ، فاجتاز الفيافي والقفار ما بين مصر والحرمين ، واخترق حاجز الليالي المظلمة لأنّ نور العلم يضيء له طريقه ، ولقد كان من طالع سعده أن قيض الله له أبا يعرف العلم ومقدار المشقة في تحصيله ، فصحبه في تلك الرحلة الميمونة إلى هذه الديار المباركة ، ولندع الشهاب يحدثنا عنها في هذه الأسطر المنتخبة : " لما امتطيت مطايا الهمم ، ووجهت وجه عزمي إلى قبلة الأمم ، ورعيت بالأحداق حدائق تلك المسارح ، وقد سالت بأعناق المطي الأباطح ، في وفد ركب عزمهم غارب السرة وامتطى ، وهدتهم النجب الى أودية يضل فيها القطا ، فقطعوا مهامه وأطلال[(1)] يخاف أن يسرى بها طيف الخيال ...... بليل يعاطى فيه الركب من خمر النعاس ، راحا لم تذق نشأتها مراشف كاس ، والشمال تحدوهم بمسكي الأنفاس ، والسماء حديقة نرجس بين ريحان وآس ، .... ولم أزل أدأب في التسيار ، إلى أن نفضت عن منكب المشقة غبار الأسفار ، فنزلت بجوار بيت الله الحرام ،

(1) أجلّ الشراب بالخو لمراعات السجع

وتطيبت بمسك تراب الحطيم والمقام وقلت :

بمكَّةَ لي غناءٌ ليس يُفنَى   جوارُ اللهِ والبيتِ المُعظَّم (١)

ومكث بمكة مدة وقابل من بها من العلماء واستفاد منهم علما كثيرا. وسنذكر مشائخه في الحرمين عند الحديث عن شيوخه بإذن الله. وخالط أيضا بعض أمراء مكة وسراة القوم من أهلها . فقد مدح الشريف مسعود بن حسن بن أبي نمي محمد بن بركات الحسني بقصيدة مطلعها :

قومٌ غزوتهم رأيتَ جسومَهم   مُقَلاً لهنَّ إشارةُ المتكلِّم (٢)

وكان ممن قابله بمكة "محمد بن أبي الخير ابن العلامة شهاب الدين احمد بن حجر الهيتمي" قال الشهاب : "رأيته وأنا بالحجاز ، وليس بينه وبين الكمال حجاز ، وأنشدني له شعرا من خير الأمور.." (٣)

ثم رحل بعد ذلك إلى المدينة المنورة ولسان حاله يقول :

وما دَرَى البيتُ أني بعدَ فُرْقتِه   ما سِرْتُ من حرَمٍ إلاَّ إلى حرمِ (٤)

وما إن وصل طيبة الطيبة حتى غمرته الفرحة "فنزلت أعتنق الآرام مسلما وكدت ألثم أخفاف الرواحل ، إذ أوصلتني إلى أعذب المناهل ... فحللت في أرفع مقام ...." (٥) ثم قفل راجعا إلى مصر ولكنه لم يسجل لنا كيف رجع ، ولا مدى تألمه لمفارقة الديار المقدسة .

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٧٩ .

(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٣٩٥ .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٤٣٤ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٠ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

أما عن زمن تلك الرحلة ، فلعلها كانت قرب منتصف العقد الثاني من عمره ،ويستشف ذلك من خلال بعض ما أورده عمّن قابله بمكة ورآه وأخذ عنه ،مثال ذلك قوله عن شيخه " علي بن جار الله الحنفي"، " رأيته وقد طعن في السن وليس له غير العصا قنا ،وقد رقي شرف السبعين وهي سلم الفنا ".(١)

فسيأتي لنا عند الحديث عن هذا الشيخ أنه مات وقد جاوز التسعين ، فإذا أخذنا على أقل تقدير أنه رآه وعمره خمسة وسبعون عاما ،وأن عمره حيث مات خمسة وتسعون ،وثابت أنه مات سنة عشر بعد الألف(٢) ، اذا فقد رآه الشهاب قريبا من سنة ٩٩٠ هـ وعمره قرابة خمسة عشر عاما ، وهذه المرحلة كما هو معلوم تعد من أهم مراحل التحصيل في عمر الإنسان فلا غرابة أن يستغلها الشهاب إلى جانب وجوده بمكة ليأخذ العلم على كثير من علمائها كما سيأتي ذكرهم ، ولا شك أنه لم يكن ليتحمل مع والده مشاق الرحلة لقصد النزهة والاستجمام بل لقضاء النسك أولا والتزود من المعارف والأخذ عن مشاهير علماء الحرمين ثانيا .

*

رحلته الأولى الى بلاد الروم :

بعد أن قضى على حكم المماليك في مصر والشام ، اتخذت الدولة العثمانية الاستانة عاصمة الخلافة الاسلامية ،فأصبحت محط أنظار الناس عامة على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وحل بها جهابذة العلماء ، فنظرا لذلك ولما عرفناه من حب الشهاب الخفاجي للعلم وحرصه على التزود منه ،

-----

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٤٤٠ .

(٢) خلاصة الأثر جـ٣ ص ١٥١ .

والأخذ عن أفاضل العلماء لذا قرر أن يرحل إلى تلك البلاد ،وكان هذا مسوغاً واضحا وقد بين ذلك بقوله : " لما رأيت الدنيا ميدانا والأجساد فيها خيل عتاق ، والمسابقة فيها إلى الخيرات من أجل السباق "(١) كان ذلك هو السبب المباشر والأول الذى حدا بالشهاب للرحيل عن مصر إلى بلاد الروم ولكنه في مواضع أخرى من الريحانة يضيف سببا آخر الى ذلك السبب وهو سوء الأحوال في مصر ،وأنه لاقى من أنواع الضيق والمشقة والأذى ما لا يطاق ،مما كان سببا لتكدر صفو عيشه ،وعدم ارتياحه وقد بين ذلك حين قال : أن مصر وإن كانت " ربوعها بالفضلاء والأدباء عامرة ، وهي عشي الذى منه درجت ، ووكرى الذى به ريشت ، ومن بيضة بلدته خرجت . . . . . . إلا أنها أبدت العقوق . . . وأذاقتني الأذى وجرعتني الدم في المشيمة وأخرجتني من مضيق لمضيق ، وشدت في المهد قيدى الوثيق . . . . . . فنفرت من ظلى ،وأسأت الظن بصميرى فكرى وعقلي ، وعادتني نفسي فما ظنك بأهلي "(٢) ويقول في موضع آخر : " ونبت بي الأوطان ،وعاداني الزمان . . . . . . وارتحلت للروم والقضاء والقدر سائق لي وهادى ،وقلت إذا كان أصلي من تراب فكل الأنام أقاربي وكل البلاد بلادى "(٣) .

لذا قرر الرحيل والتطواف في الآفاق طه يحظى بما يريح باله ، ويجد من يأنس به ويعرف له حقه ،ولا بد له والأمر كذلك أن يواجه المصاعب ،وأولها حبه لوطنه وهو أمر مجبول عليه الانسان ،فها هو عندما

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٥٠ .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٢٤٧ .

عزم على الرحيل تردد كثيرا ،وكاد أن يثني عزمه قول " احمد بن سليمان الفجرى الى عبد المحسن الصورى " :

إذا استحيا أخوك ولاك ظلما ... فمثل أخيك موجود النظير

ففارقه لكي تلقى كريما ... تزول بقربه إحن الضمير

فما كل البرية من تراه ... وما كل البلاد بلاد صور

فأجابه :

جزاك الله عن ذا النصح خيرا ... ولكن جاء في الزمن الأخير

وقد حدت لي السبعون حدا ... نهى عما أمرت من الأمور

ومذ صارت نفوس الناس حولي ... قصارا عذت بالأمل القصير (١)

ولكنه يصر على الرحيل عن بلاد " فقد فيها الدين والدنيا والكمال " (٢)

وتسعفه شاعريته وتزيده عزما واصرارا على مفارقة مصر ومن بها حين قال :

ترحلت عن أرض يهان بها العلا ... فقالت أبعد الشيب تنأى عن الأهل

فقلت مشيبي موقد فوق هامتي ... مشاعل أسفاري وقد قربت رحلي

فان خفت طعن السن فالطعن قاتل ... لفقرى محي للمآثر والفضل (٣)

واستطاع بذلك التغلب على تلك العاطفة نحو الأهل والأوطان ،وواجه لحظات ونزعات نفسية عصيبة كما ذكرنا ولكنه تسلح بسلاح لا يثلم ولا يبلى ألا وهو

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .
وقد نسبت الأبيات الاولى في الريحانة لعبد المحسن الصورى والابيات الثانية الى احمد الفجرى والعكس هو الصحيح كما في يتيمة الدهر للثعالبي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبعة دار الفكر جـ١ ص ٣٠٩ ولم ينبه الى ذلك محقق الريحانة .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٣١٣ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣١٤ .

سلاح الصبر " ما أجمل الصبر لو صبرت الأعمار ... ...

وكم نَبَتِ الأوطانُ يوماً بأهلِها   فأوْرثهم عِزَّ الحياةِ التَّغَرُّبُ

وهذا رسولُ اللهِ فارقَ مكّـةً   على جَفوةٍ لم تَرْضَها فيه يَثْرِبُ

" ففي كل قوم أوس و خزرج ،ومن العمود الى العمود فرج ".(١)

وما إن وصل إلى تلك البلاد حتى جدّ في التحصيل واستفاد في رحلته هذه وأفاد ، وحظى بالخير الوفير ،ورأى فيها من الأعاجيب وخالط العلماء وسراة القوم ودارسهم في كل فن ، وقد بين ذلك حيث قال :

" ولكن الله تعالى من علينا بالسلامة وأنعم بلا كدر للوصول لدار الاقامة ،فرأيت فيها من العلماء والأشراف ،ما تنقطع دون بيانه النعوت والأوصاف ،فنافستهم في مدارسة العلوم ، واستفدت منهم ما تسهرلسامرته عيون النجوم لا سيما العلوم الطبيعية والرياضية ،ومقاطع الأنظار المنطقية والكلامية ، فظفرت ولله الحمد بما حمدت به عقبى السرى ، و ربحت فيما أنفقته من رأس مال العمر أنفس مشترى ،وقلت نور على نور ،وتجارة لن تبور".(٢)

إذاً قد استفاد الشهاب في أثناء اقامته ببلاد الروم خيرا كثيرا وقابل عددا كبيرا من العلماء منهم من تتلمذ عليهم - وسيأتي الحديث عنهم حين الحديث عن مشائخه - ومنهم من جالسه وحادثه محادثة القرين لقرينه وهؤلاء عدد كثير لا يدخل تحت حصر ،ولعل أهمهم :

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ٦٠

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٤٨٠

١ - "علي بن الحنائي بن أمر الله الحميدى " قال الشهاب " فكان ممن لاقيته وأدرت معه كئوس المذاكرة فعاطني وعاطيته ، علي بن الحنائي وهم بيت علم وأدب ، فيه شرف نسب علي وحسب ".(١)

٢ - عبدالكريم بن سنان : قال الشهاب " كان من صحبته بالروم ابان الشباب ، فكان عونا لي على الزمان ، فكنا نتراضع شدى الكئوس ،و نتجاذب أهداب الانس في الدروس .... فكان مما قلت في خطابه ، مثنياً على غرر آدابه :

وأنت الذى عرَّفتني طُرُقَ العلا   وأنت الذى أهْدَيْتَنِي كلَّ مَقصِدِى
وأنت الذى بلَّغْتَني كلَّ رتبة   مشيْتُ إليها فَوْقَ أعناقِ حُسَّدِى (٢)

٣ - محمد بن برهان الحميدى (*) : قال الشهاب " كان أخي شقيقي ، وصنو روحي ورفيقي وكان يوما بمنزلي مع الاخوان ،فأرادوا الجرى على العادة في الدخان ،فأبى ذلك لانه يراه من منكرات الزمان ، فقلت له بديهاً :

---

(١) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٢٤٩ وقد ترجم له الخفاجي في الكتاب المذكور وذكر طرفا من شعره ونثره .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٢٧٧ وترجم له فيها وذكر طرفا من نثره ، ولم اعثر على ترجمة له ولا الذى سبقه في أى مصدر آخر غير ما ذكر .

(*) هو محمد بن عمر بن برهان الدين الحسيني الحميدى الاصل ولد بقسطنطينية وتولى نقابة الاشراف ولي عدة مناصب قضائية في حلب والقدس وغيرهما وأعطى قضاء مكة بعد عزله عن نقابة الاشراف فسافر اليها وتوفي وهو في طريقه اليها بمدينة جدة سنة ١٠٤٣ هـ . خلاصة الاثر جـ٤ ص ١٧٧- ١٧٨ .

فديتُك جُدْ بإذنٍ للنّدامى   ليأتوا بالدُّخانِ بلا توانــــي
تُريدُ مُهذَّباً لا عَيْبَ فيـــهِ   وهلْ عُودٌ يَفوحُ بلا دُخـــان

فقال بديهاً وأجاد :

إذا شُربُ الدُّخانُ فلا تَلُمْنى   على لَوْمي لأبناءِ الزَّمــــان
من الإخوانِ أَهْوَى طيبَ خُلْقٍ   كمثْلِ المِسْكِ فاحَ بلا دُخـــان (١)

*

وظائفه ـ وعودته الى مصر :

إن العلماء في كل زمان و مكان يمتلكون من المواهب وغزارة العلم ما يجعل المجتمع أي مجتمع كان يُقدِّرهم و يهابهم ، مما يلفت نظر الحكومات وخاصة في الأزمنة الماضية فتوليهم المناصب اللائقة بمقامهم ، فهذا الشهاب الخفاجي عندما رحل الى عاصمة الخلافة الاسلامية ، ما ان وصل اليها حتى عرف المجتمع قدره و مكانته ، ولم يكن ذلك التقدير ليحصل لولا ما لمسوا عنده من غزارة في العلوم والمعارف ،وما إن كسب ود المجتمع حتى كسب ود رجالات الدولة ، فولوه قضاء بلاد " روم ايلي " ، و في الحق أنني لم أعثر فيما لدي من مراجع على مقدمات توليته ذلك المنصب أو بالأحرى كيف تم ذلك ، ولكن الأمر ينم عن اتجاه الدولة العام في عدم التفريق بين سكان ولاياتها وخاصة في مثل هذه المناصب الدينية .

ثم ان الشهاب لمع نجمه ،وطارت سمعته وأطبقت الآفــاق ، فازدادت مكانته عند الدولة ، ووصل الى أعلى مناصب " روم ايلي " فولي قضاء " أسكوب " وغيرها ثم سرى خبره وأصبح معروفا لدى كل طبقات

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٠ .

الدولة ، عرفه عندئذ السلطان "مراد"(*) فولاه منصبا أليق بمثله ، ودرجة أعلى من درجات السابقة في السلم القضائي حيث ولاه قضاء "سلانيك" ، فانفتحت عليه الدنيا ،فجمع مالا كثيرا (١) قد يكون من الراتب الرسمي الذى تقرره الدولة ،وقد يكون من طريق آخر مما سنعرض له فيما بعد ان شاء الله .

العودة لمصر :

ثم ما لبث ان عاد الى موطنه - مصر - الذى ضاق به واضطره للهجرة ولكنه لم يعد مثل ما خرج منه بل عاد "قاضي عسكر" (٢) وذلك منصب عال لا يتولاه الا كبار العلماء في الدولة ،ومن الصعوبة بمكان أن نحدد الزمن الذى تولى فيه صاحبنا تلك المناصب - كما قلنا سابقا - ولا الفترة التي قضاها في كل منها حتى وصل الى تلك الدرجة من القضاء ، والمهم في الأمر كله أنه جلس مدة ينعم بذلك المنصب وما يدره عليه من خير وفير في ربوع وطنه وبين أهله وذويه ولكن الحاسدين له أرقهم ذلك وسعوا به بطريقة أو بأخرى ، فلم يلبث أن عزل عن قضاء العسكر وتلك كارثة الكوارث بالنسبة له ، فنغص عيشه وحياته مرة أخرى بعد أن كان ما كان من حياة رغيدة وعيش وفير .

(*) هو السلطان مراد بن السلطان احمد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان سليم . . من اعظم سلاطين ال عثمان كان يؤمل أن يضارع السلطان سليمان القانوني في الفتوحات في عهده تم الصلح بين الدولة التركية والدولة الصفوية تولى الخلافة وعمره احدى عشرة سنة وسبعة اشهر وذلك في سنة ١٠٣٢ وتوفي في مقتبل عمره سنة ١٠٤٩هـ خلاصة الأثر جـ٤ ص ٣٣٦ ومابعدها وتاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٨٠ ومابعدها .

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٣وريحانة الألبا جـ١ ص ١٠ .

(٢) نفس المصدرين السابقين جـ١ ص ٣٣٣ - جـ ١ ص ١٠ .

رحلته الثانية الى بلاد الروم ومروره منها الى دمشق :

ولكن نفسه الطموح لم تكن لتستقر على ذلك بعد فقد الجاه والمكانة فألحت عليه الا أن يعود الى بلاد الروم ثانية علّه يظفر بما ظفر به في سابق عهده ، فتوجه فعلا الى تلك الديار ، وفي طريقه اليها مر على دمشق الفيحاء ، علّه يروح عن نفسه بما في غوطتها من جمال ،ويجدد العهد مع بعض من فيها من زملاء الادب ، وفعلا كان الامر كذلك ،حيث أقام بها أياما وابتدره فضلاؤها ممن عرفه أو سمع به فمدحوه بدرر أشعارهم ،واحتفى به علماؤها وأهلها وأكرموا نزله (١) وكان ممن مدحه "عبداللطيف بن يحيى بن محمد بن القاسم المعروف بلطفي (*) ذكر ذلك الشهاب في الريحانة في صدد حديثه عن هذا الاديب حيث قال : " ولما ارتحلت عن مصر فارقت أترابي ولداتي ، ومن بها من ذخائر آمالي وكنز حياتي ... مررت على دمشق الشام ، فرأيت من بها من الكرام ،كان ممن نعمت بلقياه ، ووقفت على هضبات علاه ،هذا الاديب الحسيب والروض الاريض والمرتع الخصيب فحياني بأنفاس من أنفاس الخزامى أندى ... ... وأهدى الي في مشرفه قصيدة حياني بها وهي ".(٢)

(*) لقد كان هذا من الفضلاء والادباء وكان حسن البديهة والشعر متمكنا ايضا من الفقه توفي سنة سبع وخمسين والف ، خلاصة الاثر جـ٣ ص ٢٠ والريحانة جـ١ ص ١٣١ .

(١) خلاصة الاثر جـ١ ص٣٣٢ وريحانة الالبا جـ١ ص ١٠ .

(٢) ريحانة الالبا جـ١ ص١٣١ .

وهذه القصيدة نحو عشرين بيتا سأختار منها الأبيات التالية :

بأُفْقِ دِمَشْقَ قَدْ طَلَعَ الشِّهابُ ... أضاءَتْ منهُ هاتِيكَ الرِّحابُ

هُمامٌ جَدَّ في طَلَبِ المعالي ... فأَحْرزَ شأْوَها منه الطِّلابُ

وَمَوْلى شأْنُه تحْريرُ طِرْسٍ ... وتقريرُ المباحثِ والخِطابُ

حواشِيهِ منَقَّحةٌ المعاني ... ومن فنِّ البيانِ بها اللُّبابُ

ففي التَّفسيرِ مجتهدٌ وفيما ... نَحاهُ رأْيُهُ أبداً صَوابُ

فلا يُلْقَى له فيه نَظِيرٌ ... وليس له سِوى التَّحرير دَابُ

ومنها :

فَدامَ مُتَّعاً في ظلِّ عيْشٍ ... لطيفٍ لا يُكَدِّرُه الذَّهابُ

له منِّي ثناءٌ كلَّ وقتٍ ... جزيلٌ أو دعاءٌ مُستَجابُ (١)

فلقد أغدق الشاعر كما رأينا كلمات الثناء على ممدوحه ،ولكن واضح منها عدم تجاوزها العقل والمنطق ، فلم يقل شيئا خارجا تمجه النفوس الأبية من الثناء الهاوي في دركات الذلة ، فكل ثنائه عليه أنه عالم محرر للعلوم ،وليس له هم الا العلم وطلبه وهذا ما يمدح به العلماء في كل عصر ومصر.

على أن فيه اشارة من بعيد الى عزل الشهاب وذهاب ما كان فيه من حياة رغيدة حين دعا له "بدوام عيش لطيف لا يكدره الذهاب ".

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ١٣١ والتي تليها .

سبب عزله عن القضاء :

وما ان مكث بالشام أياما حتى اتجه بعدها الى بلاد الروم مقصد رحلته ، وكان مفتيها في ذلك الوقت المولى " يحيى بن زكريا " (*) ونراه يعرض عن الشهاب وقد علل المحبي ذلك بقوله : " لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضائه في سلانيك ومصر من الجرأة وبعض الطمع فصنع مقاماته التي ذكرها في الريحانة ، وتعرض فيها للمولى المذكور فكان ذلك سببا لنفيه ... " (١) .

اذا لا بد وأن الأمر الذى عرفناه سابقا عندما تولى الشهاب قضاء سلانيك ، من أنه جمع منها مالا كثيرا قد أثار حفيظة المفتي " يحيى بن زكريا " على الشهاب ، ظنا منه أنه جمع ذلك المال بطريق غير مشروعة واستغل منصبه لكي يكون تلك الثروة ثم ما لبث ذلك المولى ان تسبب في نفي الشهاب الى مصر وأعطي راتبا يعينه على العيش (٢) .

ولكن هل ترك الشهاب أمر يحيى بن زكريا يشيع في الناس دون أن يرد عليه ؟ ان الامر ليس كذلك فلقد كان ذلك الخبر بمثابة الصاعقة

(*) هو يحيى بن زكريا بن بيرام شيخ الاسلام وأحد علماء الروم ، ولد في القسطنطينية سنة تسع وتسعين وتسعمائة تولى القضاء في عدة اماكن ، وكان اخر منصب له مفتي الدولة وكان صاحب حزم وسيرة حسنة فـي قضائه له كتاب اسمه " فتاوى يحيى " وله شعر عربي أشهره تخميس البردة للبوصيرى . توفي سنة ثلاث وخمسين والف ـ خلاصة الأثر جـ٤ ص ٤٦٧ - ٤٧٢ .

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

بالنسبة له وأصيب بصدمة نفسية ، ولدن آثارا كثيرة سطرها الشهاب في ريحانته ، وفي مقدمتها مقامته الشهيرة " بالمقامة الرومية تهكم فيها بذلك المولى وسفهه وستأتي في موضعها ان شاء الله . بل ونجده يطلق نفسه لتعبر عن ذلك الحدث فيتناول حكام الدولة عموما وعلماءها بشكل أخص وقد عقد فصلا في الريحانة " لبيان أحوال الروم وانقراض علمائها ونشر الظلم والعدوان بين أمرائها ".(١)

كان ذلك رأى المحبي عن سبب ذلك العزل أو هكذا سمع وهو مؤرخ معذور من هذه الناحية ولكن الشهاب نفسه يرفض تلك الدعوى ويفندها بايراده سببا آخر قد يكون قريبا من الصحة ، وخاصة اذا ما عرفنا نفسه ومدى تذمره أصلا من الدولة وحكامها ،والى جانب ذلك عزله عن القضاء .

ولنتركه يحدثنا هو عن ذلك السبب المشار اليه حيث يقول : "لما عدت اليها - أي الى بلاد الروم - ثانيا بعدما توليت قضاء العساكر بمصر ، رأيت تفاقم الأمر ،وغلبة الجهل فذكرت ذلك للوزير ظنا بأن النصح يفيد فاذا هو كما قيل :

هو الوزيرُ ولا أَزْرٌ يُشدّ بهِ   مثلُ العروضِ له بحرٌ بلا ماءِ

فكان ذلك سببا لعزلي ، وأمري بالخروج من تلك المدينة ،واظهار العداوة ممن هو في زي العلماء ،مع أنه لم يبق بها احد يحسن قراءة الفاتحة".(٢)

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٢١ .
(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٠ .

وتحطمت آمال الشهاب ،وأصبحت نفسه بداخلها نارا تتأجج على من حسده ،وتسبب في عزله ، فعزم على الرجوع الى مصر والاقامة بها . ولكن كيف يطيب العيش بأرض كان أهلها سببا في كل ما أصابه ؟

لا بد وانه يكن لهم من الكراهية مثلما يكن لرجالات الروم ،وخاصة في مثل هذه اللحظات العصيبة من حياته ، ولكي نتبين ذلك فـــذى أسطر منتخبة من موضع واحد في الريحانة تبين حقيقة ما سبق .

قال الشهاب : " لما منيت بغربة تارظية ، ودعاني الشوق الى العودة الى القاهرة المعزية ، وعنان مطايا العزم بين ثان وحادى ،وطوارق الوسواس بين رائح وغادى بدا لي وجه جو قاطب ،وسامرت بها ليالـــي عمر الكواكب ، .... ونهار صباه سموم ، كأنه قلب صب مغموم ،أو نفس فقير مظلوم ... ... إذ لم تجد حرا ترتجيه ولا أخا وجد تطارحـــه هواتجد وتجاريـه كما قلت :

يا وَيْحَ مِصرَ ترحَّلَتْ سُكَّانُهـــا وتعطَّلَتْ تلكَ المجالسُ والمدارس

ظَعَنُوا ومِنْ بركاتِها وجَمالِهـــا كُنِسَتْ وهاتِيكَ النخيلُ بها مكانِس (١)

ثم يعلل سبب رجوعه اليها بقوله :

" وقد كنت أدأب في الترحال ،لأحط برحبها المخصب رجـــال الآمال ، رجاء لقاء أشياخي وأخداني ،ومغازلة من بها من خرد أوانـــس الأماني ... ... وقد تنزل من حصن طودها الأوابد ، كما قال كشاجم في كتاب "المطارد" : ان الوحوش قد تلج العمران وتلجأ للأنـــس ،

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص٢١٧ .

إذا كلب الشتاء ، وعص بالجدب وجه الزمان ، فعدمت الأقوات [١].

ثم نجده يستمر في وصف أحوالها بذلك الأسلوب الذى يعبر عن حقيقة نفسه أصدق تعبير حيث يقول :

فعاد الرائد خائبا ، والبشير ناعيا ناعيا ،اذ بدت مقفرة الأرجاء ، مبرقعة باليأس وجه الرجاء ،من دار أمواتها أشراف ،وأحياؤها أجلاف ، بها ضعاف عقول يزعمون أنهم ألفوا وصنفوا ،كأنهم بقية من أهل الكتاب الذين بدلوا وحرفوا فعجت زائرا مقابر أطلالها ، وقد خيل لي أنها أول منزل سفر بروجها ورمالها ، ينتظر السابقون اللاحقين ، فقلت السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، فردوا صاحوا بها واها ، وأنشدني بديهة صداها :

يا راكباً حثَّ المطيَّ م ... لأرضِ مصر تَنْتحِيها
جُزْ بالقَرافةِ واقْرأنْ ... منِّي السلامَ لساكِنِيها
وقلِ السَّلامُ على الكِرا ... مِ الأكْرمين الفاضِلِيها
لم ألْقَ بعدَهُمُ بها ... إلا جَهولاً أو سَفِيها

الى أن يقول :

سادتْ بها فِرَقُ العبيـ ... ـدِ فأيُّ حُرٍ يَرْتَضِيها
فلذا هَجَرْتُ مُقامَها ... وطلبْتُ أرضاً أصْطفِيها [٢]

الى آخر تلك القصيدة التي عبر فيها عن خواطره ،وهو في طريق عودته من بلاد الروم الى مصر .

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ٢١٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢١٩ .

مروره بالشام وما لقيه فيها من التكريم والتبجيل :

لقد عرفنا أن الشام نقطة العبور الى مصر ، لذلك لا بد أن يمر بها الشهاب الخفاجي ويلاقي الاصحاب والاقران من العلماء والأدباء ، ومما يجدر التنبيه اليه هنا أنه يحمل لأهل الشام أغلى معاني الود والمحبة والاخاء ، حيث نجده يصفهم وبلادهم في تلك القصيدة السابقة الذكر بقوله :

وقِفِ المَطِيَّ بِجِلَّقٍ إِنَّ الكِرامَ الغُرَّ فيها
عُرِفَتْ بِعَرْفِ المجدِ ها تِيكَ الرُّبوعُ لِساكِنيها (١)

ويقول من منثوره ، مبينا حقيقة ما قلناه :

" وانثنيت للشام شامة وجه البلدان ، وجنة الله في أرضه المحفوفة بالحور والولدان ، المفروشة بسندس النبات والأشجار ، اللابسة حلل الرياض المزررة بالأنوار ، المسبغة بزرق الأنهار ، فقالت لي : أهلا وسهلا ، ومدت كرما ونزلا ، وتلقتني بصدر رحيب ، فبت فيها بين تكريم وترحيب :

بين فوقِ أكمامِ الرِّياضِ م وتحتِ أذيالِ النَّسيم

ولقيت بها من فضلائها الأعيان ، وأدبائها النقية الأذهان والأردان ، كل كريم تحسد طيبه العيون والآذان ، هو لعين المجد قرة ، ولوجه المكارم غرة ، ولقلب الدهر فرحة ومسرة " (٢)

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢١٩ .
(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٢٠ .

وفعلا لقد لقي بها من العلماء والادباء من أكرموا نزله ودارت بينه وبينهم المطارحات والمناظرات الادبية وكان ممن حظي بلقياه المولى : عبد الرحمن بن عماد الدين الشامي الحنفي (*) قال الشهاب :

"وقد دارت بيني وبينه كئوس محاورات لها ثغر الحباب باسم ، تنتظم منها في جيد الاداب عقود لها بنان البيان ناظم ، ولما قوضت خيام المقام ، وزمت مطايا العزائم ، كتبت له مودعا وشاكرا لما أفاضه علي من سوابغ المكارم، قولي :

قَسَماً بِلُطْفِ مالكٍ لفُؤادِي ... وبِرَوْضِ أُنْسٍ مُثْمِرٍ لِوِدادِي

....

إِنِّي ارتَحَلْتُ وذكرُكم أبداً على ... طُولِ المَدَى مائِي النَّمِيرُ وزادِي

يا واحدَ الدُّنيا وبيتَ قصيدِها الزَّ ... اهِي لَدَى الإِنْشاءِ والإِنْشادِ

يا ابنَ العِمادِ لأنْتَ عُمْدةُ سادَةٍ ... تُحْتاجُ في الإِصْدارِ والإِيرادِ

إِرَماً غَدَتْ أرْضُ الشّامِ لأنها ... ذاتُ العِمادِ بكُمْ وأيُّ عِمادِ

....

(*) هو عبد الرحمن بن محمد عماد الدين بن محمد بن محمد بن محمد ابن محمد بن عماد الدين العمادي الحنفي كان عالما فاضلا مفتيا أديبا ولد سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ومات أبوه وعمره سبع سنين ، درس على أيدي كثير من علماء عصره تولى عدة مناصب في التدريس الى أن ولي الافتاء له عدة مؤلفات ، مات سنة احدى وخمسين والف . الريحانة جـ١ ص ٢٢١ ، خلاصة الاثر جـ٢ ص ٣٨٠ ومابعدها .

فأجـــاب :

هٰذِى دَرَارٍ نُورُها لِيَ هــادِى　　وشِهابُها رُجُمٌ على الأَضْـدادِ

أَمْ رَوْضةٌ بَسَمَتْ ثغور زهورِهــا　　أَمْ حُلَّةٌ وُشِيتْ من الأَبْـــرادِ

....

مولاىَ يا فرْدَ الوجودِ فضائِــلاً　　وشمائلاً يا أَوْحدَ الآحـــــاد

قد كنْتُ أُسمعُ عن فضائِلِك التي　　شنَّفْنَني من حاضرٍ أَوْ بـــاد

حتى شهِدتُ جمالَكم فلِمحْنَتِــي　　جذَبتْ محبَّتُكم شَغافَ فؤادى (١)

وسأورد هاتين القصيدتين في موضعهما من هذا البحث باذن الله .

ومن لقيه الشهاب أيضا من علماء الشام وأدبائها "أحمد بـــن شاهين الشامي (*) قال الشهاب : " ولما وافيت في رحلتي الى الشام ، نظمني واياه في عقد الصحبة سلك الأيام ، في أويقات كلها أصيل وسحر ، ولا عيب فيها سوى ما بها من قصر وكذاك أيام السرور قصار .

فشرفني بقصيدة أتحفني بها وهي قوله :

أَيُّ دهرٍ قد جادَ لي بابْتهــاجِ　　وصَباحٍ قَدْ لاحَ لي بانْبِـــلاجِ

وزمانٍ قد مَنَّ لي بنعيـــمٍ　　وقرانٍ وافَى بأسْعدِ تـــاج

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٢٢-٢٢٣ .

(*) هو احمد بن شاهين القبرسي الأصل الدمشقي المولد الاديب اللغوى الشاعر العالم ،لازم كبار علماء عصره ، اشتغل في بداية حياته في الجندية ثم القضاء والافتاء والتدريس ، له نظم ونثر رائق كانت ولادته سنة خمس وتسعين وتسعمائة وتوفي في سنة ثلاث وخمسين والف .
الريحانة ج١ ص ٢٨٨ وخلاصة الاثر ج١ ص ٢١٠-٢١٧ .

وازْدِيارٍ من غيْرِ وعْدِ حَبيبٍ | كشفاءٍ من غيْرِ سَبْقِ عِلاجِ
واجْتماعٍ لنا بغيْرِ اتفاق | كغنى جاء طالبا ذا احتياج
وسَخاءٍ من الزَّمانِ بأهْنَا | نِعْمةٍ قد أتَتْ لأحْوج راجِ
بقُدوم المولَى الإمام المُفَدَّى | أحمدَ السَّيِّد الشِّهاب الخَفَاجي
الشِّهابُ الذى أضاءَ فضَاءَتْ | شائنا من سِراجِه الوهَّاجِ
زارَنا في دِمَشْقَ غَيْثٌ رَوِيٌّ | غَيْثُ علمٍ من طبْعِه الثَّجَّاج

الى أن يقول :

ولو اني وفَّيْتُ حقَّ قُدومٍ | ساد حظِّي وزادَ ابتهاجي
كنتُ أفْرشْتُه جُفُونَ عيوني | ورفَعْتُ الغُبارَ فوق الحجاج
عالِمٌ يُخرِجُ الخَفِيَّ المُعَمَّى | من علوم الأُلى بلا استخراج (١)

. . . .

وهي قصيدة طويلة تربو على الثلاثين بيتا سجلها الشهاب في الريحانة بكاملها .

ومن لقيه الشهاب أيضا وحظي بصحبته في هذه الرحلة "الأمير الشاعر "منجك بن الأمير محمد بن منجك" (*) ، قال الشهاب:

---

(١) المصدر السابق جا ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(*) هو الأمير منجك بن محمد بن منجك بن أبي بكر بن عبد القاهر اليوسفي الدمشقي نشأ في ظلال أبيه كريما معززا منعما درس على أيدى علماء عصره ، ولما مات ابوه خلف مالا كثيرا فانفقه وأتلفه ابنه ، ثم حبب اليه الانزواء عن الناس ، هاجر الى الروم وعاد منها خائبا ، لم يدرك ما أمله ، استمر في عزلته تلك الى قبيل وفاته ثم عاد الى أقرانه أيام الصبا . له شعر جمع في ديوان طبع سنة ١٣٠١هـ بدمشق توفي هذا الأمير سنة ١٠٨٠هـ - خلاصة الأثر ج٤ ص ٤٠٩ ، ريحانة الألبا ج١ ص ٢٣٢ .

"وقد صحبني بجلق ، ونسيمه سجسج ،وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنسج ولا زمني اذ رأى انعطافي عليه ، وشبيه الشي منجذب اليه ، ومدحني بمدائح طال فيها وأطاب ،وغنم الصحبة ولم يرض من الغنيمة بالاياب (١) .

وقد طلب الشهاب منه بعض شعره ليسجله في رحلته (٢) ،وفعلا تم ذلك حيث دون في كتابه الريحانة عددا من قصائد "الأمير منجك" في أغراض متنوعة ،وكان لزاما بحكم الصحبة و مكانة الشهاب أن يكون من ضمن تلك الأشعار أبيات في مدح صاحبه منها :

يا وحيداً في السَّجايا ... والمزايا باتِّفاقِ
وشِهاباً في سماوا ... تِ العُلى سامي الطِّباقِ
وجَواداً عندَه الأُفْـ ... ـقُ عَرْجَا في السِّباق
أَنتَ بَحْرٌ دونَه الأبْـ ... ـحُرُ من بعضِ السَّواقي
لا تسُنْني حَصْرَ أوْصا ... فِك فكري في وَثاق
راعَني الدهرُ كما قدْ ... رُعْتَ مِصْراً بالفِراقِ (٣)

وكقوله أيضا :

قد بشَّرتْكَ بِمِصْرَ بعضُ معاشر ... لم يعلَموا الأقْوالَ في تأْويلِها
مِصرٌ أقلُّ نَدَى أيادِيك التي ... من فَيْضِ نائلِها أصابعُ نيلِها (٤)

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٣٣ .
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) نفس المصدر والجزء ص ٢٥٥ .
(٤) نفس المصدر والجزء ص ٢٥٦ .

ثم ان الشهاب بعد أن لقي من لقي من أدباء دمشق اتجه الى مدينة حلب الشهباء وذلك حيث قال : " ولم أزل أتوكأ على البيضاء والصفراء، وأقيل تحت قباب الخضراء والزرقاء حتى قذفتني لهوات المهامه الى حلب الشهباء . . . فألقيت فيها عصا التسيار ، عن كاهل العزائم ، لما تفتحت بها عن زهرة المسرة خضر الكمائم ، فاذا هي روضة مخضرة الأفنان ، أو قطعة من الفردوس أهدتها لنا الجنان . . . نسيمها أعطر من عرف شميمها ، وأهلها ألطف وأرق من نسيمها ، من كل فاضل ملئت بالفضل ثيابه ، وماجد قد حشي بالكرم اهابه وأديب رقت شمائله ، فلولا البرد لمسكه لسالا - وعبذبت كلماته ورسائله . . . . فكان ممن لمعت بوارق بشره ، وباحت خواطر نسيم لطفه بأسرار نشره الفاضل الكامل ، المرتدى بحبر الشمائل ، العاكف في حرم الافادة الطالع نجمه من أفق السعادة : " أبو الوفاء ابن عمر بن عبد الوهاب الشافعي العُرْضي الحلبي "(*) فلقيني منه حبر مجيد ، وشاعر مجيد ، وأديب يضع القلادة في الجيد "(١) .

(*) هو أبو الوفاء بن عمر بن عبد الوهاب بن ابراهيم بن محمود بن علي ابن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين الشافعي الحلبي العُرضي مفتي الشافعية بحلب وأحد اعلام عصره كان عالما متواضعا اشتغل بالتدريس والافتاء والتصنيف له مؤلفات كثيرة اشهرها تاريخه المسمى "معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب ، وغيره ، وله شعر حسن ولد سنة ٩٩٣ هـ ومات سنة ١٠٧١ هـ ، خلاصة الاثر جـ١ ص ١٤٨ ومابعدها والريحانة جـ١ ص٢٩٩ .

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٦٧، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

ويقول الشهاب أيضا في صدد حديثه عن هذا العالم الأديب " ولما شِمتُ كرمه وشِيَمَه ، وردت ربيعا زرطيه جيبه ، انتدب لعلاقاتي ، وابتدر وخير أنوار الربيع ما بكر ،وكتب الي مادحا ، ولزند فكرى قادحا قوله :

أرى الشَّهباءَ للعلْيا قِبابا ألم تر أُفْقَها أبْدى شِهابا
وقبلُ كسَتْ مَعالِمَها الدَّياجي مُسَرْبِلةً ذُرَاها والهِضابا
تُعلِّلُها المطامعُ كاذِبات وكم عادتْ سحائبُها ضَبابا

ومنها :

الى أن حلَّها رُوحُ المعالي وطوَّق عِقْدَ منَّتِه الرِّقابا
إمامُ العلمِ بحْثاً واكتسابا مُشيدُ الفضل إرْثا وانتسابا

ومنها :

فأهلا بالذى منه اسْتنارَتْ معالمُها وقد عَزَّتْ جَنابا
وقد وُطِئتْ على هام الثُّريَّا ونظَّمتِ النُّجومُ لها نِقابا
فقرَّبها وقرَّبها وِدادا وقَرَّ عيونَ أهْلِيها اقْترابا

ويقول في خاتمتها :

ولولا أنَّك السَّامي مقاما له الأفْلاكُ طأطأتِ الرِّقابا
وكانَ بمَدْحِك العالي افْتِخارى لما ذهَّبتُ بالمدحِ الكِتابا
فدُمْ يا زِينةَ الدُّنْيا بمَجْدٍ تقنَّعتِ العُلا منه احْتجابا (١)

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٧٠- ٢٧١ .

وهي قصيدة طويلة تزيد على ثلاثين بيتا ،تنبئ عن مشاعر الحب والتقدير للشهاب الخفاجي ، وتدل على المكانة المرموقة التي كان يحتلها بين علماء زمانه وخاصة ان هذه القصيدة من عالم يحسب له حسابه بين معاصريه .

ومن لقيه أيضا وامتدحه من أهل حلب " صلاح الدين الكُوَراني الحلبي "(*) يذكر الشهاب انه امتدحه بعدة قصائد منها قصيدة تربو على ثلاثين بيتا اخترت منها هذه الأبيات :

شهابُ المعالي قد أضاءَتْ به الشُّهْبا
وقد أطْلَعتْ من غُرِّ أفكاره الشُّهُبَا

ومن قبلُ أخْبارُ الثَّناءِ تواتَرتْ   وقد ملأَتْ أسماعَنا لؤلؤاً رطبا

ومنها :

وقد أعْربتْ ألفاظُه مَعْ تأخُّرٍ   عن السَّبقِ حتى فاقتِ العَرَبَ العَرْبا

فمن منطقٍ عذبٍ وفضلٍ موجَّهٍ   الى المدح ايجابا وللحاسدِ السَّلْبا

والقصيدة لا تحمل معنى جديدا عما سبق من قصائد في مدح الشهاب الا ما كان من الاشارة عرضا الى حساده حيث دعا عليهم الشاعر بالتباب والخسران حيث قال :

(*) هو صلاح الدين المعروف بالكوراني الحلبي مولدا كان رئيسا للكتاب بمحكمة حلب وهو من مشاهير الادباء وله شعر مطبوع ونظم مصنوع ،وكان كثير الشعر لم يبق أحد من معاصريه يتوسم فيه النجابة الا مدحه أو راسله أو طارحه توفي سنة ١٠٤٩هـ . خلاصة الأثر جـ٢ ص ٢٥٢ ومابعدها وريحانة الألبا جـ١ ص ٢٨١ ومابعدها .

فتبًّا لِمَنْ قد زاغَ عن ودّه وقد   تبدّى ثبوتَ القولِ إذْ أظهر الحوبا (١)

فالشهاب الخفاجي اذا قد تردد ما بين مصر والشام وكان يمر على الأخيرة في ذهابه من والى بلاد الروم ، ويقابل فيها أصدقاءه ومحبيه ،وهذه الرحلة الأخيرة وهو في طريق عودته الى مصر منفيا بعد عزله واحالته للتقاعد حظي فيها من أصدقائه الشاميين بحفاوة وتكريم بالغين ، وقد خيل الي وأنا اطالع تلك القصائد التي دُبِّجت في مدحه أن أهل الشام كلهم خرجوا لاستقباله ،وأخذوا يعبرون عن عواطفهم و مدى محبتهم و تقديرهم له ، وما ذلك الا دليل على مكانته العلمية وكأنهم أرادوا من تلك الحفاوة البالغة أن يقولوا لمن عزله : أن هذا الأمر لم يكن يوما ما أن ينقص من قدره ومكانته ، بل زاده تعظيما واكراما لأنه رفض الظلم - ان صح - وأبت نفسه أن تسكت عليه .

وهنالك تفسيران آخران لهذه الظاهرة . أولهما - الاشارة الى نفور أهل الشام من الدولة العلية ،وأنهم لم يدخلوا فيما دخل فيه الناس برغبة صادقة ،وثانيهما : أن أهل الشام عرفوا على مر الزمان بعروبتهم واعتدادهم بعنصرهم العربي ،وصاحبنا عربي قح فلا غرابة أن يقابل بمثل هذا الاكرام .

وعلاوة على ذينك التفسيرين فعاطفة الناس دائما وابدا مع من ظلم وبخاصة اذا كان في مثل مكانة الشهاب من العلم والفضل والأدب .

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٨١ ومابعدها .

الفصل الثالث

- مشائخه وتلاميذه .

مشـــــائخه :

ان المستوى العلمي الذى بلغه الشهاب الخفاجي و تلك القدرة العجيبة على العطاء لم يأتيا عفوا ولم ينبعا من فراغ بل سبقهما اعـــداد مبكر ،ودراسة متواصلة ،يرفدهما ذهن متوقد وقريحة مواتية ،فلقد أكب على الدرس والتحصيل منذ نعومة أظفاره ،فدرس النحو والمعاني و بقية علوم الأدب ، ونظر في كتب المذهبين الحنفي والشافعي (١) ،والحاصل أنه درس في كل علم من العلوم المشتهرة في عصره ،لم يترك عالما ذا مكانة في زمانه الا أخذ عنه ولعل أول من أخذ عنه والده فلقد كان - كما أشرنــــا سابقا - من العلماء المشهورين بالعلم والفضل لذلك نشأ الشهاب علـــى يديه يعلمه ويؤدبه وعليه تخرج في كثير من العلوم والمعارف (٢) ، فهيأ له نشأة علمية صالحة ثم انطلق بعد ذلك ليتعلم على أكابر علمـــاء عصره فنهل من معينهم ونال على أيديهم خيرا كثيرا وعلما وفيرا مما كـان له أكبر الأثر في ظهوره وبلوغه تلك المكانة المرموقة بين معاصريه .

ولعل أهم وأجل من أخذ عنه الشهاب من أولئك العلمـــاء هم :

١ - أبو بكر بن اسماعيل بن شهاب الدين الشَّنَواني الوفائـــي كان اماما في النحو "سيبـــويه عصره ،وشافعي زمانه ومصره" (٣) ، "وكان

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥ ،وخلاصة الأثر جـ٤ ص ٧٦ .

(٣) ريحانة الألبا جـ٤ ص ٣٠٠ .

كثير الاطلاع على اللغة ومعاني الأشعار حافظا لمذاهب النحاة والشواهد (١) تخرج على أكابر علماء عصره ،واشتغل بالتأليف والتدريس وأهم مؤلفاته "شرح توضيح ابن هشام" درس الشهاب على يديه علوم العربية ،أبتلي بالفالج ،وكانت وفاته سنة تسع عشرة بعد الألف . (٢)

٢ - شمس الدين محمد بن احمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي المنوفي المصري الأنصاري المشهور بالشافعي الصغير ، ذهب جماعة من العلماء الى أنه مجدد القرن العاشر . (٣)

درس على أبيه كثيرا من العلوم وعلى غيره من العلماء ،اشتغل بالتدريس والتأليف والافتاء ،له مؤلفات جمة أهمها كتابه -في فقه المذهب الشافعي- المسمى "نهاية المحتاج شرح المنهاج" حضر الشهاب الخفاجي دروسه الفرعية ،وقرأ عليه شيئا من مسلم وأجازه بمؤلفاته ومروياته . (٤)

وفيه يقول :

فضائلُه عَدُّ الرِّمالِ وَمَنْ يكُنْ ... ليحصرَ مِعْشارَ الذى فيه من فَضْلِ

فقلْ لفتىً قد رام إِحصاءَ مجدِهِ ... تربَّتَ اسْتَرِحْ من جهد عدك للرمل

كانت وفاته سنة اربع بعد الألف . (٥)

---

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص٧٩ .

(٢) ريحانة الألبا جـ١ ص٣٠١ ، وجـ٢ ص٣٢٧ ،وخلاصة الأثر جـ١ ص٨١ .

(٣) خلاصة الأثر جـ٣ ص٣٤٢ .

(٤) ريحانة الألبا جـ٢ ص٣٢٧ - ٣٢٨ وجـ١ ص٥ .

(٥) نفس المصدرين جـ٣ ص٣٤٢ ،وجـ٢ ص٣٤٨ . على اختلاف في بعض ألفاظ البيتين .

٣ - وممن درس على يديه الشهاب زمنا طويلا شافعي زمانه " القطب العارف بالله الشيخ على بن يحيى الملقب نور الدين الزيادى المصرى " تولى رئاسة العلماء بمصر حيث لا يوجد عالم من علماء عصره الا ودرس عليه ،وأخذ عنه ، وكان العلماء الأكابر يحضرون دروسه ولكن في غاية الأدب مهابة له واجلالا . مدحه الشهاب بقوله :

لنورِ الدّين فضلٌ ليس يخفى تُضيءُ له الليالي المُدلهِمَّه

يُريدُ الحاسدون ليطْفِئوه ويأبى اللهُ الا أنْ يتمَّه

توفى سنة أربع وعشرين وألف .(١)

٤ - ونرى الشهاب لم يجد عالما ألمعيا الا أخذ عنه ،وتتلمذ على يديه فها هو يقول عن نفسه أنه درس في أيام صباه على شيخ الاسلام " علي بن محمد بن علي بن خليل الشهير بابن غانم المقدسي " المولود بمصر سنة عشرين وتسعمائة ،كان مجدد الحنفية له عدة مؤلفات أشهرها " شرح الكنز الذى أسماه " الرمز " وشرح الأشباه والنظائر وغيرهما ،تولى امامة الأشرفية ومدرستها ومدارس أخرى ،له شعر كان ينظمه للتسلية ويأبى أن يلصق باسمه سمة الشاعر.

انتفع بعلمه جمع غفير من أهل زمانه وعلى رأسهم الشهاب الخفاجي ، فلقد أخذ منه طرفا من العلوم والفنون ،وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكتب له ابن غانم اجازة بذلك ، وكان ابن غانم ينوه باسمه ،من ذلك

---

(١) المصدرين السابقين جـ٣ ص ١٩٥ ومابعدها ،وجـ٢ ص ٣٢٨ ، ومقدمة المحقق ص ٥ .

أن الشهاب كتب لابن غانم عند ورود البشائر بوفاء النيل قوله :

قسما ليس نَيْلُ كفك كالنّيـــل م إذ رايةُ المكارمِ تُنْشَـــر
أنت عند الوفاءِ طَلْقُ المُحيَّا وأرى النيلَ بالوفا يتكـدّر

فقال ابن غانم تعليقا على هذين البيتين " هكذا ينبغي أن تنظم عقود الجمان " وكانت وفاة هذا العالم الكبير سنة أربع بعد الألف (١).

٥ - ومن مشائخ الشهاب أيام طلبه العلم بمصر " ابراهيم ابن عبد الرحمن العلقمي القاهرى الشافعي المولود سنة ثلاث وتسعمائة ببلدة العلاقمة ، نشأ بها ثم رحل الى القاهرة ،وأخذ عن علمائها ،توفي سنة أربع وتسعين وتسعمائة ،لازمه الشهاب وقرأ عليه واجتنى من ثماره حيث قرأ عليه " الشفا " كاملا وأجازه به وبغيره ،كما سمع منه كتابه المسمى " تهذيب الروضة للنووى " وذلك بقراءة الشيخ " منصور الطبلاوى ولقد مدحه الشهاب عندما حضر مجلسا من مجالس فتياه بقوله :

أنادرةَ الزمانِ بقيتَ أنعِـمْ بإصغاءٍ الى العبد الضَّعيفِ
زمانُك كلُّه أمسى ربيعــاً خصيبَ الفضلِ ذا ظِلٍّ وريفِ
فما بالُ الفتاوى في انتشــارٍ ببابِكَ نَثْرُ أوْراقِ الخريــفْ (٢)

ولم يكن الشهاب ليكتفي بما أخذ من علوم القرآن والحديث والفقه بل ألزم نفسه التوسع في شتى معارف عصره ،واتجه الى كل من يشار اليــه

---

(١) المصدرين السابقين جـ٣ ص ١٨٠ - ١٨٥ ، جـ٢ ص ٥٢ ومابعدها و ص ٣٢٨ .

(٢) الريحانه جـ٢ ص ٧٧ ومابعدها وص ٣٢٨ ومابعدها وجـ١ ص ٦ .

بالبنان ويشهد له بالمكانة ،كل فيما يخصه ، فتعلم أدب الدرس والشعر عن ثلة من العلماء منهم.

٦ - العلامة "احمد بن علي العلقمي نزيل الخانقاه السرياقوسية التي جعلها مألف سكنه مدة ، ثم انتقل الى مصر فدرس بها وأفاد ، ثم بعد ذلك اختار جوار بيت الله المعظم فدرس على يده الشهاب أيام رحلته الى بلاد الحرمين .

له شعر روى منه الشهاب في ريحانته قصيدتين من احداهما قوله :

بأبصارنا وجهك المذهبُ يكادُ سَنا برقِهِ يَذْهَبُ
وأشواقنا فيك لا تنقضي وشمسُ جمالِكَ لا تغربُ
وحبّك في الماء مُستودعٌ وأشربهُ كلُّ مَنْ يشربُ

ومن الأخرى :

مُذْ نسيمُ الصّبا على الرّندِ هَبّا سحَراً نبّه الفؤادَ ونبّا
هزّ غُصْنَ القَوام فاهتزّ حتى مال شوقا اليه شرقاً وغربا (١)

٧ - وممن أخذ عنه الشهاب علم الأدب والشعر العلامة "محمد بن نجم الدين بن محمد الملقب بشمس الدين الصالحي الهلالي الدمشقي " كان مولده بدمشق سنة ست وخمسين وتسعمائة ، ورحل الى مكة لطلب العلم ،ومنها عاد الى دمشق نظرا لوفاة والده كان عالما واسع الاطلاع في الفقه والتفسير والأدب ،وله شعر ومنشآت كثيرة وله ديوان

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٦ ، جـ٢ ص٧٩ ومابعدها وص٣٢٩ .

في مدح النبي صلى الله عليه وسلم اسماه "صدح الحمام في مدح خير الأنام" قدم الى القاهرة فدرس على يده الشهاب وأخذ عنه الأدب والشعر ، وكانت بينهما مراسلات ومطارحات ، من ذلك أن الشهاب أرسل له قصيدة تائية (١) . فرد عليه الصالحي بقصيدة جميلة تدل على ما يتمتع به من شاعرية فذة منها :

طالَتْ وقد قَصُرَتْ عنها العباراتُ　　وحازَتِ الحسْنَ هاتيك البُراعاتُ

غرّاءُ فائقةٌ باللّطفِ رائقــــةٌ　　تحلو الخَلاعاتُ فيها والصَّبابـاتُ

أختُ الغزالةِ إشراقا ومُلْتَفَتــاً　　لها لدى السَّمعِ لذَّاتٌ ونَشْـآتُ

نَسِيبُها أطْرَبَ الأسماعَ مَوقِعُـهُ　　ومدحُها ما لَه في الحُسْنِ غاياتُ

كأنَّ حرَ معانيها ورقَّتَهـــا　　في لفظِها الخمرُ تجلوه الزُّجاجاتُ

وقد توفي الصالحي في سنة اثنتي عشرة بعد الألف (٢) .

٨ - ومن أخذ عنه ذلك العلم أيضا الأديب "احمد بن احمد ابن عبد الرحمن بن احمد بن عبد الكريم العناياتي النابلسي المكي المولد كان مولده بمكة ،وذلك بعد أن رحل والده اليها ثم ما لبث أن رجع الى الشام ،واستقر به المقام بدمشق في سنة ست أو سبع وثمانين وتسعمائة .

له ديوان شعر سجل الشهاب الخفاجي بعضه،منـه قولـه :

---

(١) لم نعثر على هذه القصيدة فيما بين أيدينا من مراجع.

(٢) الريحانـة جـ١ ص ٢٧-٣٠ و جـ٢ ص ٣٢٩ . وخلاصة الأثر جـ٤ ص ٣٢٩ - ٣٤٨ .

يا بدرُ قلبي وطرفي فيك مُنتصِفُ | بالوصْلِ وهذا غيرُ مُنتصِفِ
القلبُ واصَلْتَ فيه وَصْلَ مُمتزِجٍ | والطَّرفُ صَدَّيتَ عنه صَدَّ مُنحرف
ظَبْيٌ تألَّفتُ منه غيرَ مُلتفِتٍ | غُصنٌ تعطَّفتُ منه غيرَ مُنعطِفِ
شِفاءُ حَرِّ غليلي بَرْدُ ريقَتِهِ | والبُرءُ مِنْ دَنَفي في لَحْظِهِ الدَّنِفِ

تتلمذ على يده الشهاب الخفاجي ، ولكنه لم يشر الى المكان الذى قابل فيه العناياتي ،وأخذ عنه فيه ،ولم نجد أن لذلك الشيخ رحلة الى مصر وثبت أنه رحل رحيلا كاملا من مكة سنة ست أو سبع وثمانين وتسعمائة الى الشام ،وبما أن الأمر كذلك فانه يترجح لدينا أن الشهاب أخذ عنه الأدب والشعر في أثناء رحلاته الى بلاد الشام ، وبذلك نجد مبررا لقول الشهاب أن من جل من أخذ عنه ذلك العلم العناياتي الذى كانت وفاته سنة اربع عشرة بعد الألف.(١)

٩ - وأخذ الشهاب علمي العروض والقوافي عن العلامة" محمد المغربي المعروف بدكروك " قال الشهاب " وكنت وأدهم الشبيبة طرب العنان وورقها خضر مائس الأفنان .. وأنا في إبّان الطلب ،أتجر في بضاعة الأدب ، فنزلت بساحته وحططت رحلي على ماء سماحته ... فوردت منهل إفادته الصافي ،وقرأت عليه علمي العروض والقوافي ،وهو شفاء الغليل ، لا سيما في علم الخليل ".(٢) وكانت بينهما مراسلات من ذلك

----

(١) الريحانة جـ١ ص١٧ ومابعدها و جـ٢ ص٣٢٩ وخلاصة الاثر جـ ١ ص ١٦٦ ومابعدها.

(٢) الريحانة جـ١ ص٣٥٧.

ما ذكره الشهاب حين قال : " وكنت كتبت اليه أسليه وأصبره في بنيه وأعزيه :

كُنِ المُعزّى لا المُعزّى بـه ان كان لا بُدَّ من الواحد

لعل الله يُخلِف ما أخذ من بنيك ومالك ،ويجعل الباقي منهم كما قيل في المثل : فتى ولا كمالك . وأنت لا تعدِم أجر الصبر على كمالك . فكم نَبَتَ من غصن غصون وطلع من حبَّةٍ سنابلُ حبَّاتُها دُرٌّ مكنون ،وفي الله الخلق من كل ضائع ،وما المال والأهلون الا ودائع . والسلام".(١)

ولم يذكر الشهاب المكان الذى تعلم فيه على هذا العالم ،ولم تثبت له رحلة الى المغرب ، فغالب الظن أنه تعلم على يديه في مصر حيث نجد عددا كثيرا من أهل المغرب يهاجرون الى مصر في ذلك العصر.

١٠ - ثم اننا نلاحظ أن الشهاب قد تلقى ثقافته من منابع متعددة لأنه لم يجلس الى أساتذة الدين واللغة والأدب فحسب، بل أصاب من كل فن بطرف ،وكانت همته عالية ،تطلب المعرفة في كل شيء ، ولا يكاد يجد عالما الا أخذ عنه لذلك نجده يأخذ علم الطب عن "داود بن عمر البصير الأنطاكي " حفظ القرآن وأتقن علوم اللسان صغيرا ،وكان ماهرا في الطب عارفا باللغة اليونانية ، هاجر الى مصر ونزل القاهرة ،وكان رأس أطباء زمانه من مؤلفاته "تزيين الأسواق" ، و " تذكرة اولي الألباب والجامع للعجب العجاب ".(٢) يقول الشهاب الخفاجي عنه " وكنت قرأت عليه الطب وغيره في سن الصغر فسمعت منه ما يفار

---

(١) المصدر السابق نفس الجزء ص ٢٥٨-٢٥٩ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ١١٧ وخلاصة الأثر جـ٢ ص ١٤٢ ومابعدها .

له نسيم السحر ،ويطرب من لطفه نغمات الوتر"(١) .

ويقول المحبى أن له شعرا كثيرا ولكن الذين ترجموا له لم يذكروا له الا هذه الأبيات :

من طول إبْعادٍ ودهرٍ جائرٍ   وَمَعِيصِ حاجاتٍ وقلَّةِ مُنْصِفِ

وَمغِيبِ إلفٍ لا اعْتِياضَ بغيرِه   شَطَّ الزمانُ به فليس بُمسْعِفِ

أَوَّاهُ لو حلَّتْ ليَ الصَّهباءُ كيْ   أَنْسَى فأذْهَلَ عن غرامٍ مُتْلِفِ

ولقد كان على مذهب الحكماء لذا غمز الناس في اعتقاده ،وربما كان هذا هو السبب في عدم إكثار من ترجم له من شعره ،هاجر الى مكة وأقام بها قرابة سنة ثم توفي سنة ثمان بعد الألف(٢).

لقد عرفنا ان للشهاب الخفاجي رحلة الى بلاد الحرمين ،وعرفنا أنه قابل عددا من علماء مكة ومشاهيرها وأخذ عنهم ولعل أهم من تتلمذ على يديه في تلك الرحلة واستفاد منهم فائدة عظيمة هم:

١١ - العلامة : علي بن جار الله بن محمد بن أبي اليمن ابن أبي بكر بن علي بن أبي البركات محمد ... الظهيرى الحنفي الخطيب مفتى الحرمين ،كان مشتغلا بالعلم منصرفا اليه له تآليف منها "حاشية على شرح التوضيح" ،وله فتاوى لم تجمع وله ديوان شعر من نظمه قوله :

---

(١) الريحانة جـ٢ ص ١١٨.

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص١١٨-١١٩ ، وخلاصة الأثر جـ٢ ص ١٤٢-١٤٩.

قلتُ لشَهْرِ الصَّوْمِ لما وفى　　مُودِّعاً مني وداعَ الصديق
سلِّمْ على الموسم باللهِ لي　　وقلْ لهُ أَقْبِلْ فهذا الطريق

رآه الشهاب الخفاجي وقد جاوز السبعين ، وورد منهل افادته ، واجازه بما صار به على الأقران مفاخرا ، كف بصره في آخر حياته وتوفي سنة عشر بعد الألف (١) .

١٢ - كما أخذ في تلك الرحلة أيضا عن العلامة "علي بن اسماعيل صدر الدين بن العلامة ابراهيم بن محمد بن عربشاه الشهير بعصام الدين الاسفرايني الشافعي المكي المشتهر بالعصامي ، تولى قضاء الشافعية بمكة له حاشية على "شرح الاستعارات لجده العصام ، استفاد منه الشهاب الخفاجي حيث قال : " وكان ممن وري به زنادي ، وروى من ورده فؤادي " وكانت بينهما مكاتبات ذكر الشهاب بعضها في الريحانة ، كانت وفاته بمكة سنة سبع بعد الألف (٢) .

١٣ - لقد كان للشهاب الخفاجي رحلة الى بلاد الروم كما ذكرنا ذلك سابقا وعرفنا أنه استغل تلك الرحلة وفرصة وجوده في تلك البلاد فتتلمذ على كبار رجال علماء الروم فاستفاد منهم فائدة عظيمة كان لها كبير الأثر في بروزه عالما من علماء عصره ، وقد أوضح الشهاب ذلك حين قال : " ثم ارتحلت الى القسطنطينية فتشرفت بمن فيها من

---

(١) نفس المصدرين السابقين ج١ ص ٤٤٠ ج٣ ص ١٥٠ ومابعدها .
(٢) نفس المصدرين ج١ ص ٤٢٥ ومابعدها و ج٣ ص ١٤٧-١٤٨ .

الفضلاء ، والمصنفين واستفدت منهم وتخرجت عليهم ،وهي اذ ذاك مشحونة بالفضلاء الاذكيا ء."(١) وأهمهم : " محمد بن عبد الغني ابن مير بادشاه المعروف بفني زاده ... نادرة الروم وقاضي العسكر المشهور في الافاق كان من الفضل في أعلى ذروة منه ،وهو أشهر موالي الروم في الذكاء والفطنة والنثر ... وممن تخرج به الشهاب الخفاجي ، وكان لا ينفك عن مجلسه وله من المؤلفات حاشية على تفسير البيضاوى ولم تتم ... وكانت وفاة صاحب الترجمة في سنة ست وثلاثين والف ".(٢)

١٤ - ومنهم " مصطفى بن محمد الشهير بعزمي زادة قاضي العسكر وأشهر متأخرى العلماء بالروم وأغزرهم مادة في المنطوق والمفهوم وله التآليف التي ملأت سمع الزمان فائدة ... منها حاشية على الدرر والغرر في الفقه ،وحاشية على ابن مالك في الاصول وغيرهما وله الشعر النضير في العربية والتركية... توفي في حدود سنة اربعين بعد الالف".(٣)

١٥ - كما أخذ أيضا في هذه الرحلة عن " داود الحبر " أخذ عنه الرياضيات وقرأ عليه اقليدس و غيره .(٤)

١٦ - ولعل أهم من أخذ عنه في تلك الرحلة وأجلهم وأفضلهم علما من ذوى المكانة والوجاهة " محمد بن حسن جان "... سعد الدين ابن حسن جان التبريزى الاصل القسطنطيني المولد والمنشأ والوفاة "

---

(١) ريحانة الالبا ج٢ ص ٣٢٩ .

(٢) خلاصة الاثر ج٤ ص ٩-١٠ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٩٠-٣٩٢ .

(٤) ريحانة الالبا ج٢ ص ٣٣٠ .

اختاره السلطان مراد معلما له ، ثم اختاره ابنه محمد ،تولى عـــدة مناصب عليا الى أن ولي الافتاء ، توفي وهو مفت سنة ثمان بعد الألف ودفن بجوار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ،وكانت ولادته سنة ثمـان وتسعين (١) .

ولعل ما سبق من أسماء العلماء والفقهاء الذين تتلمذ عليهـم الشهاب يدلنا على أن تلك المكانة التي احتلها الشهاب بين علماء عصره وتلك المجهودات التي أسداها للمكتبة العربية والاسلامية لم تكـن تنبع من فراغ بل هي نتيجة وثمرة من ثمرات التحصيل المستمر والتلقـي عن أكابر علماء العصر دونما توان أو تقصير .

ان ذلك يدل دلالة واضحة على أن هذا العصر لم يكن مجدبـا منحطا كما صوره بعض المؤرخين .

انه يدلنا على المكانة التي حظي بها العلماء عند السلاطيـن حيث اولوهم أعلى المناصب الدينية وقربوهم اليهم وجعلوا منهـم المربين لأبنائهم لتنشئتهم نشأة دينية ،مما كان له أكبر الأثر فـي الأسرة الحاكمة وتفانيهم في خدمة الاسلام والدفاع عنه .

---

(١) نفس المصدريـن ج٣ ص ٤١٨ ومابعدها ، وج٢ ص ٥٧٣ ومابعدها .

تلامذته :

لقد كان الشهاب الخفاجي متعدد الجوانب العلمية ،اذ كان من أساطين النحو واللغة والأدب ،وكان ذا ثقافة دينية واسعة ، لذا كثر تلاميذه وتعددوا وارتشفوا من معين علمه ، فبعد أن استقر به المقام بمصر الحت عليه نفسه أن يتفرغ للعلم ومدارسته ، وأتاه الطلاب من كل حدب وصوب للتلقي عنه ،ونبغ منهم عباقرة شهد لهم التاريخ بالتقدم والفوقية ،وقد اعترفوا بما للشهاب من أثر في نبوغهم وبلوغهم تلك المكانة العظيمة من العلم.

ولعل أهم من حفلت كتب الطبقات بذكرهم :

١ - عبد القادر بن عمر بن بايزيد بن الحاج احمد البغدادى ، ولد ببغداد سنة ١٠٣٠هـ رحل الى دمشق سنة ١٠٤٨هـ واتصل اثناء وجوده بها بنقيب الاشراف الطالبيين " محمد بن كمال الدين الحسيني شيخ آل حمزة " فاكرم نزله واستفاد في تلك الرحلة من علماء دمشق في علوم العربية ، ثم رحل الى مصر سنة ١٠٥٠هـ فاتصل بشهاب الدين الخفاجي وتتلمذ عليه وعلى غيره من العلماء .

ثم رحل الى بلاد الروم ولم تطب له الاقامة بها حيث رجع الى مصر وعقد علاقة صداقة مع واليها " ابراهيم باشا " وكان له سميرا ونديما ، ولما عزل هذا الوالي رحلا معاً الى بلاد الروم ،وكان سفرهما عن طريق بلاد الشام ،وقدر للبغدادى في هذه المرة أن يتصل بالوزير "أحمد باشا ابن محمد كوبريلي " فقربه منه ،وتعرف أيضا في أثناء ذلك على السلطان " محمد بن السلطان ابراهيم " فنال تقديره ،ووضع البغدادى كتابه الشهير " خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب " ،باسم هذا السلطان ،

واستمر مقيما ببلاد الروم الى سنة ١٠٩١ هـ ثم سافر الى مصر حيث كانت منيته بها سنة ١٠٩٣هـ .(١)

وخلاصة القول عن هذا العالم اللغوى هو ما قاله عنه المحبي : " وهو أحسن المتأخرين معرفة باللغة والاشعار والحكايات البديعة ، مع التثبت في النقل وزيادة الفضل والانتقاد الحسن ،ومناسبة ايراد كل شيء منها في موضعه ، مع اللطافة وقوة المذاكرة وحسن المنادمة ،وحفظ اللغة الفارسية والتركية ، واتقانهما كل الاتقان ، ومعرفة الاشعار الحسنة منهما وأخبار الفرس ".(٢)

وكان الى جانب ذلك جم التواضع عارفا فضل استاذه - الشهاب الخفاجي - كثير الاشادة به وسيأتي ثناؤه عليه باذن الله - " ولعامات الشهاب تملك أكثر كتبه ".(٣) وكفى دلالة على مكانة الشهاب أن يكون عبد القادر البغدادى أحد تلامذته نظرا لما أسداه للمكتبة العربية من خدمات وأجلها كتابه المنوه عنه سابقا .

٢ - وكان ممن تتلمذ على الشهاب وظهرت نجابته ومقدرته " فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبي بكر تقي الدين "(٤) والد صاحب خلاصة الأثر ،كان حسن المعرفة بالأدب وفنونه ،وذا معرفة

---

(١) خلاصة الأثر جـ٢ ص ٤٥١ ومابعدها ،عبد القادر البغدادى خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ،طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٩هـ جـ١ ص ٣ ومابعدها ,تحقيق عبد السلام هارون .

(٢) خلاصة الاثر جـ٢ ص ٤٥١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٤٥٢ .

(٤) نفس المصدر جـ٣ ص ٢٧٧ .

باللغتين الفارسية والتركية ،من مؤلفاته شرحه على الاجرومية[١] " وصل الى مصر في سنة تسع وخمسين والف في خدمة قاضيها المولى محمد بن عبد الحليم البورسوى ، وناب عنه في محكمة الصالحية ... وحظي عنده كثيرا ... ثم ورد مورد الشهاب الخفاجي للتلقي منه وكان البورسوى يبغض الشهاب ،فوجد بعض حاشيته سلكا لمزمه ، وقالوا : انما كان اجتماعه معه ليذمك عنده ،ويهجوك فانحرف عليه بسبب ذلك وغض عنه طرفه فلم يعد بعدها الى مجلسه[٢] . وكان قد اجتمع بالشهاب الخفاجي قبل هذه المرة وذلك في أثناء ذهاب الشهاب من الشام الى مصر وأخذ عنه " خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا احد كتب الشهاب وكانت وفاته سنة اثنتين وثمانين والف بدمشق[٣] .

٣ - " احمد بن يحيى بن عمر الحموى المعروف بالعسكرى الشافعي مفتي الشافعية بحماه العالم العلم الفصيح العبارة الكامل الأدوات .... كان فقيها فرضيا حسابيا لبيبا ،ودرّس بعد أبيه بالمدرسة العصرونية بحماة وكانت وفاته في ثالث عشر رمضان سنة أربع وتسعين والف"[٤].

تتلمذ على يد الشهاب "وأخذ عنه - أى عن الشهاب - جماعة اشتهروا بالفضل الباهر من جلتهم .... احمد الحموى "[٥].

---

(١) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٧٧ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٧٧ .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٣٧٤ و جـ٣ ص ٢٨٦ .

(٤) نفس المصدر جـ١ ص ٣٣٤ ، وص ٣٦٧ .

(٥) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٤ ، ص ٣٦٧ .

أقوال العلماء فيه :

ان عالما مثل الشهاب الخفاجي عرفه الخاصة والعامة من معاصريه ، لا بد أن نجد من يعظمه ويقدره حق قدره ،ويعترف له بالمكانة والسبق العلمي نظرا لما عرفناه عن مدى تمكنه والمامه بشتى ثقافة عصره .

ونحن اذا ما اردنا أن نعرف عالما ما فاننا نعرفه من أحد طريقين :

أولهما : من خلال موءلفاته لأنّ فيها القول الفصل عن الرجل ، اذا ما أردنا أن نتبين حقيقته دونما واسطة . وسأرجيء الحديث عن كتبه ومدى المامه بشتى فنون القول في الباب الذى سيأتي بعد الانتهاء من هذا الباب باذن الله .

أما الطريق الثاني : فهو النظر فيما يقوله عنه معاصروه ، فهو طريق ذو أهمية لا يقل عن الطريق الأول ، ولعل أهم من تقبل شهادته في الرجال هو رفيق الدرب من رأى وعرف حقيقة رفيقه وهو يدرس و يصنف ، اذ مدارسة العالم للعلم مع طلابه لتعطينا أدق صورة وأجملها عنه ،اذ هو في تلك الحالة على أحسن ما يرام من الاتزان العقلي اذ لا يقول الا ما هو معتقد به اعتقادا جازما قلما يرجع عنه ،وأن شهاب الدين الخفاجي لمن ذلك الطراز ،ولكي نزداد معرفة به يحسن بنا أن نستعرض أقوال معاصريه فيه .

ولعل أول من يخطر لنا تلميذه النجيب العلامة " عبد القادر البغدادى " فها هو ذا يقول عنه فيما رواه المحبى حيث قال :

" حكى صاحبنا الفاضل مصطفى بن فتح الله (*) قال : قلت له - أى لعبد القادر البغدادى - لما رأيته من سعة حفظه واستحضاره ما أظن هذا العصر سمح برجل ، مثلك فقال لي : جميع ما حفظته قطرة من غدير الشهاب ،وما استفدت هذه العلوم الأدبية الا منه ". (١)

وكفى بهذه الشهادة العظيمة دلالة على مكانة الشهاب العلمية بعد أن عرفنا سابقا مدى سعة أفق عبد القادر البغدادى في شتى دروب المعرفة وبخاصة العربية وآدابها من خلال كتابه المعروف خزانة الأدب ...

كما أثنى عليه المحبي الأب كما ذكر ذلك الابن في كتابه خلاصة الأثر وذلك حين قال : "... ثم جئت الى رياض العلوم المزهرة بأصناف الفنون من منثور ومنظوم فجنيت زهر الآداب من تلك الحدائق الرحاب ، فكان بيت قصيدها ،وواسطة عقدها وفريدها مالك أزمة الصناعة ، وفارس حلبة البلاغة والبراعة ،جناب المولى الشهاب وإنسان عين الموالي وزبدة الأحقاب .

علّامةُ العلماءِ واللُّجُ الذى لا ينتهي ولكلّ لُجٍ ساحل

(*) هو مصطفى بن فتح الله الحموى المكي اليمني صاحب كتاب فوائد الارتحال ونتائج السفر في أخبار القرن الحادى عشر أقام بمكة زمنا طويلا ،كان شاعرا مجيداً ، المحبي نفحة الريحانة ، طبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٨٧هـ تحقيق عبد الفتاح الحلو ، وعائض الرداوى ، الشعر الحجازى في القرن الحادى عشر الهجرى القسم الأول ص ١٣١ .

(١) خلاصة الأثر جـ٢ ص ٤٥٢ .

... قد اتفقت كلمة الكلـة أنه واحد عصره بلا خلاف ،وأقرت لـــه علماء دهره في حيازة السبق بالاعتراف ،فانتهت اليه اليوم بلاغة البلغاء .... وأما فنون الاداب فهو ابن بجدتها وأخو جملتها ،وأبو عذرتها ومالك أزمتها ... "(١) فهذا قول الأب ،ولنرى ماذا يقول الابـــن بعد أن سمع ثناء ابيه ،وهو أطول باعا منه وأحسن معرفة بنقد الرجال ، واكثر دراية بانواع العلوم منه ،ولا شك أنه انتفع بكتب الشهاب وطالعها وعرف أسرارها ،فلننظر ماذا يقول عنه " صاحب التصانيـف السائرة ، وأحد أفراد الدنيا المجمع على تفوقه وبراعته ،وكان في عصره بدر سماء العلم ، ونير أفق النثر والنظم رأس المؤلفين ورئيس المصنفين "(٢)

" وكل من رأيناه او سمعنا به ممن أدرك وقته ،معترفون له بالتفرد فـــي التقرير والتحرير ، وحسن الانشاء ،وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعي ذلك مع أن في الخلق من يدعي ما ليس فيه ... والحاصل أنه فاق كل من تقدمه في كل فضيلة ، وأتعب من يجيء بعده ،مع ما خوله الله تعالـــى من السعة وكثرة الكتب ،ولطف الطبع والنكتة والنادرة "(٣).

ويقول عنه مشيدا به ايضا في كتابه "نفحة الريحانة" :

"أول من عددت ،وأجل من أعددت ... وهو الذى سار ذكره في العالم وانتشر ،وخرج في إحاطته بالعلوم عن حد البشر ... وقد طال عمره ،وما خمد جمره ... الخ "(٤)

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٣٣٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٣١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٢ .

(٤) المحبي نفحة الريحانة تحقيق عبد الفتاح الحلو ، طبعة عيسى الحلبي جـ٤ ص ٣٩٥ .

وهذا المديح الذى أجزله المحبي الابن على الشهاب ، ما نظن أنه سطر ذلك إلا لاعتقاده أنه يستحقه ، نظرا للمكانة التي تبوأها بين علماء وشعراء عصره .

ثم يطالعنا رجل آخر بعيد عن الشهاب الخفاجي من جهة التتلمذ ، ولكنه معاصر له وهو " ابن معصوم " صاحب كتاب " سلافة العصر " حيث نجده يقول عنه : " أحد الشهب السيارة المقتحم من بحر الفضل لجه وتياره ، فرع تهدل من ذؤابة خفاجة ، وفرد سلك سبل البيان ومهد فجاجه ، أجرى من ينبوع الفضل ما أخجل بمصرنيلها وبالشام سيحانه ، وأهدى لشامّ أرباب الأدب رياض أدبه أطيب ريحانه "(١) وذكره الإفراني في " صفوة من انتشر " كما ذكر ذلك المحلو فقال عنه : " كان رحمه الله إماما في العلوم من غير منازع ، حنفي المذهب ، له الشهرة التامة في معمور الأرض "(٢) .

وكل الأقوال السابقة ترفع من قيمة الشهاب وتدل دلالة واضحة على المكانة العالية التي كان يتبوأها بين معاصريه ، وتذكر محاسنه دون مثالبه ، ولكن هل تراه سلم من تجريح معاصريه ؟ وإن حصل ذلك فهل تراهم محقين في ذلك ؟

والجواب أنه لم يسلم من تجريح معاصريه ، وينبئنا عن ذلك ما قاله ابن معصوم عنه منتقداً عليه إعجابه بنفسه ، وتعاليه على معاصريه وذلك حين قال : " إلا أنه كان كثير الإعجاب بنفسه ، ساحبا ذيل

---

(١) على بن معصوم ، سلافة العصر ، طبعة الخانجي ص ٤٢٠ .
(٢) مقدمة محقق الريحانة ص ٣١ .

الفخر والكبرياء على ابناء جنسه ، وما لابن آدم والفخار وهو مخلوق من صلصال كالفخار".[1]

ونحن إذا ما تحرينا عن صدق هذه المقولة من عدمها وجدناها صحيحة لا مرية فيها ، وأن ابن معصوم لم يقلها دونما وعي لما يقول ، فكتب الشهاب الخفاجي مليئة جدا بافتخاره بنفسه ، فهو يشيد بكتبه بأنها تفردت بكثير من المسائل الدقيقة ،ونراه عندما يعرض مسألة من المسائل يثني على نفسه ثناء لا لزوم له ،إذ هو بذلك يضرب الصفح عن سيرة العلماء السابقين وما اشتهروا به من التواضع الجم[2] ، ومن أمثلة ذلك قوله في الريحانة بعد أن استطرد في الأمثلة الشعرية في الدلالة على مراده " وهذا أمر استطردناه قضاء لحق الآداب ، ولولا خوف الملل أريناك هنا من السحر الحلال من ثمرات الألباب ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، لتعلم ما منّ الله به علينا من الوقوف على كنوز مطالب لم يقف عليها غيرنا".[3]

ويقول أيضا في مقدمة كتابه "طراز المجالس" : " فهذه بنات افكار .... لو رآها ابن الشجرى لقال هذه ثمرات الألباب ، وابن الحاجب لقام بين يديها من جملة الحجاب ،أو ثعلب لراغ عن أملاه ، أو القالي لجرما أملاه وقلاه ...".[4]

ويقول أيضا في خاتمة ذلك الكتاب مفتخرا بما دبجه يراعه فيه :

---

(١) سلافة العصر ص ٤٢٠.
(٢) مقدمة محقق الريحانة ص ٣١ و فريد محمد بدوى ، البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي ، القسم الاول ،طبعة الامانة ١٤٠١ هـ ص ١٤.
(٣) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٩٦.
(٤) الشهاب الخفاجي ،طراز المجالس ، المطبعة الوهبية ١٢٨٤هـ ص ٢.

"هذه أبكار معان لم يشعر بها شاعر، ودرر لم يغص في بحارها خاطر، فيها رياض زهية الزهور والثمار، وصحائف روض تخط بالبنان وتجدول بالأنهار ..." (١).

فهذه النقول وغيرها تدل على صحة ما ذهب إليه ابن معصوم من كثرة افتخار الشهاب، على أننا قد نلتمس له عذرا من جهة كونه واجه بعض المظالم والعداوات من معاصريه فلم يكن هناك وسيلة للإنتصار لنفسه وإظهار علمه ومقدرته للناس إلا بتسجيل مثل تلك الأقوال في ثنايا كتبه وخاصة إذا ما عرفنا ايضا أن بعض المعاصرين له قد واجهه بعداوته، وأنشد فيه شعرا للحط من مكانته كما ذكر ذلك ابن معصوم ولكننا لم نستطع العثور على شخصية ذلك القائل الذى حقد على شاعرنا وهجاه حين قال :

إذا نَظَم المدائحَ والأهاجي ... شهابُ الدين أحمد الخفاجي
فلا تَعْبأْ بذلك واطّرِحْهُ ... ومن يعبأْ بقَوْقَاةِ الدجاج (٢)

ويقول فيه أيضا :

شهابَ الدينِ دَعْ عنك اللجاجه ... فلسْتَ تُعَدّ من عليا خفاجه
نُسِبْتَ اليهمُ ظُلْماً لعَمْرى ... كما نُسِبتْ إلى الطيرِ الدجاجه
أتقوى أنْ تُهاجيني بشعرٍ ... وهلْ تقوى على الحجرِ الزجاجة (٣)

والحق أن هذا الرجل قد شط في قوله، وحاد عن الصواب، ويبدو أن العداوة الشخصية استفحلت بينهما لدرجة أن هذا الرجل عندما وقف على كتاب الشهاب "الريحانة" كتب عليه قائلا :

هذا الخفاجي الذى لم يَزَلْ ... سوآتُه غاديةٌ رائحة
أهْدَى لنا سوءَ أفكارِهِ ... ريحانةً ليس لها رائحة (٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٨.
(٢)، (٣)، (٤) سلافة العصر ص ٤٢٧.

وسيأتي الحديث عن هذا الكتاب وسنتبين من خلال عرضنا لـــه عدم صدق دعوى هذا الرجل بإذن الله .

ولقد كان الشهاب الخفاجي ولعا بالمناقشة محبا لها ، وما ذلك إلا لما أوتيه من العلم الجم ، فقد انتقد ابنَ القيم رحمه الله في مسألـة نحوية ، كما أشارإلى ذلك القاسمي في تفسيره ، وذلك عند قوله تعالـى " يا أيها النبي حسبك الله و من اتبعك من المؤمنين " - الأنفـال آية ٦٤ - قال ابن القيم رحمه الله " وفيها تقدير رابع ، وهو خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون " من " في موضع رفع عطفا علـى اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك ، وهذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه ..." (١) قـال القاسمي : " قال الخفاجي : في العناية : وتضعيفه الرفـع لا وجه له ، فان الفراء والكسائي رجحاه وما قبله وبعده يؤيده ، وأقول - أي القاسمي - : هذا من الخفاجي من الولع بالمناقشة كما هو دأبه ...." (٢)

وهذه الشهادة وإن كانت ضده في هذه المسألة فإنها تشهد له بحب المناقشة وهي لا تتأتى - وخاصة في مثل هذه المسائل العلمية - إلا لذي بصر ومعرفة وعلم .

---

(١) و (٢) القاسمي ، تفسير القاسمي ، المجلد الخامس ، طبعة دار الفكر بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ جـ٨ ص ٩١-٩٢ .

نهايتـــــــه

بعد أن عزل الشهاب و نفي إلى مصر "وأعطى قضاء ثمة طـــى وجه المعيشة "[1] ومر على الشام ومنها "استقر بمصر يؤلف ويصنف ويقرئ"[2]، كان ذلك من سنة إحدى وخمسين وألف إلى أن وافـــاه أجله كما ذكر المحبي "يوم الثلاثاء لثنتي عشرة خلت من شهر رمضان سنة تسع وستين والف وقد أناف على التسعين"[3] وقد استنتجنـــا تاريخ عزله ووصوله إلى مصر من قول الشهاب نفسه في الريحانة حيث وجدناه أشار إلى الشيخ "عبد الرحمن بن عماد الدين الحنفي" فقال : " وكتب إلي وهو مريض ، وقد سمع بعودى لمصر ،ولم يلبث بعده إلا قليلا ما صورته ، أسعد الله تعالى طالع مصر وما حولها من الأمصار ، وأبجد هذا العصر وما يليه من الأعصار . . .الخ "[4]

ونحن إذا ما طالعنا تاريخ وفاة ذلك الرجل وجدنا أنه مات سنة إحدى وخمسين والف[5] ،فمعنى ذلك أن الشهاب كان في تلك السنة قد وصل إلى مصر بعد نفيه إليها وما يزيد تلك النظرة رجحانا ، أن تلميذ الشهاب "عبد القادر البغدادى" كان قد وصل مصر سنة خمسين والف من الهجرة ،وكان لأول مرة يدخلها ،ودرس على الشهاب الخفاجي ، فمعنى هذا أن الشهاب في سنة ١٠٥٢ هـ قد تصدر للتدريس ،وسبق أن قلنا كما ذكر المحبي أنه لم يتصدر للتدريس إلا بعد نفيه إلى مصر ، إذاً فالشهاب قد استمر على تلك الحالة يدرس ويصنف قرابة ثمانيـــة عشر عاما حيث وافاه أجله سنة ١٠٦٩ هـ كما تقدم . والله أعلم.

---

(١) (٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .
(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٣٤٣ .
(٤) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٢٥ ومابعدها .
(٥) خلاصة الأثر جـ٢ ص ٣٨٠ .

مذهبه

كان المذهب السني منتشرا في معظم أرجاء الدولة العثمانية ، بل كانت الدولة تتبنى هذا المذهب وتدافع عنه ،ولكن على الرغم من ذلك فقد شجعت الجماعات والطرق الصوفية فانتشرت انتشارا كبيرا بين صفوف الشعب ،والشهاب الخفاجي بوصفه عالما كبيرا يحسب له حسابه ،لم يثبت لدينا أنه تبنى مذهب جماعة ما من تلك الجماعات ، فهو في بداية حياته اشتغل بطلب العلم على المذهبين الحنفي والشافعي كما عرفنا ، وقد تخلل بداية حياته شيء مما يعرض لكثير من الشباب من حب للهو فهو يقول عن نفسه : " كنت في عنفوان الشباب أهوى الهزل والخلاعة ... "(١)

ثم إنه أيضا كان على مذهب الشعراء في بعض تصرفاته ، التي لا تليق بمكانته ، كتغزله بالغلمان وإنشاده بعض المقطعات فيهم بما يتنافى مع كونه قاضيا عالما من ذلك ما نقله المحبي عن رحلة الشهاب إلى الشام " ووقع له لطائف ،من ذلك أنه دعاه العمادى المفتي الى قصرهم بالصالحية ، فمر الشهاب وصحبته العمادى وابن شاهين على جسر الابيض ،فنظر إلى غلام واقف هناك نظرة ميل ووقف يتأمله ، فانتقد العمادى وابن شاهين عليه فأنشد بديهة قوله :

قِيْلَ لا تَنْظُرَنْ لوجْهِ مَلِيحٍ   إن هذا مبدأُ الحسنات
قلْتُ هذا الجمال لما تبَدَّى   أَشْغَلَ الكاتبين عن سيئاتي (٢)

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٥٠ .
(٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .

على أن بعض المتصوفة لا يرى بأسا في التغزل بالغلمان قال ابن الجوزى رحمه الله في أثناء حديثه عن اقسام المتصوفة في صحبتهم للاحداث "قوم يستبيحون النظر إلى المستحسن .... ومن رخصهم - النظر الى وجه الحسن "(١).

ولكن الشهاب ، كما قلنا ، لم يثبت انتماؤه لجماعة ما إلا ما لاحظت أنه يترضى عن بعض غلاة الصوفية كابن الفارض(٢) ويؤيد ذلك ما سنذكره في كتابه "ديوان الأدب" من أنه ختم هذا الكتاب بالكلام عن عمر بن الفارض وأشار إلى أنه " تطهر بالفيوض الربانية وأنه ظاهر الكرامات ، عذب الكلام سحر النظام ، وقال فيه ايضا " وقد اخترت أن أختم به الكتاب تيمنا ،وتمنيا للارتواء بنمير عذبه "(٣) . وهذا يؤيد ما قلناه من أنه متأثر بابن الفارض او بالأصح معجب به ،وإن لم ألاحظ على شعره أو سير حياته تأثرا واضحا ، ولكن ذلك الميل العاطفي لابن الفارض وشعره وما فيه من الشركيات - لا يجعلنا نسيء الظن به ،ونزعم أنه على مذهب الفارضي وغيره من أهل الحلول والإتحاد ،معاذ الله أن يكون هذا ظننا ، ولكن لعل الموجة العامة التي اجتاحت ولايات الدولة من حب للصوفية بشتى اتجاهاتها كانت مؤثرة على الشهاب فسجل ذلك الميل العاطفي في بعض مؤلفاته كما أشرنا إلى ذلك .

---

(١) ابن الجوزى و تلبيس ابليس ،طبعة دار الكتب العلمية ،بيروت ص ٢٦٥ .

(٢) الريحانة جـ١ ص ٢٥٧ .

(٣) الشهاب الخفاجي ، ديوان الادب في محاسن بلغاء العرب مخطوط بمكتبة عارف حكمت رقم ٣٠٨٥ ورقة ٢٧٨ .

على أنه كان غيورا على الدين ، متحسرا على ما أصاب الناس من وهن وانحراف عن العلم ، ولا أدل على ذلك من جرأته وانتقاداته التي ملأ بها كتابه "الريحانة" ثم أنه خدم الدين خدمة جلى ويكفي للدلالة على ذلك ما سيأتي ضمن مؤلفاته من كتب خصصت للتفسير والفقه إلى جانب تعرضه في كثير من كتبه الأدبية لألوان شتى من التفسير والحديث ، ثم أنه في آخر حياته أوقف نفسه للعلم ومدارسته .

كل هذه الأمثلة وغيرها تكفي للاشارة الى تدين الشهاب الخفاجي واستقامته .

الباب الثاني

مؤلفاته النثرّية

وتتضمن الفصول الثلاثة الآتية

- تعريف موجز بمؤلفاته .

- دراسة لريحانة الألبّا .

- مجهوداته الإنشائية :
رسائل - مقامات - فصول قصار .

الفصل الأول

- تعريف موجز بمؤلفاته .

مؤلفاته

إن ما سبق من الحديث عن الشهاب الخفاجي يعطينا دلالة واضحة عن شخصيته العلمية وأن دأبه وسهره ورحلاته في سبيل التحصيل العلمي ، لم يكن ينبئ إلا عن نفس طموح عزمت على أن تنفض عنها غبار الوهن ،وأن ذلك المجهود الذى بذله الشهاب قد أبدى ثماره ، إذا ما طالعنا المؤلفات القيمة التي زود بها المكتبة العربية ،وأن تلك الثقافة الواسعة والملكة الخصبة قد أتاحت له أن يسهم في كل فن من فنون القول العربي بنصيب ،وأن يدلي بدلوه في شتى صنوف المعرفة ،فلقد كان مؤرخا أديبا عميق الفهم للأدب ،وكان ناقدا ثاقب النظرة ،وكان لغويا يفهم سر العربية التي أسلمت قيادها له طوعا و حبا ،وكان فقيها عالما بأسرار الفقه وخباياه ،وكان مفسرا مدركا للجملة القرآنية ومناحيها وهو في كل ذلك فصيح اللفظ ثرى المعاني ، وأن ما خلفه الشهاب من مؤلفات جمة ليصدق ما ذهبنا اليه .

فلقد ترك لنا تراثا ضخما عرفنا بعضه وأما بعضه الآخر لما ير النور بعد إما لكونه في مكتبات أوربا بيد أناس خططوا لسرقة تراث أمتنا ليتسنى لهم قتلها وإبادتها ، وإما لكون بعض تراث الشهاب في البلاد العربية والإسلامية ولكنه لم يجد من يعرف له حقه إما جهلا وعدم اكتراث أوظنا أن إخراج مثل ذلك التراث سيقتلع تلك المقولة - التي يروجها كل من لم يفهم حقيقة الازدهار العلمي لعصر الشهاب - من جذورها حتما ، ولقد قيض الله بعض المخلصين لإخراج بعض تراثه .

و كان له مجموعة طيبة من المؤلفات ذكر بعضا منها في باب عقده في كتابه الريحانة لبيان مؤلفاته ، واستوفى بقية مالم يذكره من ترجم له ، وهي تربو على عشرين مؤلفا وسأتحدث بالتفصيل عن بعضها فيما سيأتي على الرغم من ندرة المعلومات عن كثير (١) منها وسأبدأ بمؤلفاته الدينية أولا بإيجاز ثم أتحدث عن مؤلفاته الأدبية وسوف أبسط القول عن بعضها لصلتها بما نحن بصدده عن أدب الشهاب فأقول :

بالرغم من أن الشهاب مشهور بكونه من كبار أدباء عصره ،فإنه كان إلى جانب ذلك واسع الاطلاع في العلوم الدينية ، أهلته لأن يكون قاضيا لذا نراه يشتغل هذه الثقافة الدينية ليسهم بنصيب في تأليف بعض الكتب ،وهي :

١ - حاشية على تفسير البيضاوي (*) سماها "عناية القاضي وكفاية الراضي" ، و يسمى كتاب البيضاوي هذا "أنوار التنزيل وأسرار التأويل".

---

(١) لقد استفدت في هذا الفصل بما كتبه محقق الريحانة .

(*) هو قاضي القضاة ناصر الدين أبو الخير ، عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي وهو من بلاد فارس ... قال السبكي : كان إماما مبرزا نظارا خيرا صالحا متعبدا توفي بمدينة تبريز سنة ٦٨٥ وقيل ٦٩١ هـ من مؤلفاته كتاب المنهاج وشرحه في أصول الفقه ،وكتاب الطوالع في أصول الدين ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ، محمد حسين الذهبي التفسير والمفسرون ، دار الكتب الحديثة بمصر الطبعة الثانية جـ١ ص٢٩٧ .

ذكر هذه الحاشية الشهاب ضمن مؤلفاته في الريحانة (١) وكذلك ذكرها ابن معصوم في السلافة (٢) والمحبي في الخلاصة (٣) وأشار الدكتور عبد الفتاح الحلوالي أن الإفراني في صفوة من انتشر وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي (٤) قد ذكراه .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات في استانبول سنة ١٨٥٤م في ثماني مجلدات وفي بولاق ١٢٨٣هـ وهي كذلك في ثماني مجلدات .

وتوجد منه نسخ مخطوطة تزيد على عشرين مخطوطة موزعة في شتى أنحاء العالم وأكثرها في تركيا في مكتبات : راغب باشا ، أياصوفيا ، سليم آغا ، السليمانية قليج على باشا ، نور عثمانية (٥) .

والسؤال الذى يرد علينا الآن ، لماذا اختار الشهاب الخفاجي كتاب البيضاوى من بين سائر التفاسير ، وماذا أضاف لتفسير البيضاوى ، وما هو موقفه من بعض الاسرائيليات والاعتزاليات التي انساق البيضاوى في بعض الأحيان وراء الزمخشرى فيها والجواب على ذلك فيمايلي :

قال الشهاب في سبب اختياره لهذا الكتاب دون سائر التفاسير:
" . . . . وتفسير البيضاوى له من بينها اليد البيضاء ، لاقتناصه روائع الأصلين ، وبدائع الشريعة الغراء . . . وكنت ممن اجتنى باكورة

---

(١) الريحانة جـ٢ ص ٢٤٠ .
(٢) سلافة العصر ص ٤٢٢ .
(٣) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٢ .
(٣) مقدمة محقق الريحانة ص ٢٢ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٣-٢٤ .

أبكاره ،وتمشت في حدائقه أحداق أفكاره ، وقد كثرت حواشيه .... والتفاسير جداول تنصب في لجة بحره ولكني رأيت البغاث ربما تفكهت بأعذب الثمار ، ووردت قبل الضوارى غير الأنهار،فهداني ذلك إلى موارده ومصادره ، وحثني على الغوص على فرائد جواهره ، وأن أكتب عليه حواشي تكون سياجا لثماره ،ومقدمات لنتائج أفكاره ... سميتها عناية القاضي وكفاية الراضي ...(١)

أما ماذا أضاف لتفسير البيضاوى ؟ ، فجواب ذلك نوجزه فيمايلي :

* ذكر كلام البيضاوى مع إيضاح ما فيه من معان لغوية، دراسة الأحاديث النبوية وبيان روايتها،وصحة الرواية من عدمها مع ذكر معنى الحديث المستشهد به وما فيه من نكات بلاغية ، مع أن البيضاوى كان يذكر الأحاديث الموضوعة في الثناء على بعض السور وذلك متابعة للزمخشرى، فبين الأحاديث الموضوعة في تلك المواضع ،وكذلك يشير في كثير من الأحاديث التي ذكرت في ثنايا التفسير إلى درجة الحديث وإسناده وإلى من طعن فيه ،وموضع الطعن (٢).

واستنباط الأحكام الأصولية والفقهية واللغوية مع استخراج المسائل البلاغية من الآيات سواء أكانت مسائل تتصل بعلم المعاني أم بعلمى البيان والبديع وعند استشهاده بالأبيات الشعرية نجده يذكر المناسبة التي قيل فيها البيت مع الإشارة إلى اسم الشاعر وشرح تلك

---

(١) الشهاب الخفاجي ،عناية القاضي وكفاية الراضي ، طبعة بولاق جـ١ ص ٣

(٢) نفس المصدر جـ٨ ص ٤٠٨ و ٤١١ .



الأبيات شرحا جميلا وافيا ، وذكر المذاهب النحوية واختيار ما يتناسب منها مع الآيات (١) ، ونحو ذلك من الفوائد الجليلة التي لا تدخل تحت حصر يلمسها من اطلع على هذا التفسير الجليل .

وأما موقفه من بعض الإسرائيليات والإعتزاليات - على قلتهما - التي انساق البيضاوى في بعض الأحيان وراء الزمخشرى فيها ؟

فإننا نجده يقف موقف المؤيد في بعض الأحيان من الأولى انظره مثلا عند قوله تعالى " وجئتك من سبأ بنبأ يقين ... " سورة النمل ، آية ٢٢ ، قال البيضاوى : " روى أنه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحا ، فوافى صنعاء ظهيرة فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها .... الخ "

قال الشهاب : " وقوله لما أتم بناء بيت المقدس الخ هذا ينافي .... من أنه عليه الصلاة والسلام مات قبل إتمامه وهو المشهور (٢) ولعل فيه روايتين ... ففي هذا تأييد لهذه الرواية علما أن العلماء صرحوا بأنها من الاسرائيليات (٣) .

أما القضية الثانية - أى الإعتزاليات - فاننا نجده يقف موقفا حازما ، انظره مثلا عند قوله تعالى " الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس " الآية ٢٧٥ من سورة البقرة

---

(١) محمد بدوى النكلاوى ، البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) عناية القاضي جـ٧ ص ٢٢ .

(٣) التفسير والمفسرون ص ٣٠٠ .

قال البيضاوى : " إلا قياما كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع - من المس - أى الجنون وهذا أيضا من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله ... " قال الشهاب " قوله : وهذا أيضا من زعماتهم أى كما أن التخبط كذلك ، وقد تبع فيه الزمخشرى ... وهذا أيضا من تخبط الشيطان بالمعتزلة الذين تبعوا الفلاسفة المنكرين لمعظم أحوال الجن وهم ملجمون بما في الأحاديث الصحيحة "(١) .

وبهذا العرض الموجز يتبين لنا قيمة هذا الكتاب ومدى ما أضافه الشهاب الى تفسير البيضاوى من فوائد جمة .

*

نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض .

وهو شرح على الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض(*) ذكره الشهاب ضمن مؤلفاته في الريحانه(٢) ، وكذلك ابن معصوم في

---

(١) عناية القاضي جـ٢ ص ٣٤٧ .

(*) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي إمام من أئمة الحديث في وقته عالم بالأنساب له مؤلفات كثيرة منها الشفا ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك ، ومشارق الأنوار في الحديث وغيرها الأعلام جـ٥ ص٩٩ .

(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

السلافة[١] ، والمحبي في الخلاصة[٢] ، وإسماعيل باشا البغدادى في إيضاح المكنون[٣] ذكروا انه من مؤلفات الشهاب الخفاجي ،وأشار الدكتور عبد الفتاح الحلو أن الإفراني ذكره في صفوة من انتشر ،وكذلك بروكلمان في تاريخ الأدب العربي[٤] .

وقد طبع الكتاب في استانبول سنة ١٢٦٧هـ في أربعة مجلدات ثم طبع فيها مرتين بعد ذلك وطبع في القاهرة بالمطبعة الازهرية في اربع مجلدات سنة ١٣٢٧هـ ، ونشرته دار الكتاب العربي ببيروت وهي نسخة مصورة عن الطبعة الأزهرية وله ثماني عشرة نسخة مخطوطة موزعة في أنحاء العالم وأكثرها في تركيا في مكتبات سليم آغا ، قليج علي باشا ، السليمانية ،حور ليلى ،نورعثمانية[٥] .

ولكن يا ترى ما السبب في اختيار الشهاب لهذا الكتاب دون سائر كتب السيرة النبوية ، ثم ما الفائدة التي أضافها إليه وخاصة إذا ما عرفنا أن كتاب الشفا طبع في مجلد واحد بينما شرحه في أربع مجلدات كما ذكرنا ذلك فيما سبق .

أما الجواب على الفقرة الاولى فإننا نجد الشهاب قد أجاب عليها في مقدمته لهذا الكتاب وذلك حين قال : " هذا وإن كتاب الشفا بتعريف المصطفى كتاب قدره جليل ،وهو على جلالة مصنفه أدل دليل ... فلما كنت قديما وحديثا يحثني حادى الشوق

---

(١) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٢ .

(٣) اسماعيل باشا البغدادى ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، طبعة دار الفكر/ سنة ١٤٠٢هـ جـ٤ ص ٦٤٦ .

(٤) مقدمة ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة .

نحوه حثيثا ... وكان يصدني عنه ما في الباع من القصر ،وزمـــان لا يعرف فيه ورد من صدر ، فلما رأيت له شروحا بها تنشرح لهـــا الصدور وإن لم تخل قصورها المشيدة من قصور ، وفي بعضها أغاليــط وتطويل وتخليط .... فسودت بعض آمالي رجاء لأن يبيض بهـا صحف أعمالي .... فلما رآه بعض الأصحاب سألني أن أبرز مخدراتـه من خلف الحجاب ... فقصدت شفاء الروح والبدن ، بإسناد الجسم الضعيف لحديث الصحيح الحسن ... . سميته نسيم الرياض فـي شرح شفاء القاضي عياض"[1].

وقد ذكر أيضا في هذه المقدمة سنده الذى وصل عن طريقـه هذا الكتاب إليه وذلك حين قال: " واعلم أن سندى في هذا الكتاب وغيره من كتب الحديث سلسلة الذهب من طرق عالية ،أعلاها روايتـــي عن خاتمة المحدثين الشيخ ابراهيم العلقمي ... الخ "[2].

أما الفوائد التي أضافها الشهاب لهذا الكتاب فقد تطرق فيه لمباحث عديدة غاية في الأهمية منها :

أنه أشار إلى الأحاديث الموضوعة على قلتها وكذلك الضعيفـــة علاوة على الصحيح منها والحسن وقد نبه إلى ذلك حين قال : " واعلم أن في الشفا بعض أحاديث ضعيفة ،وقليل من قيل إنه موضوع تبـــع فيه ابن سبع في شفائه وقد نبه على ذلك كله الجلال السيوطي رحمـه الله تعالى في كتابه مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا ، ولـــم

----

(١) الشهاب الخفاجي ، نسيم الرياض ، طبعة دار الكتاب العربي بيروت جـ١ ص ٢-٣ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣ .

ينصفه الذهبي في قوله إنه محشو بالأحاديث الموضوعة ... وسترى إن شاء الله ما ذكره في محله ، فإنا لم نترك شيئا يحتاج إليه قارئ هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ".(١)

تطرق لكثير من المباحث النحوية مع ترجيح ما يراه صوابا ،وكذلك المباحث البلاغية والفقهية والعقدية واللغوية مما يجعل هذا الكتاب ، كتاباً جليلا غاية في الأهمية في كل ما ذكر ، ولو ذهبنا ندلل على صحة ما ذكر لطال بنا المقام لذا سنكتفي بنموذجين مما ذكر.

فمثلا في الفقه تجده يذكر كثيرا من الأحكام في ثنايا كتابه أنظره عند قوله صلى الله عليه وسلم " قلت لفتى من قريش كان بأعلى مكة يرعى غنما / أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الصبيان ، فجئت أدنى دار من مكة فسمعت غناء وصوت دفوف ومزامير ،فقلت : ما هذا ؟ فقيل : فلان تزوج فلانة ،فلهوت بذلك الغناء ، وذلك الصوت حتى غلبتني عيني فما أيقظني الا حر الشمس ... الحديث " قال الشهاب وروى أن الله ألقى عليه النوم صيانة له ،وليس في هذا ارتكابه لمحرم لأنه قبل تحريم السماع ،ولأن ضرب الدف في العرس غير ممنوع ، وأما النهي عن سمر الليل فليس نهي تحريم مطلقا ، وكان مباحا إن ذاك مع أنه شرعا قد يكون أفضل من النوم كمذاكرة العلم ، وإنما يحرم أو يكره لعارض كما ذكره الفقهاء " (٢) .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٤ .

(٢) المصدر نفسه ج٤ ص ٤٩٣ .

ومثال من المباحث اللغوية كقوله " معنى الفصاحة في اللغة كما في كتاب الصناعتين لأبي هلال الإظهار ، تقول العرب أفصح الصبح إذا أضاء ، واللبن إذا انجلت عنه الرغوة وظهر . . . والبلاغة من بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها ، فسميت بلاغة لبلوغها النهاية أو لإبلاغها المعنى لفهم السامع "(١) .

وقد انتهى المؤلف من تدوين كتابه هذا في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين بعد الألف .

وفي آخر الكتاب عدة مقطوعات نثرية وشعرية ، في تقريظ الكتاب والثناء على صاحبه(٢) .

*

حاشية شرح الفرائض .

ذكرها الشهاب في الريحانة في الباب الذى عقده لمؤلفاته .(٣) وكذلك ذكرها كل من ابن معصوم في سلافة العصر(٤) ، والمحبي في خلاصة الأثر(٥) ، وأشار الدكتور عبد الفتاح الحلو في مقدمة تحقيقه للريحانة أن الإفراني صاحب كتاب "صفوة من انتشر في القرن الحادى عشر قد ذكرها في هذا الكتاب باسم "حاشية على فرائض الحنفية "(٦) .

ولكنني لم أجد هذه الحاشية مطلقا ، ومن المظنون أنها ضاعت ضمن ما ضاع من تراثنا العربي الذى عدت عليه عوادى الأيام .

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٣٨٥ .

(٢) نفس المصدر جـ٤ ص ٥٧٩ .

(٣) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٤) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٥) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٣ .

(٦) مقدمة ريحانة الالبا جـ١ ص ١٢ .

رسالة في متعلق البسملة .

لم نستطع العثور عليها وهي مخطوطة حيث أشار الدكتور الحلو أن بروكلمان ذكرها في تاريخ الادب العربي ،وتوجد نسخة خطية منها في بريل " هوتسما " الفهرس القديم ١/٢٣٦ ،الفهرس الجديد ٤٤٤ (١)

وهناك آثار علمية كثيرة للشهاب الخفاجي لم تطبع حتى الآن وما طبع منها لم يتيسر لي الاطلاع عليها بل ولم تقم لي أدلة على وجودها غير ما أشار اليه بعض العلماء إشارة عابرة دونما تبيين للمطبعة ومكان الطبع مما يعسر الحصول عليها .

على أن بعض آثار الشهاب قد ضاعت ولم تدر ما خبرها سوى ما أشار الشهاب نفسه الى أنها من مؤلفاته وكذلك إشارات بعض العلماء المعاصرين للشهاب أو بعده بقليل إلى أنها من مؤلفاته كابن معصوم ، والمحبي ،واسماعيل باشا البغدادى ،وتلك الاثار هي كالتالي :

حاشية على شرح الجرجاني القسم الثاني من المفتاح .

ذكر الدكتور عبد المنعم خفاجي أن منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية مكتوبة عام ١٠٦٤هـ ،ويذكر الدكتور محمد سيد الكيلاني أن هذا الكتاب طبع . ولم أجد دليلا على ذلك (٢) .

النفحة القدسية : ذكرها الكيلاني ضمن مؤلفات الشهاب وأشار إلى أنها طبعت ولم يذكرها أحد غيره ،ولم يقم لي دليل على وجودها (٣) .

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص١٦ .

(٢)و(٣) الخفاجيون في التاريخ ص١٥٣ ،والأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ٢٧٩ .

قلائد النحور من جواهر البحور : وهو في العروض أشـــار اليه خير الدين الزركلي ، وذكر أنه طبع مع رسالتين له ايضا همـــا " جنة الولدان " والكنس الجوارى"(١) ولم اجد هذا الكتاب ولـــم يذكره احد غيره .

الرحلة : ذكرها الشهاب في ريحانته(٢) ، وابن معصوم في السلافة(٣) ، والمحبي في خلاصة الأثر(٤) ، وإسماعيل باشا البغدادى في إيضاح المكنون(٥) ،وهذه ايضا لم أعثر عليها ، وقد تكون عن رحلتـــه في الافاق في بلاد الروم والشام والحرمين .

الرسائل الأربعون : ذكرها الشهاب في الريحانة(٦) ، وابـــن معصوم في السلافة(٧) والمحبي في الخلاصة(٨) ، وإسماعيل باشـــا البغدادى في إيضاح المكنون(٩) .

وقد تكون الرسائل السابق ذكرها "رسالة في متعلق البسملة" من هذه الرسائل إلى جانب رسالتين غيرها ذكرها الدكتور محمـــد بدوى النكلاوى ولـم يشر إلى مكان وجودهما ،وهما "الرسالة الليثية" و

---

(١) خير الدين الزركلي الأعلام ، طبعة دار العلم للملايين ١٩٨٠م جـ١ص ٢٣٨ .

(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٤) خلاصة الاثر جـ١ ص٣٢٣ .

(٥) ايضاح المكنون جـ٣ ص ٥٠٠ .

(٦) ريحانة الالبا جـ٢ ص٣٤٠ .

(٧) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٨) خلاصة الاثر جـ١ ص٣٢٣ .

(٩) ايضاح المكنون جـ٣ ص ٥٧١ .

" رسالة تكلم فيها عن المشاكلة والاستعارة ".(١)

كما انفرد ايضا بذكر كتاب للشهاب الخفاجي دون غيره من سائر من تحدث عن الشهاب الخفاجي وهو " الروض النضير على شرح شواهد التفسير ".(١) ولم يشر إلى مكان وجوده .

ومن مؤلفاته : حواشي الرضي والجاسي ذكره الشهاب في الريحانة وكذلك ابن معصوم والمحبي في كتابيهما ولم نعثر عليه (*) .

طراز المجالس : أشار إليه الشهاب في الريحانة أنه من مؤلفاته (٢) وكذلك ابن معصوم في السلافة (٣) ،والمحبي في الخلاصة (٤) واسماعيل باشا البغدادي في ايضاح المكنون (٥) ،وذكر الدكتور الحلو أن بروكلمان ذكره في تاريخ الأدب العربي (٦) وكلهم متفقون على تسميته بذلك الاسم إلا أننا نجد عبد القادر البغدادي في الخزانة يشير إليه بعنوان " أمالي شيخنا الشهاب الخفاجي ".(٧) وليس هنالك من فارق بين العنوانين ، فتسمية عبد القادر له مأخوذة من قول الشهاب نفسه " فهذه بنات أفكار زففتها إليك وأمالي مجالس أمليتها عليك "

---

(١) البيان عند الشهاب الخفاجي ص ١٤ .

(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٤) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٢ .

(٥) ايضاح المكنون جـ٤ ص ٨٢ .

(٦) مقدمة محقق الريحانة ص ٢١ .

(٧) خزانة الأدب جـ١ ص ٢٣ .

(*) الريحانة جـ٢ ص ٣٤٠ ،سلافة العصر ص ٤٢٢ ،خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٢ .

وتوجد نسخ مخطوطة لهذا الكتاب موزعة في أنحاء متفرقة من العالم ثلاث نسخ بتركيا وواحدة بدار الكتب المصرية ،وأخرى بمكتبة الموصل والبقية في ميونخ ،وفيينا و برلين .

ولم يطبع هذا الكتاب إلا طبعتين بدون تحقيق إحداهما سنة ١٢٨٤هـ وهذه هي التي اطلعت عليها ،والأخرى بالمطبعة العامرة الشرفية (١) .

وقد قسم الكتاب إلى خمسين مجلسا : بدأه بالكلام عن الشعر وحده ، وثنى بالكلام عن التضمين ، إلى أن انتهى بذكر نبذة من كتاب الملل والنحل لابن حزم وناقشه ورد عليه في مسألة عرضها هناك ، وقد جمع في هذا الكتاب من المباحث البلاغية الشيء الكثير في المجالس الثاني والثالث والرابع وغيرها .

وكذا دون فيه كثيرا من العلوم اللغوية والنحوية ،وأورد أقوال العلماء في كثير من المسائل ،وناقشها ورد عليها إن بدت له شبهة فيها ،كما في المجلس الخامس مباحث اسم الفاعل ، وتقديم الجار والمجرور ،وبجانب ذلك يذكر في هذا الكتاب فوائد عديدة في التفسير والحديث كما في المجالس الحادى عشر والثاني عشر والثالث عشر.

وفي المجلس الخمسين تكلم عن العقيدة وناقش رأى ابن حزم ورد عليه وهو آخر هذه المجالس .

---

(١) مقدمة محقق الريحانة ص٢ومابعدها .

ومن الملاحظ في هذه المجالس :

أن الشهاب الخفاجي يكثر فيها من قوله "سألت حماك الله عن كذا ، وسألت أعزك الله ،وسألت نور الله بصيرتك وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن المؤلف يضع أسئلة من مخيلته أو يسأل من قبل طلاب العلم فيضع أجوبة لهذه الأسئلة دون أن ترتبط بمجلس فعلي يعقد لدراسة العلوم والأخبار مع العلماء كما في مجالس ثعلب، والامتاع والمؤانسة لأبي حيان وهذا الرأي هو الغالب في نظري من خلال مطالعتي لهذا الكتاب .

وإما أنه فعلا كانت هذه المجالس ترتبط بمجلس معين يسأل الشهاب فيه أسئلة مختلفة فيقوم بإملاء الجواب على الطلاب على طريقة بعض أصحاب الأمالي القدماء ، ولو كان هذا حاصلا لنوه عنه الشهاب ولكنه أمر قليل الاحتمال . ثم إن الشهاب قد يطيل في بعض المجالس لدرجة كبيرة ،وبعضها يقصره غاية القصر .

وقد يدخل في المجلس الواحد عدة أمور منفصل بعضها عن بعض تمام الانفصال وتلك الظاهرة ليست سمة عامة.

ومن الملاحظ أيضا أن بعض هذه المجالس المذكورة في هذا الكتاب مدونة بعينها في بعض كتبه الأخرى كما في المجلس السادس عشر صحت أشياء فقد ذكرها في الريحانة في الجزء الثاني عند ترجمته للقاضي احمد المحلي المالكي .

قال الشهاب في مقدمته لهذا الكتاب :

حمدا لله على أن أنزلني ربيع فضله الخصيب ،وأحلني في ربوة كرمه الرحيب والصلاة والسلام على سيدنا محمد ... فهذه بنات أبكار زففتها إليك وأمالي مجالس أمليتها عليك مما تقر به عين الأدب ،

ويتحلى بذوقه لسان العرب لو رآها ابن الشجرى لقال هذه ثمرات الألباب ، وابن الحاجب لقام بين يديها عن جملة الحجاب ، كأو ثعلب لراغ عما أملاه ، أو القالي لهجر ما أملاه وقلاه ، أودعتها مالا يبلى على مرور الحقب ، وهل يصدأ مكنون الذهب ". (١)

وواضح من هذه المقدمة أنه لم يكن السابق بهذا النوع من التأليف ، فأمالي ابن الشجرى وأمالي القالي وأمالي ابن الحاجب ومجالس ثعلب ، كلها من هذا الطراز ولكن الشهاب يفخر بأن عمله يفوق عمل اولئك ، وهذا ديدنه فخور في جل أعماله .

وقال في خاتمة الكتاب :

" هذه أبكار معان لم يشعر بها شاعر ، ودرر لم يغص في بحارها خاطر ، فيها رياض زاهية الزهور والثمار ، وصحائف روض تخط بالبنان ...

استغفرُ اللّهَ مالِيْ بالْوَرَى شَغَلٌ ولا سرورٌ ولا آسى لمفقــود
للبرّ أقدامُ سَعْيي قبل ما وصلتْ رَسَتْ سفينةُ آمالي على الجودى (٢)

ومما ذكرنا يدرك القارئ القيمة العلمية لهذا الكتاب ، وأنه ليس خاصا بالأدب بل جمع بين الأدب واللغة والنحو والتفسير والحديث والعقيدة لقد أطلق الشهاب فيه نفسه على سجيتها وتنقل من موضوع إلى آخر ولم يتقيد بفن واحد ، كأنما قصد أن يلفت الانظار أنه يستطيع الخوض في كل العلوم .

---

(١) طراز المجالس ص ٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٦٨ .

السوانح والبوارح : ذكره في الريحانة في الفصل الذى عقده لمؤلفاته[١] وكذا ذكره ابن معصوم في السلافة[٢] ،والمحبي في خلاصة الاثر[٣] ،واسماعيل باشا البغدادى في إيضاح المكنون[٤] ، وذكر الدكتور الحلو أن الإفراني في صفوة من انتشر قد أشار اليه كذلك وأنه في نحو سبعين كيراسا[٥] ، وتوجد نسخة خطية منه في المكتبة الازهرية رقمها ٦٥٣ أباظة ٧٢٤٠ معارف عامة وهي بخط المؤلف هكذا كتب عليها ،ويظن أنها مسودة المؤلف[٦] حيث يوجد بها عبارات كثيرة مشطوبة ،ولم نعثر على نسخة أخرى غيرها .

والكتاب كما يبدو من عنوانه خواطر عامة في فنون مختلفة سجلها المؤلف،بعضها لا يزيد عن ثلاثة أسطر ،وبعضها يربو على ثلاث لوحات ،وطريقة المؤلف في هذا الكتاب بصورة عامة ،إيراد قول من أقوال السابقين في أى علم من العلوم ثم يناقشه ،مثال ذلك قوله : " قال تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ـ الرحمن آية: ٢٢ قال في الكشاف : فان قلت لم قال : منهما . وإنما يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه ،وتقول : خرجت

---

(١) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٣) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٣ .

(٤) ايضاح المكنون جـ٤ ص ٣٠ .

(٥) مقدمة محقق الريحانة ص ١٨ .

(٦) نفس المصدر و نفس الصفحة ،والخفاجيون في التاريخ ص ١٥٣ .

من البلدة وإنما خرجت من محلة من محاله بل من دار واحـــــدة من دوره ،وقيل لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب ، أخرج بمعنى أرسل وخلى ... الخ (١) " .

وأول ذلك الكتاب قوله : " يا من بيده خزائن الملك ومفاتحها ، وبديمومة قيوميته ،بوارح الخواطر وسوانحها ، إليك مددنا يد الضراعة سائلين ،وعليك معولنا في كل مهم عادمين ،سبحانك لا نحصي ثناء عليك ،ولا نعد نعما فاضت في جودى جود لديك ، ومن أجلها أننـــا في جلةعبيدك ،وفي أمة أشرف الداخلين حرم قدسك ووجودك ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وجزاه عنا ما هو أهله .... وإنه مما لاح فـي السوانح ، ومر في فيافي الخيال في أوابد البوارح ، أن التقييد للعقول خير عقال ،وبه يحفظ المرء عن طرق الضلال ... (٢) "

هذا من حيث المقدمة وأما الخاتمة فقد جاءت غير طبيعيـــة حيث وقف المؤلف في هذا الكتاب عند قضية" التحليق بالمحق (٣) دون أن يبين ان هذا الكلام خاتمة كلامه ولم يضع خاتمة تدل على أن هذه المسألة آخر ما ختم بها كتابه هذا ولعل السبب في عدم وجودها واحد مـن أمرين :

إما أن المؤلف عندما وقف عند نهاية تلك المسألة لم يرجـــع إلى الكتاب ثانية ليصنع له خاتمة تبين أن التأليف في هذه البــــوارح

---

(١) الشهاب الخفاجي ،السوانح والبوارح نسخة مصورة بمركز البحث العلمي رقم ٥٨٩ أ وب ورقة ٢١ .

(٢) نفس المصدر ورقة رقم " ١ " .

(٣) نفس المصدر ورقة رقم " ٦٨ " .

والسوانح قد انتهى . وإما أن المؤلف فعل ذلك ولكن تلك الخاتمة لم تصل إلينا مع هذه النسخة التي اطلعت عليها .

على أن الدكتور محمد سيد الكيلاني ذكر أن الكتاب طبع (١) ولم يشر إلى أي مطبعة قامت بطبعه ،ليتسنى لي الاطلاع عليه ، ثم لم أجد أحدا ممن له صلة بتراث الشهاب قد ذكر ذلك . فالله أعلم بالصواب .

*

شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل .

يعد هذا الكتاب من الكتب النادرة في موضوعه ،ويحتوى على مجموعة لغوية قيمة مفيدة في الألفاظ المعربة والدخيلة .

تحدث فيه الشهاب عن الكلمات المعربة والدخيلة ،التي دخلت على اللغة العربية عبر عصورها الطويلة ، إضافة إلى ما حواه من فوائد وتعليقات أدبية جعلته فريدا في بابه ،ثم إنّه قام بوضع مقدمة للكتاب درس فيها التعريب والمعرب ، و تغيير المعرب وإبداله ، واطراد الإبدال في الفارسية ثم بعد ذلك بدأ في موضوعه الذى من أجله وضع الكتاب .

وقد رتبه على حروف المعجم ، وقد اهتم بالحرف الأول من الكلمة دون سائر بقية حروفها ،وأضاف في ثنايا كتابه كلمات أشار الى أنها مولدة وقال في مقدمته :

---

(١) الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ٢٧٩ .

أما بعد حمداً لله الذى من بنعمة البيان ، وبلبل الألسنة حتى تعربت وتولدت منها الحور الحسان ، والصلاة والسلام على سراج الهدى وأصحابه أعلام العلا فهذا كتاب جليل جمعت فيه كلام العرب من الدخيل ، دعاني إليه أن المعرب ألف فيه قوم ، منهم من لم يحم حول ناديه ، ومنهم من دقق في التخريجات الغريبة وأتى في أثناء ذلك بوجوه عجيبة ، وكتاب أبي منصور روّح الله روحه ، وأجزل في منازل السعادة فتوحه ، أجل ما صنف في هذا الباب ، إلا أنه لم يميز فيه القشر من اللباب ، فاحببت أن أهدى تحفة للإخوان ، بل عروسا منتقبة بنقاب الحسن والإحسان ، وأضفت إليه فوائد ، ونظمت في لباته فرائد ، وضممت إليه قسم المولد ، وهو إلى الآن لم يدون في كتاب ... وسميته شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل (١).

وواضح أن المؤلف قد اطلع على كتاب ابي منصور الجواليقي (*) المسمى " المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم " وذلك حين قال : " وكتاب أبي منصور ... ... أجل ما صنف في هذا الباب (٢) "

---

(١) الشهاب الخفاجي ، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل و المطبعة المنيرية بالأزهر ١٩٥٢م ص ٢٢ ، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي .

(*) هو أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن ولد سنة ٤٦٥هـ كانت وفاته سنة ٥٤٠ هـ له عدد من المؤلفات منها المعرب ، شرح أدب الكاتب ، تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة وغيرها .
ترجمته : في مقدمة المعرب طبعة طهران سنة ١٩٦٦ م ص ٢٢ تحقيق احمد محمد شاكر .

(٢) شفاء الغليل ص ٢٢-٢٣ .

وفي كثير من المواضع يشير إليه بقوله : وقال أبو منصور (١) : فما مدى اتفاق الكتابين وما مدى اختلافهما نجيب عن ذلك بإيجاز فيما يلي :

إن كلا منهما رتب كتابه بالحروف الأولى فقط من الكلمات وأهمل سائر حروفها فيعسر على الباحث بناء على ذلك المنهج أن يعرف موضع الكلمة في بابها فإذا ما أراد أن ينظر لكلمة " تجفاف ، أو سروال " مثلا كان عليه أن ينظر لجميع باب التاء في " تجفاف " ولجميع باب السين في " سروال " وذلك فيه من العسر ما فيه (٢).

أنهما نهجا نهج سابقيهما في الذهاب "إلى فارسية أكثر تلك المعربات كأنما أرادوا بذلك أن يأتوا ببرهان على أن تأثر العربية بالفارسية كان أبلغ وأعمق من تأثرها بسائر اللغات الأخرى ، ولعلنا بهذا نفسر إطلاقهم لفظ أعجمي كلما أرادوا ان يذكروا لفظ فارسي (٣).

أن الشهاب الخفاجي كثيرا ما ينقل من الجواليقي ، وموافقته في جميع ما نقله عنه في صحة كونه معربا وهذا لا يدخل تحت حصر.

وقوعه في بعض الأخطاء التي وقع فيها الجواليقي في عدم صحة نسبتها إلى الفارسية وهذا يؤيد ما سبق أن قلناه من أنهم يقصدون بكلمة أعجمي في الأعم الاغلب " الفارسي " مثال ذلك قوله - أي الشهاب - " آبيل " راهب معرب " (٤) واكتفى بهذا النقل دون

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢-٢٣ .

(٢) المعرب ص ٥ .

(٣) د . صبحي الصالح ، دراسات في فقه اللغة. طبعة دار العلم للملايين بيروت الطبعة السادسة ص ٣١٩ .

(٤) شفاء الغليل ص ٣٧ .

أى تعليق يذكر وهذا يعني موافقته "للجواليقي" حيث نبه الدكتور عبد الوهاب عزام في أثناء تقديمه لكتاب أبي منصور إلى أن هـــذه الكلمة ليست فارسية بل سريانية ،ومعناها في الأصل الحزين وتقال للراهب".(١)

متابعته للجواليقي في "ذكر أسماء البلاد في المعربـــات حيث لا يتوهم أحد أنها عربية".(٢) مثل أنقرة - إيليا" ونحـــو ذلك.

على أنهما وإن اتفقا في تلك النقاط فإنهما يختلفان فيما يلي :

أن الشهاب الخفاجي قد يذكر كلمة ذكر الجواليقي أنهـــا معربة عن الفارسية ولكنه يورد لها معنى آخر غير المعنى الذى ذهب اليه الجواليقي مثل كلمة "دينار" فقد ذكر الجواليقي أنها "فارســـي معرب وأصله دنار".(٣) ويقول عنها الشهاب " دينار قال الراغب : معرب دين آرأى الشريعة جاءت به".(٤) . أنه ينتقي من الكلمات التي تعرض لها الجواليقي دون أن يذكر كل ما ساقه الجواليقي فـــي كتابه حيث نلاحظ كثيرا من الكلمات في كتاب الجواليقي لم يتعـــرض لها الخفاجي مثال ذلك آجر ، بارجه ،بازى ونحو ذلك.

---

(١) و (٢) المعرب ص ٥.

(٣) نفس المصدر ص ١٣٩.

(٤) شفاء الغليل ص ١٢٤.

عدم تعرضه لتصاريف الكلمة التي يتعرض لها بينما نجد الجواليقي يفعل ذلك كثيرا نحو: آجر ، آجرون ،آجور.

تفرده بذكر كلمات كثيرة لا نجد الجواليقي تعرض لها ، وهذا مما يزيد الكتاب قيمة ومكانة في المكتبة العربية مثال ذلك " إسْطِرّلاب تسمى الالات التي يعرف بها الوقت إسطرلاب ، والطرجهاره وهي آلة مائية ، وبنكام وهي رملية ، وكلها ألفاظ غير عربية[١] ،وقد تكون هذه أحدثت بعد عصر الجواليقي لأننا نجد الشهاب ينقلها من نهاية الأرب[٢] .

ألاحظ أنه يصرح في بعض الأحيان بعدم جزمه بصحة ما يقول كقوله : " سَدْلَى على فعلى ،وقيل سَهْدَلَه قيل معناه ثلاث بيوت في بيت ولست على ثقة منه ،وأهل مصر تستعمله بمعنى الصفة "[٣] بينما لا نجد مثل ذلك عند الجواليقي .

على أن الشيء المهم الذى تفرد بذكره الشهاب في كتابه هذا هو أنه أضاف كلمات كثيرة جدا من المولد ،ولكنه لم يفرده بقسم مستقل ، بل ذكره في ثنايا الكتاب وهذا عمل جيد يزيد من مكانة الشهاب وكتابه وبخاصة إذا ما عرفنا أنه صرح كما سبق في المقدمة أن المولد لمّا يجمع بعد في كتاب مستقل، مثال ذلك ، " أثافي - أثا في القدر معروفة ،واستعملها البحترى مجازا لنجوم معلومة في قوله :

وأثافٍ أتَتْ لها حِجَجٌ دو ن لظى النّارِ مُثّلٌ كالأثافي[٤]

----

(١) و (٢) شفاء الغليل ص ١٥٠ .

(٣) نفس المصدر ص ١٤٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٩ .

وقال الشهاب أيضا أن كلمة أدب بمعناها الاصطلاحي الشائع مولدة وذلك حين قال: " ... الأدب الذى كانت العرب تعرفه ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم قال الغنوى (*):

لا يَمْنَعُ الناسُ مني ما أَرَدْتُ ولا أُعْطِيهِمُ ما أَرادوا حُسْنَ ذا أَدَبا

واصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على تسمية العالم بالشعر أديبا، وعلوم العربية أدبا، وسموا هذه العلوم أدبا وذلك مولد (١)

ومن الثابت أن هذا الكتاب للشهاب الخفاجي فقد ذكره المحبي (٢) في خلاصة الأثر وإسماعيل باشا البغدادى في إيضاح المكنون (٣)، وأشار الدكتور الحلو أن بروكلمان ذكره في تاريخ الأدب العربي، وتوجد نسختان خطيتان لهذا الكتاب احداهما بدار الكتب المصرية ٢٠ م لغة، والأخرى بمكتبة المسجد الأحمدى بطنطا ١٠٤١٠ ع، وقد طبع الكتاب عدة طبعات كان اخرها سنة ١٩٥٢م، بالمطبعة المنيرية بالأزهر تصحيح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (٤).

*

(*) بسيم بن حنظلة الغنوي الأصمعيات ٥٦

....

(١) المصدر السابق ص ١٩.
(٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٣.
(٣) ايضاح المكنون جـ٤ ص ١٥٠.
(٤) مقدمة محقق الريحانة ص ٢١.

شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري .(*)

ذكره الشهاب ضمن مؤلفاته في الريحانة(١) ، وكذلك ذكر البغدادي في خزانة(٢) الادب ،وابن معصوم في السلافة(٣) ،والمحبي في الخلاصة(٤) ،وذكر الدكتور(٥) الحلو أن الإفراني في صفوة من انتشر ،وبروكلمان في تاريخ الادب العربي قد ذكراه في هذين الكتابين .

ولهذا الكتاب نسخ عديدة موزعة في أرجاء العالم ، ثلاث منها بمصر ، وثنتان بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٩ لغة ، ١٨ ق و الثالثة بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ١١ لغة .(٦)

(*) هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري منسوب إلى صناعة الحرير أو بيعه ولد سنة ٤٤٦ هـ وقرأ العربية والفقه ، تولى منصب صاحب الخبر بالبصرة وهو منصب ظل به إلى أن مات سنة ٥١٦ هـ له مؤلفات منها هذا الكتاب " درة الغواص " ،ومقاماته المشهورة ، ملحة الاعراب في صناعة الأعراب " الحريري ، درة الغواص ، طبعة دار النهضة مصر ص ٦ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(١) الريحانة جـ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) خزانة الادب جـ١ ص ٢٧ وغيرها .

(٣) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٤) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٢٢ .

(٥) مقدمة محقق الريحانة ص ١٨ .

(٦) نفس المصدر ص ١٩ .

وقد طبع الكتاب بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ ولم يطبع غيرها وقد قام صاحب الطبعة المشار إليها بوضع متن الدرة على حدة ، وألحق شرحها به لتتم الفائدة نظرا لأن متن الدرة غير مستوفى بأجمعه في أثناء الشرح . فشرح الدرة مطبوع طبعة مستقلة في ٢٥٧ صفحة من الحجم المتوسط . وأثنى صاحب الطبعة على هذا الشرح فقال : " وهذا الشرح جامع من الفوائد اللغوية والنحوية والأدبية ، ما ينشرح له صدر الأديب ، وتقر به عين الأريب (١) .

وقد ألف الشهاب كتابه هذا في زمن السلطان مراد بن السلطان احمد وصنفه باسمه ، وقد تعقب الحريرى في كثير من المواضع ووافقه في بعض آرائه وخالفه في بعضها وحمل عليه في طعنه على السلف (٢) .

قال في مقدمته : " أحمد الله الذى جعل حمده في تاج الأدب دره ، وأشكره على إحسانه الذى هو في وجوه المطالب غره ... - ثم قال في سبب تأليفه - وقد كنت إبان الحداثة شغوفا بها - أى بالدرة - شغولا استنشق من مهاب أنفاس نسيمها شمالا وقبولا ... ثم أخذت مفتاح مقفلها ، وفتحت أبواب مشكلها ، فلما رأيت طعنه على السلف ، وعرضه في سوق الكساد درة في جوفها صدف ... دعاني الانتصار للسلف ، إلى تمييز الدر من الصدف ، فضممت إليها دررا تصيرها عقدا (٣) .

---

(١) الخفاجي ، شرح درة الغواص ، مطبعة الجوائب ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٣ وما بعدها ومقدمة محقق الريحانة ص ١٨ .

(٣) شرح درة الغواص ص ٢ - ٣ .

قلنا إن الشهاب تعقب الحريرى ورد عليه في كثير من المواضع مثال ذلك :

قال الحريرى : ويقولون قبضت الفاً تامة والصواب أن يذكر فيقال الفا تاما "(١) .

قال الشهاب :" هذا ليس بمتعين فإن صاحب القاموس جوز تأنيثه باعتبار الدراهم وقد قيل أمر التأنيث سهل "(٢)

ثم أن الشهاب في ثنايا شرحه يذكر كثيرا من الأخبار التاريخيه والأدبية فإذا استشهد الحريرى بكلام منثور أو منظوم ، ألقى الشهاب الضوء على ذلك القول فإن كان مثلا او كلمة ألقيت في سياق حادثة تاريخية بسط القول في ذلك ، وإن كان شعرا ذكر قائله وأتبعه أبياتاً أخرى من القصيدة ،ثم يذكر نظائره في الشعر العربي إن كان له نظائر ويكفينا مثالا على ذلك قوله :

"... وأراك تَصَحُّ في المَحاق وحُسْنُها باقٍ على الأيامِ ليس بها صح المحاق : نقص القمر في أول الشهر وفي ثلاث ليال من آخره ولله در القائل :

أيا شَمْعاً يُضيءُ بلا انطفاءٍ ويا بدرا يَلُوحُ بلا مَحاق

فأنتَ البدرُ ما وجْه انتقاصي وأنتَ الشَّمعُ ما سببُ احتراقي

ولبعضهم :

وبُمهجتي رَشأٌ يراني مُقبِلاً فَيَغُضُّ عني طَرْفَه من كِبْره

---

(١) و (٢) شرح درة الغواص ص ٥٧ .

ظَبْيٌ ولكنْ للمُحبِّ نِفَـارُه　　　غُصْنٌ ولكنْ نورُه في ثغـره

شَمْسٌ ولكنْ في فوءِ اتأخرُّها　　　قمرٌ ولكنَّ المحاقَ بخصـره

إني لأعْجَبُ من مريضِ جفونـه　　　لا يشتكي من طولِ ليلة شعره

ولآخـــر :

يا مَنْ يحاكي البدرَ عند تمامِه　　　ارحمْ فتىً يحكيه عند محاقـه

وللمتنبي :

وقد أخذَ التمامُ البدرُ منهـم　　　وأعطاني من السقمِ المحاقـا

ونظائره أكثر من أن تذكر ".(١)

ومن الملاحظ أن الشهاب ينقل كثيرا عن "ابن برى "(*) في حاشيته على الدرة فتارة يصرح بقوله : قال ابن برى وتارة يقول : وفي الحواشي ويقصد به حاشية ابن برى على الدرة حيث أنها مسماة بهذا الاسم مثال ذلك قوله عند قول الحريرى "ويقولون للمريـض مسح الله ما بك ،والصواب فيه مصح " .

----

(١) المصدر السابق ص ٣٢ .

(*) هو عبدالله بن برى بن عبد الجبار المقدسي الأصل المصرى أبو محمد ابن أبي الوحش من علماء العربية النابهين ولد ونشأ وتوفي بمصر ... له "الرد على ابن الخشاب ، وغلط الضعفاء من الفقهاء" ، وحواشي على درة الغـواص للحريرى " الاعلام جـ٤ ص ٧٤ .

قال الشهاب : " قال ابن برى الصواب مسح بالسيف وقد ذكره الهروى في الغريبين ، فقال : مسح الله ما بك أى غسله عنك وطهرك من الذنوب ،وقال الصاغاني في الذيل والصلة : يقال للمريض مصح الله ما بك ،و مسح والصاد أعلى ، فما ذكره المصنف ليس سلما ثم أنه عداه بنفسه وفي الحواشي أنه غلط لأنّ مصح لا يتعدى إلا بالباء ،يقال مصحت بالشيء أى ذهبت به ، فهنا يقال : مصح الله بما بك فتعديه بالباء أو بالهمزة فيقال : أُمصح الله ما بك إذ لا يقال مصحه بدون باء "(١).

ولكن ذلك العمل لا يعد انتقاصا من قيمة عمل الشهاب في شرحه هذا؛إذ الاستفادة من أعمال العلماء السابقين يعد عملا جليلا في حد ذاته .

حديقة السحر : ذكره اسماعيل باشا البغدادى في إيضاح(٢) المكنون كما ذكره الشهاب في الريحانة ضمن مؤلفاته(٣)، ولم نقف لهذا الكتاب على أثر سوى ما أشار اليه مؤلفه في ثنايا كتابه الريحانة ،ومن تلك الاشارات مثلا في الجزء الأول من الريحانة تحت عنوان "فائدة ".

قال السيوطي في شرح السنن(٤) : الإسعاد المعاونة في

----

(١) المصدر السابق ص ٣١ .

(٢) ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون جـ٣ ص ٢٩٧ .

(٣) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٤) شرح السنن هو زهر الربى شرح سنن النسائي كما بينه محقق الريحانة جـ١ ص ٨٨ .

النياحة خاصة ، وفي غيرها المساعدة ، وأصله من وضع الساعد على الساعد . انتهى .

- قال الشهاب : على هذا فالإسعاد هنا ليس مستعملا فيما وضعته العرب ، وإن صح على أنه مجاز مرسل في مطلق المعاونة ، لكن الفصحاء يستقبحون مثله ، وقد بيناه في كتاب قرض الشعر المسمى " حديقة السحر " فانظره ثمة ".(١) .

ومن إشارات الشهاب عن هذا الكتاب المفقود قوله معلقا على قصيدة " حسن البُوريني ".(*) التي ذكرها في الريحانة منها :

إلٰهيْ أَدِمْ حاكمَ الحبِّ فينا   مطاعاً وكلَّ البرايا أُسـارى
إلٰهي وزِدْ ذلك القَدَّ لِينـا   وأَشْرِبْ سَقِيمَ الجفون العُقارا
إلٰهي على ضَعْفِ أهلِ الهوى   أَنِلْ لَحْظَه في القلوب اقتِدارا
إلٰهي جُنودَ الهوى أَعْطِهـا   على قوّةِ الصّابرين انْتِصـارا

قال الشهاب : "أقول : هذا أسلوب من أساليب الفصاحة لطيف ، كما بيناه في كتابنا المسمى بـ " حديقة السحر " ، وهو نقل الكلام من طريق الى آخر ، كاستعمال ما عهد استعماله في الدعاء والمناجاة والتغزل كما هنا .".(٢)

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٨٨ .

(*) حسن بن محمد بن حسن بن عمر بن عبد الرحمن الصفوري الأصل الدمشقي الملقب بدر الدين البوريني الشافعي له تآليف منها كتابه " تراجم الأعيان في التاريخ والتراجم وديوان شعر وغيرها ، تولى القضاء والتدريس في دمشق توفي سنة ١٠٢٤ - الريحانة جـ١ ص ٤٢ وخلاصة الأثر جـ٢ ص ٥١ .

(٢) ريحانة الألبا جـ١ ص ٤٧ .

ومن إشاراته أيضا عن هذا الكتاب قوله معلقا على بيت لأبي الفتح بن عبد السلام (*) الذى هو :

تَفَرَّشْتُ خَدِّى في الطَّريق مُقَبِّلا　　بفَمِ الجُفون مَواطِئ اسْتِطْراقِهِ

قال الشهاب : " وقوله بفم الجفون .. الخ كقوله أيضا في أرجوزته المشهورة :

تكادُ من عُذوبةِ الألفـــاظِ　　تَشْرَبُها مَسامِعُ الحُفَّـــاظِ

وهذا النوع من البديع غريب ، بيناه في " حديقة السحر " (١).

وما تلك إلا نماذج مما ذكره الشهاب عن هذا الكتاب المفقود ، وقد كنت ظننت ظنا أنه كتاب بلاغة بسبب هذه النماذج البلاغية التي ذكرناها ، لولا ما عرفناه عن الشهاب في جل كتبه أنه يكثر من الحديث عن البلاغة وأقسامها لغرامه بها أقول : لولا ذلك لجزمت أنه كتاب بلاغة أو هو أقرب منها إلى غيرها .

*

(*) هو ابو الفتح محمد بن عبد السلام الرَّبَعي التُّونسي ولد سنة احدى وتسعمائة ودخل دمشق أيام شبابه ، كان عالما بالفقه والأصول ، والعربية وعلومها وكان حسن الشعر تولى مناصب دينية عديدة توفي سنة خمس وسبعين وتسعمائة .
الريحانة جـ١ ص ١٣٤ وسلافة العصر ص ٣٩٧ .

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ١٧٦ .

خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا :

ذكره الشهاب ضمن مؤلفاته في الريحانة [١] وكذلك المحبي ذكره في خلاصة الأثر ضمن مؤلفات الشهاب [٢] ، وذكره حاجي خليفة في المجلد الاول من كشف الظنون [٣] ، وأشار الدكتور عبدالفتاح الحلو أن بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ، قد ذكره أيضا ضمن مؤلفات الشهاب الخفاجي [٤] ومنه ما يزيد على خمس عشرة نسخة مخطوطة موزعة في أرجاء العالم كما ذكر الدكتور الحلو.

في مصر أربع من تلك النسخ ،ثلاث بدار الكتب المصرية برقم ٨٤ ، ١٣١٢ ، ٤٦٩٧ أدب ، والرابعة بمكتبة الازهر برقم ٢٨٣ أباظة ،وأربع أخرى بتركيا والبقية موزعة في مكتبات دول عديدة [٥].

وأول ذلك الكتاب :

حمدا لك اللهم يطوق جيد البلاغة نظيم عقوده ،وينسج بنان البيان على منوال البراعة دقيق بروده ،وشكرا تدفقت موارده ومصادره ، وغرقت في سواحله من كل واد فكر خواطره ، على نعمك التي لا تغنى من معدن الوجود جواهرها ،وصلاة الصلاة لناظم عقد الدين [٦].

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) خلاصة الاثر جـ١ ص٣٣٣ .

(٣) حاجي خليفة ،كشف الظنون طبعة دار الفكر جـ١ ص٦٩٩ .

(٤) مقدمة محقق الريحانة ص١٣ .

(٥) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(٦) خبايا الزوايا نسخة الازهر رقم ٢٨٣ أباظة ورقة ١ .

وهو كتاب أدب وتراجم ضمنه شيوخه وشيوخ أبيه ، رتبه على خمسة أقسام : الأول في رجال الشام ،والثاني في رجال الحجاز ، والثالث في رجال مصر ،والرابع في رجال المغرب ، والخامس في رجال الروم.

وقد ذكر خلاله كثيرا من نتاجه النثرى والشعرى ، ثم عاد في نهاية الكتاب نوقفه على نتاجه الشخصي بالإضافة إلى ما سبق حيث ذكر شيئا كثيرا من فصوله القصار - التي سنعرض لها في آخر هذا الباب باذن الله - ثم ختمه بأرجوزة طويلة في الحكم أسماها "ذات الأمثال" وأحيانا يطلق عليها "ريحانة الند" وهي مذكورة بكاملها في النسخة رقم ١٣١٢ أدب بدار الكتب المصرية ،ومنها نسخة في باريس ،وأولها :

الشكرُ روضٌ قَدْ زها أنْوارا ما كلّ نورٍ يعقد الثمارا
فالشكرُ للهِ على الانعامِ يختالُ في ملابسِ الدوام
ثم الصلاةُ لنبي الرحمة وآلهِ أهلُ الهدى والحكمة

وآخرها :

لا شيءَ كالقلبِ انقساما وَسَعَة فكل شيء في الوجود وَسِعَه
فلا تُضَيِّقْه بهم قدْ نَزَلْ وما لغيرِ اللهِ فيه من محل (١)

وقد انتهى من تأليفه في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٠٤٢هـ .

---

(١) خبايا الزوايا ، نسخة دار الكتب المصرية ،رقم ١٣١٢ أدب من ورقة ٢٢٠- ٢٢٥ .

ذكر الدكتور عبد الفتاح الحلو أن الشهاب الخفاجي ألف هذا الكتاب باسم شيخ الاسلام " يحيى بن زكريا بن بيرام "(*) ، وأشار المحبي الابن أن والده قابل الشهاب في أثناء عودة الشهاب إلى مصر ، وأخذ عنه وكتب عنه أصل الريحانة الذى سماه " خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا "(١).

وواضح من عبارة المحبي الابن أن هذا الكتاب يعتبر أصلا للريحانة وأن الشهاب ألفه أولا ثم عاد إليه ثانيا وأخرجه تحت اسمه الاخر " ريحانة الألبا ... " بعد الزيادة عليه وتنقيحه وإدخاله لكثير من المباحث المفيدة الجديدة .

ويدعم كلام المحبي من أن هذا الكتاب هو الأصل ، قول الشهاب نفسه في مقدمته " وسميته خبايا الزوايا في الرجال من البقايا "(٢) وقوله في الريحانة " فهذه ذخائر من خبايا الزوايا "(٣).

(*) ـ سبقت ترجمته .

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٢٤ .
(٢) خبايا الزوايا نسخة الأزهر رقم ٢٨٣ أباظة ورقة رقم ٣ .
(٣) ريحانة الألبا جـ١ ص ١١ .

وبعد أن عرفنا ذلك ،فهل هناك من فرق بين الريحانة و هـــذا الكتـــاب ؟

بالنسبة لمقدمتي الكتابين فإني لم ألاحظ أى فرق بينهمـا يذكر سوى ما هو حاصل من تغيير بعض الألفاظ فقد ترد لفظـــــة أو جملة ما في الخبايا ،وترد في الريحانة بما يراد فيها ونحو ذلك .

إلا أن الاسطر الاولى من المقدمتين تختلفان كثيرا لكن مؤداهما واحد . ونقطة الإلتقاء بين المقدمتين تبدأ من قوله بعد حمد الله " .... على نعمك التي لا تفنى من معادن الوجود جواهرها ،ولا تذوى في خمائل الفصاحة أزهارها وتهدى صلاة الصلاة لناظـم عقد الدين بعد نثره المؤيد بايات لا يزال يتلوها لسان الدهر ، ولو طار نسر السماء من وكره .... (١) الخ .

هذا بالنسبة لمقدمتي الكتابين . فإذا ما استعرضنا مضمونهما فاننا نلاحظ أن الريحانة أوسع وأشمل من خبايا الزوايا وهذا أمر طبيعي ما دام الشهاب قصد أن يوسع من آفاق كتابه ولهذا نجد بعض الأشخاص المترجم لهم في الريحانة لم يشر إليهم في خبايا الزوايا مطلقا مثل "عبداللطيف بن شمس الدين محمد المعروف بابن المنقار" مع أننا نجده ترجم لأبيه في كلا الكتابين . ومثل "عبد الخالق الفاسي" (*) من أهل المغرب ،و" شهاب الدين أحمد الفيومي" (**) من شعراء الدولة الحسنية بمكة وغيرهم .

---

(١) المصدرين السابقين ورقة ١ ،و جـ١ ص ٣ .

(*) هو السيد عبد الخالق الفاسي أحد أدباء المغرب يبدو ان اصله من الأشراف لقول الخفاجي " فرع من شجرة النبوة ، المسقية بماء الوحي والفتوة " شامة في يد الأدب وريحانة من رياض العرب . الريحانة جـ١ ص ٣٦٩ .

(**) شهاب الدين احمد الفيومي أحد شعراء الشريف ابي نمي ابن بركات رحل الى القاهرة له ديوان شعر أشار اليه الخفاجي . الريحانة جـ١ ص ٣٨٥ .

بينما لم أجد شخصا ترجم له في خبايا الزوايا وأهمل ذكره في الريحانة .

ونلاحظ أيضا من الأشياء التي امتازت بها الريحانة عن الخبايا ، أن ذوق الشهاب قد تطور بدليل أنه يسجل في الريحانة ما يراه حسنا فينتقي ما يروق له من القصائد المختلفة لمن ترجم له .

مثال ذلك قصيدة " لاحمد العناياتي " التي مطلعها :

يا أيُّها الملأُ المِلاحُ افتُوني   من ذا أباحَ لكم دَمَ المفتُون

من كلِّ أَسْمَرَ سَنَّ قَتْلَ مُحِبِّه   بسنان أَحْور طَرْفِه المسنُون

فهذه القصيدة مذكورة في كلا الكتابين ولكن الأبيات التي في الريحانة منتقاة وليست بتمامها مثلما ذكرت في الخبايا . فعدد أبياتها في الاخير ثمانية وثلاثون بيتا بينما عددها في الريحانة لا يتجاوز عشرين بيتا ، بمعنى أن هنالك فرق ثمانية عشر بيتا ليست مو جودة في الريحانة ، بعضها في اول القصيدة وبعضها في وسطها (١) .

ومن تلك الأمثلة أيضا ان الشهاب عندما ترجم "لمحمد الصالحي الهلالي " ذكر له في الريحانة قصيدة طويلة تزيد على ثلاثين بيتا بينما لم نجد منها في "خبايا الزوايا " الا ثلاثة أبيات وهي مطلع القصيدة :

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٢١ - ٢٢ وخبايا الزوايا ورقة رقم ٧ ومابعدها نسخة الأزهر .

طَالَتْ وَقَدْ قَصُرَتْ عنها العِبَارَاتُ وحازت الحُسْنَ هاتيك البراعاتُ
غَرَّاءُ فائقةٌ باللطْفِ رائقـــــةٌ تحْلو الخلاعاتُ فيها والصَّباباتُ
أُخْتُ الغزالةِ إشْراقاً ومُلْتَفَتـاً لـها لدى السَّمعِ لذاتٌ ونشـاتٌ (١)

وهذان المثالان يؤيدان ما ذهبنا إليه من أنه في الريحانة يدون ما يراه مناسبا وجميلا وحريا بالتسجيل .

أما بالنسبة للأخبار التاريخيه عمَّن ترجم له في كلا الكتابين فإننا لا نلمس جديدا في الريحانة يختلف عن ما في الخبايا .

ولكن الجديد في الأخبار التاريخيه في الريحانة يأتـــي عندما تحدث عن نفسه وسبب عزله ، وكذلك في الحديث عن دخوله الشام واستقبالهم له ،وايضا عندما تحدث عن الروم وعن الدولـــة وحكامها فاننا نجد في الريحانة ما لا نجده في خبايا الزوايا والسبب في ذلك يرجع إلى أنه انتهى من تأليف الخبايا سنة ١٠٤٢ هـ ووضعه باسم "يحيى بن زكريا" وهذا الرجل نجد الشهاب في الريحانـــة ينقم عليه نقمة شديدة ورجحنا كما سبق في الباب الاول أن هـــذا الرجل كان وراء طرد الشهاب من بلاد الروم وعزله من منصبه لذا قـام الشهاب بتأليف مقامة كاملة في هذا الرجل انتصارا لنفسه منه - كمـــا سيأتي بيانه في الفصل الثالث من هذا الباب باذن الله - ومن هنـــا أتى الشهاب في الريحانة فسجل كل ما حدث له بعد عزله ولذلـــك امتازت الريحانة عن الخبايا بما ذكر. (٢)

---

(١) الريحانة جـ١ ص ٣٠ وخبايا الزوايا ورقة رقم ٩ ومابعدها نسخة الازهر .
(٢) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٢٨٤ حيث سجل الشهاب بالتفصيل كل ما ذكر وكذا جـ٢ ص ٢١٧-٢٨٤ عند حديثه عن أهل الشام.

على ان الريحانة لا تمتاز بتلك الصفات فحسب ،فإلى جانب ذلك تمتاز بكثير من المسائل والفوائد والتعليقات ، العلمية المختلفة من أدبية و لغوية وشرعية - كما سيأتي في فصل الريحانة ،مما ليس موجودا البتة في خبايا الزوايا ،وهذا يدل على القيمة العلمية المفيدة لهذا الكتاب ،وهذه الميزة ميزة ظاهرة ولو ذهبت أدون كل ما تحتهـا ما هو موجود في الريحانة لطال بنا المقام ،لأنّ أكثر من ثلث الريحانة داخل تحت هذا الباب لذا فالمثال التالي كاف للدلالة على ذلك .

ذكر الشهاب فائدة قيمة في أثناء تعليقه على قصيدة لأحمد العناياتي " التي مطلعها :

قَلْبي على قَدِّك المشوقِ بالهيف   طيرٌ على الغُصْنِ أم همزٌ على الألف

يقول الشهاب معلقا على ذلك المطلع : " اعترض على هذا المطلع بأنه لا وجه له لتشبيه القلب بالهمز ، وأجيب بأن له وجها ، لأنه وقـع تشبيهه بالطائر لخفقانه ، وهم قد شبهوا الطير على الغصن بالهمز والغصن بالألف ، ولما شاع هذا شبه به القلب وقد الحبيب ، فهـذا - في باب التشبيه كالمجاز على المجاز ،والكناية على الكناية (١) . "

ومما سبق يتضح الفرق بين الريحانة وخبايا الزوايا مما يدل على أن الشهاب ألف خبايا الزوايا أولا ثم عاد إليه ونقحه وزاد عليـه واسماه " ريحانة الألبا " .

ومن مؤلفات الشهاب ديوان شعر سنتحدث عنه في الباب الثالث باذن الله .

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٠ .

ديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب .

نوه بذكره في الريحانة ضمن مؤلفاته [(١)] ،وكذلك ذكره المحبي في كتابه خلاصة الأثر حين قال عنه : " وكتاب ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب ،ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين ". [(٢)]

وكذلك سماه اسماعيل باشا البغدادى في ايضاح المكنون وأسماه " ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب ". [(٣)]

وأشار الدكتور عبد الفتاح الحلو " أن بروكلمان ذكره في تاريخ الأدب العربي وسماه ،ديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب ، وذكر أنه طبع في بيروت سنة ١٣١٦هـ -ولكنني لم أعثر على هذه الطبعة ولم يقم لي دليل على وجودها غير ما ذكر -وتوجد منه نسخة مخطوطة في فيض الله ١٥٩٦ ". [(٤)]

وقد عثرت على نسخة خطية منه في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة تحت رقم ٣٠٨٥ ورقم التصنيف (٥٧ / ٨١٠) ، وهذه النسخة لم يشر لها أحد ممن له صلة بتراث الشهاب فيما أعلم ، وتقع في ٤٧٩ ورقة ، لكل ورقة وجهان ،وفي كل ورقة ما يقارب (٢٥) سطرا

----

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ . (٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٣ .
(٣) ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون جـ١ المجلد الثالث ص ٤٨٨ .
(٤) مقدمة محقق الريحانة جـ١ ص ١٥ .

وخطها جميل مقروء ، وعناوين الموضوعات مكتوبة بخط أحمر يميزها عن غيرها .

وكاتب النسخة الشيخ " رجب الشهير بالحريرى أصله من حلب " كتب في آخر ورقة منها ولم نقف على أثر له غير ما ذكر .

ولقد رأى المؤلف أن يصنف دفترا يجمع فيه بدائع الشعراء وروائع الكتاب والبلغاء . وأول ذلك الكتاب قوله :

" سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، فلك الحمد كما مجدك حملة رسالتك ... نعوت جلالك لا تلحقها أوصاف البشر ، وحصر شكرك لا تطاحوته خطا بيان وفكر ...... والصلاة والسلام على المبعوث من سرة البطحا في منبع البراعة ، ومعدن البلاغة ومنبت العليا ... ... وهذا ولما كانت البلاغة المطرزة بطراز الإعجاز الموضحة عيون سحرها برموز الإيجاز ، ختام مسك المعجزات ... لم تزل الفصاحة في هذه الأمة غضة طرية ، ثمراتها في جناتها غير مقطوعة ولا ممنوعة ... وكنت أهم أن أجمع بدائع الشعراء ، وروائع الكتاب والبلغاء ...... حتى أتت البشائر بما اختلجت لرؤياه أجفان الخواطر ، وطنت لذكراه آذان السرائر ، فوسمته بديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب " (١)

---

(١) الشهاب الخفاجي ،ديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب ورقة ١ .

وتوج كتابه بأن ابتدأ بإيراد عدد من الايات القرآنية باعتباره معدن الفصحاء والبلاغة والاعجاز ،وتبركا بالابتداء به[(١)] .

ثم تكلم عن فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : " أما الفصاحة فقد كان صلى الله عليه وسلم منها بالمحل الأعلى والمرتبة التي لا توصف ولا تحلى ،سلاسة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وعدم تكلف ....."[(٢)]

ثم أورد عددا من الأحاديث النبوية كنماذج للبلاغة في الحديث الشريف ، وهو في أثناء إيراده للآيات والأحاديث يعلق عليها ويستشهد بأقوال الأدباء ونظم الشعراء مبينا ما تدل عليه من معان ،ويكثر من النقل من العلماء القدامى سواء علماء النحو أم اللغة أم الحديث في أثناء تلك التعليقات ،مثال ذلك من القران قوله عندما أورد قول الله تعالى : " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ،وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم "[(٣)] ، قال في الأمثال القديمة حَرًّا أخاف على جاني كَمْأَةٍ لا قُرِّ ، يضرب لمن خاف شيئا فأصابه غيره كقوله - لم يبين اسم الشاعر -

وحَذَرْتُ من أَمْرٍ فمَنْ بجانبي لم يُنْكِنِي ولقيتُ ما لم أَحذَر

ومنه أخذ البحترى قوله :

لو أنني أُوفى التجا ربَ حقَّها فيما رأيتُ رجوتُ ما أخشاه[(٤)]

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٥ .

(٣) سورة البقرة الاية ٢١٦ .

(٤) نفس المصدر ورقة ٤ .

ومثاله من السنة قوله عندما أورد قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " من أتى عليه أربعون سنة ولم يغلب خيرُه شره فليتجهز الى النار "(١) وكان يقال للرجل إذا بلغ اربعين سنة : خذ حذرك من الله ،وقال الشاعر :

إذا ما المرءُ قصَّرَ حينَ مرَّتْ عليه الأربعون من الرِّجال
ولم يَلْحَقْ بصالحةٍ قَدَمُهُ فليس بلاحقٍ إحدى الليالي(٢)

ثم ذكر بعد ذلك نبذاً من كلام الصحابة رضي الله عنهم فأورد نقولا من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه كقوله : "أربع من كن فيه كان من خيار عباد الله ، من فرح للتائب ، واستغفر للمذنب ، ودعا للمدبر ،وشكر للمحسن على احسانه "(٣) .

ثم نقولا من كلام عمر رضي الله عنه كقوله " أما بعد فإنه من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ،ومن أقرضه جزاه ،ومن شكره زاده ، فعليك بتقوى الله فإنه لا ثواب لمن لا نية له ، ولا مال لمن لا رفق له ، ولا جديد لمن لا خلق له "(٤) .

ثم نماذج من كلام عثمان رضي الله عنه كقوله : " بقية عمر المؤمن لا ثمن لها،تدركه ما أفات ،وتحيي ما أمات "(٥) .

---

(١) السيوطي في الدر المنثور ج٦ ص٦٧ ط أصفهان والحديث متروك
(٢) المصدر السابق ورقة ٧ .
(٣) نفس المصدر ورقة ١٠ .
(٤) نفس المصدر ورقة ١١ .
(٥) نفس المصدر ورقة ١٢ .

ثم أورد من أقوال علي بن ابي طالب رضي الله عنه كقوله في خطبة له " ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها و ولا كالنار نام هاربها ، ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل ، ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال ،الا وإنكم قد أمرتم بالظعن ،ودللتم على الزاد ، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل "(١) .

ثم عقد فصلا تكلم فيه عن أنواع الشعراء واجناسهم ،ونقل في ذلك بعض أقوال العلماء ،ثم قال : " وها أنا مبين لك طبقاتهم حسبما عن لي فاستمع لما أقول (٢) : ثم شرع يعدد كبار الشعراء ، ابتداء بذكر امرىء القيس ثم الأعشى ، ثم أبي ذوءيب ثم أبي عبادة البحتري ثم أبي تمام الخ ما ذكر من الشعراء،وهو عند ذكره للشاعر يورد ما قيل فيه ،ويتكلم عن مزاياه الأدبية مستشهدا بما ينقله من شعره أو من نثره في بعضهم ،وتختلف تلك النقول كثرة وقلة حسب مستوى الشاعر ومكانته .

ومما ينبغي التنبيه إليه أنه إنما يورد محاسن الشعراء والأدباء دون أن يتعرض لما قيل فيهم من مساوىء بين ذلك في آخر كلامه عن أبي تمام (٢) .

وقد عقد بعض الفصول الصغيرة أثناء الكلام على بعض الشعراء الكبار كما يشير إلى من كان كاتبا منهم ايضا ، كما فعل في كلامه عن "أبي اسحاق ابراهيم بن هلال الحراني"(*)(٣) .

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٢ .

(٢) نفس المصدر ورقة ١٣ .

(٣) نفس المصدر ورقة ٤٧ .

(٤) نفس المصدر ورقة ٤٥٤ .

(*) ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني ابو اسحاق الصابي تقلد ديوان الرسائل ايام المطيع لله العباسي .له موءلفات منها " التاجي " في اخبار بني بويه ،وديوان شعر ،وغيرهما .
الاعلام جـ١ ص ٧٨ .

ومن الملاحظ أنه لم يراع في ترتيبه لأسماء أولئك الشعراء الحروف ولا قدم الزمان ولا جودة الشاعر من عدمها ولا كل أهل بلد على حدة بل ذكرهم كيفما اتفق ،إلا ما فعله من ورقة ٣١١ فقد ذكر شعراء كثر من أهل بغداد ،ثم أهل اصفهان فكأنه راعى المكان هنا وخالفه في بقية الكتاب .

ثم من الملاحظ أنه ينقل معظم شعراء يتيمة الدهر ،ودمية القصر، والذخيرة لابن بسام ، ويصرح في كثير من المواضع بقوله : " وقال الثعالبي ،وقال الباخرزي ،وقال ابن بسام وتارة يذكرهم بقوله : قال صاحب اليتيمة .... الخ

وقد ختم كتابه "بعمر بن الفارض " و أشار إلى أنه تطهر بالفيوض الربانية وأنه ظاهر الكرامات عذب الكلام سحر النظام ،وأشار الى أن له ديوانا سارت به الركبان ثم أورد بيتين من شعره وقال في سبب اختياره ابن الفارض وجعله خاتمة لشعراء كتابه : وقد اخترت أن أختم به تيمنا به وتمنياً للارتواء بنمير عذبه " (١) .

وهذا يدل على أنه معجب بأمثال ابن الفارض و غيره من أئمة الصوفية الغلاة .

و قبل ان نختم الحديث عن هذا الكتاب نود أن نشير إلى أنه أورد في ثناياه نتفا من أشعاره وقد يورد في بعض الأحيان قصائد كاملة ، كما فعل عند حديثه عن أبي المعالي درويش محمد الطالوى

----

(١) المصدر السابق ورقة ٤٧٨ .

قال : " ولما ورد قسطنطينية ، وأنا بها خليفة أبي فراس هزتني أريحية الطرب بنسيم الاستئناس فكتبت له :

قبلتُ مُصطَحِباً شِفَاهَ الأكْؤُسِ والصبحُ يَبْسِمُ لي بثغرِ العس (١)

وقال في خاتمة هذا الكتاب "والمرجو ممن نظر فيه واستملح معانيه ، أن يدعو لجامعه بالغفران ،وأن يعفو عما يراه من سهو ونسيان ، فقل أن يخلو من ذلك إنسان والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب (٢) .

وهكذا ينتهي هذا الكتاب وهو يدل على علم زاخر بشتى فنون العربية وآدابها ،وينبيء عن المقدرة التي أوتيها في لم شتات محاسن الأدب العربي في هذا الكتاب ،وهو كتاب قيم للغاية ، إذ هو تاريخ للأدب العربي إلى عصر المؤلف بأسلوب بليغ وعبارة رصينة .

*

---

(١) المصدر السابق ورقة ٤٢٠ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٤٧٩ .

نماذج من آراء الشهاب النقدية :

يتمثل لنا نتاج الشهاب النقدى من خلال آرائه التي أودعها كتبه الثلاثة : ريحانة الألبا ، طراز المجالس ،وديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب ولا تخلو تلك الآراء من أحد أمرين إلى جانب بعض النظرات النقدية للبديع ،وبعض استعارات أبي تمام ،واستعمال المصطلحات العلمية في الشعر.

فتارة نجده يذكر رأيه النقدى المبني على التعليل والتحليل ، وتارة يطلق كلمة عامة دالة على حسن الشعر المذكور ، أو على قبحه فمثال الأول قوله :

قال الثعالبي في مدح قصر :

وَقَصْرُ مُلْكٍ ترى كلَّ الجمال به وأَسْعُدِ الدَّهر تبدو من جوانبه
كأنَّما جنَّةُ الفِرْدَوس قد نَزَلتْ إلى خُوارَزْمَ تعجيلا لصاحبه

قلت : هذه غفلة عجيبة فان تعجيل الجنة ودخولها بالموت ،ففيه ايهام لا يليق بمثله .(١)

وقوله : قال ابن الرومي :

إذا بدا وجْههُ لقـــــومٍ لاذتْ بأَجْفانِها العيـــون

ما أحسن قوله : لاذت بأجفانها حيث جعله كناية عن تغميض العين .(٢)

---

(١) ديوان الادب في محاسن بلغاء العرب ورقة ٢٩٥ .

(٢) طراز المجالس ص ٢٤٦ .

وقوله : " قال ابن جلنك لما امتدح القاضي الزّملكاني فأجازه بخبز فكتب على حائط بستانه :

لله بُستانٌ حَلَلْنا دَوْحَـهُ في روضةٍ قد فُتِّحت أبوابها

والبانُ تحسَبُهُ سنا نيراً رأتْ قاضي القُضاةِ فنفّشت أذْنابها

وهذا نمط عجيب .... ووجه حسنها أنه قصد به تشبيه زهر البان ،وأدمج فيه هجو القاضي لأن السنا نير إنما تنفش أذنابها إذا فَزِعت من الكلاب فكأنه قال : إنها ظنته كلبا ".(١)

ومن أمثلة الثاني قوله :

قال جرير :

وإذا صَرَفْنَ عيونَهنَّ بنَظْرةٍ نَفَذَتْ نوافذُها بغير سِهامِ

وقوله : " وإذا صرفن " مسحة من الجمال وشمة من السحر ".(٢)

فهذه عبارة مجلة تدل على إعجاب بذلك البيت ليس إلا بدون بيان السبب . وقوله :

فمن نفحاته وغر لمعاته - أي حسن محمد البوريني - قوله

يقولون في الصُّبحِ الدعاءُ مؤَثّرٌ فقلتُ نعَمْ لو كان لليل له صبحُ

فياعَجَباً مني أرومُ لقاءَه وفي جَفْنِهِ سيفٌ ومن قدِّه رمْحُ

وفي البيت الاول معنى حسن ".(٣)

---

(١) ريحانة الالبا جـ١ ص ١٨٥ .

(٢) طراز المجالس ص ٦٥ .

(٣) ريحانة الالبا جـ١ ص ٤٢ .

وقوله : " وقد طالعت ديوانه - اى اسماعيل بن الحسين كاتب السر الخزرجي (*) - فلم أر فيه ما يلذ به الذوق السليم ،ويعترف به الطبع المستقيم".(١)

وأما نظرته للبديع فيمثلها قوله في الريحانة :

" ... واطم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء، وهو كل شعر أكثر فيه من البديع ، قالوا : وأول من أتلف الشعر العربي بهذا النمط مسلم بن الوليد ثم تبعه أبو تمام ،وأحسن هذه الصنعة التجنيس والتورية ،وهما في الشعر كالزعفران ،قليله مفرح وكثيره قاتل ، ولذا لم نجد في أهل مصر من يعرف الشعر ولا ينظمه ومنهم من غلط في ذلك فاكثر من اللغات الغريبة وتوهم أنه بذلك يصير بليغا".(٢)

ثم أن له نظرة الى الإكتفاء الذى هو نوع من أنواع البديع يوضحها قوله :" بقي هنا بحث جليل ، وهو أن المتأخرين من أصحاب البديعيات لما أكثروا من أنواع البديع ، وفيهم بعض من لا خبرة له بدقائق المعاني والعلوم ،زادوا فيها أنواعا مدخولة فمنها الإكتفاء ببعض الكلمات ... ... وقال ابن جني في كتاب "التعاقب" باب الإيماء ، وهو الإكتفاء عن الكلمة بحرف من أولها كقوله :

* قَدْ وَعَدَتْني أمُ عمرو أن ت *

أى أن تسمح ... ... ويرد طيهم قاطبة أن المحسنات

(*) ذكره في الريحانة جـ٢ ص ١٥٢ ولم أخرج بنتيجة منها أكثر مما ذكر .

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ١٥٢ .

(٢) نفس المصدر و نفس الجزء ص ٣٥ .

البديعية إنما تعد محسنة بعد مراعاة الفصاحة ، فما خالفها يعد قبيحا ممنوعا عند أهل العربية وقد صرحوا بأنه لا يجوز حذف بعض الكلمة إلا في ترخيم المنادى على اللغتين بشروطه وماعداه ، وإن سمع من العرب شاذ منافٍ للفصاحة ، فعدهم له محسنا لا يصح ، وكونه مع التورية لا يسوغه ،ولو صح كان المحسن له التورية لا هذا الإكتفاء فعدهم له منها وهم على وهم ، نعم لو جرى هذا على وفق العربية كان حسنا (١) .

إذاً فنظرة الشهاب إلى البديع نظرة صائبة ،وإن خالفت آراء كثير من العلماء والشعراء ، وأما رأيه في بعض استعارات أبي تمام فقد أوردها في كتابه "ديوان الأدب" حين قال : "واعلم أنه وقع لأبي تمام إستعارات كثيرة في "الماء" ، بعضها صاف رائق وبعضها لا يخلو من الكدر ، وكذلك في الدلو كقوله :

أَنَسَى أبا الفضلِ يَعْفُو التُّرْبَ أَحسنَه
دُوني وَدَلْوُ الرَّدَى في مائهِ بَرِدُ

قال ابن الأثير لقد توسوس أبو تمام بذكر الدلو في شعره حتى وضعه في غير موضعه" (٢) .

وأما رأيه في استعمال بعض المصطلحات العلمية - أو ما أُطلق عليها ألفاظ الحكما - في الشعر فيبينه قوله عندما أَورد قول ابن الرومي :

إنَّ للمجد كيمياءً إذا ما مسَّ كلباً أحالَهُ إنسانا

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١١١-١١٢ .

(٢) ديوان الادب في محاسن بلغاء العرب ورقة ٤٧ .

" قلت : - أي الشهاب - هذا ما عيب عليه من جهة لفظه وإن كان معناه بديعا في بابه ، قال ابن المعتز في كتاب " البديع " ومما يعاب على الشعراء استعمال الفاظ الحكما كالكيميا والسيميا والهيولى ، ولعله كان مصيبا في الصدر الأول لأنه لم يؤلف استعماله ، وعلى أمثالنا لا يعاب لشيوعه بعد نقل كتب اليونان إلينا ، فإن اللفظ قد يعد فصيحا عند قوم دون آخرين ، ألا ترى أن ابا هلال قال في كتاب الصناعتين الوحشي يعاب على القروى دون البدوى ، والذى هو لغته لأنه معروف عندهم "(١) ، وبذلك يتضح موقف الشهاب النقدى وهي آراء عمادها الذوق والاستحسان أكثر من التعليل ، بل أن بعض تعليلاته قائمة على ذلك .

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٢٤ .

الفصل الثانى

ـ دراسة لريحانة الألبا ـ

الفصل الثانـــي

دراسـة لريحانـة الأ لبـا

إن ورا• كل نتاج علمي أناسا مبدعين وأعلاما نابهين ، كانوا مصدرا لهذه المعارف الانسانية •

وإن العناية بتاريخ اولئك الأعلام يعد فنا قائما بذاته عرف باسم" التراجم" فلقد اهتم العرب بهذا الفن اهتماما كبيرا وقام الخلف بحق السلف في حفظ تاريخهم ، بالترجمة لهم إحيا• لذكرهم ،وتخليدا لمآثرهم ، واعترافا بما قدموه خدمة لتراث هذه الأمـة ، حتى أثر عـن الإمام السخاوى أنه قال :" من ورّخ مؤ منا فكأنما أحياه ".

وانطلاقا من هذا المبدأ هب علما• الأمة يعايشون كل جيــل بسيرتهم وتاريخهم في أمهات كتبهم ،ولعل طريقـة جمع الحديـــث وإسناده وتسجيله كانت منطلق العلما• في حركـة التدوين الشاملة وكانــت تراجم الصحابة والتابعين وسائر حفاظ الحديث النموذج الذى احتـــذاه رواد التدوين ،ونسجوا على منواله ، حيث ما لبث العلما• أن صنفـــوا في التراجـم والطبقات فكان إلى جانب تراجم الصحابة والتابعيـــــن والفقها• والمحدثين والمفسرين تلفى تراجم للأدبا• والشعرا• وتراجـــم للنحاة واللغويين •

فلقد اهتم العرب بالشعر والنثر فدونوا المأثور منهما و عـــنوا بروايتهما واختيارهما ونقدهما وصنفوا في فنونهما المختلفة من بلاغتهمـا وتاريخهما وطبقات رجالهما من قدما• و محدثين ومولدين ،وتعاقبت العصور

ويرزق كل جيل بثلة من الكتاب يأخذون على عاتقهم تدوين وتأريخ شعراء وأدباء وكتاب عصرهم.

ومن المعلوم أن أول ما وضع من هذه السلسلة الذهبية كتاب "البارع في أخبار الشعراء والمولدين" لهارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم البغدادى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ، ثم وصل إلينا كتاب "طبقات الشعراء المحدثين" لابن المعتز العباسي المقتول سنة ٢٩٦هـ، ثم جاء أبو منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي فألف كتابه الشهير "يتيمة الدهر" ثم استدرك على كتابه السابق بكتاب آخر سماه "تتمة اليتيمة"، وأبو منصور من العلماء البارزين بين القرنين الرابع والخامس من الهجرة المتوفي سنة ٤٢٩هـ.

ثم تتابعت الكتب المؤلفة بعد ذلك على ذلك النسق، حيث جاء الشاعر الأديب أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزى المقتول سنة ٤٦٧هـ بذيل على كتاب الثعالبي أسماه "دمية القصر وعصرة أهل العصر"، ثم بذيل ايضا القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير الأسواني المصرى المقتول سنة ٥٦٢هـ بكتابه الموسوم بـ "جنان الجنان ورياض الأذهان".

ثم يتابع الأدباء تلك السيرة الحسنة فيوضع على دمية القصر ثلاثة كتب لثلاثة أدباء كبارهم:

أبو الحسن علي بن زيد البيهقي المتوفي سنة ٥٦٥ هـ حيث وضع كتابه "وشاح الدمية".

أبو المعالي سعد بن علي الكتبي الحظيرى المتوفي سنة ٥٦٨هـ حيث ألف كتابه "زينة الدهر وعصرة أهل العصر".

ثم حمل الراية من بعده العماد الأصبهاني الكاتب أبو عبدالله

محمد بن صفي الدين المتوفي سنة ٥٩٧ هـ حيث وضع كتابه " خريدة القصر وجريدة العصر " وذيله المسمى بالسيل -لم أعثر على هذا الكتاب.-

وكان لأهل الأندلس نصيب وافر في هذا الميدان فلقد ألف عثمان بن ربيعة الأندلسي الإشبيلي المتوفي قريبا من عام ٣١٠هـ كتابا سماه "طبقات الشعراء بالأندلس " وفي نفس الفترة ألف ابن أبي الفتح " قاسم بن نضير بن رقاص بن ميشون " المتوفي سنة ٣٢٨ هـ - كتابا عن الشعراء من الفقهاء بالأندلس " ، ثم أتى ابن فرج الجياني المتوفي سنة ٣٥٩هـ ليؤلف كتابه " الحدائق " ، ثم ألف أبو بكر عبادة بن ماء السماء المتوفي سنة ٤١٩ هـ كتابا في " أخبار شعراء الأندلس " ، وكذلك أسهم الفتح بن خاقان المتوفي سنة ٥٢٩هـ في هذا الميدان بوضع كتابيه " قلائد العقيان و محاسن الأعيان " "ومطمح الأنفس ومسرح التأنس" ثم أتى علي بن محمد بن بسام المتوفى سنة ٥٤٢هـ ليؤلف كتابه الشهير بـ " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " وكان معاصرا للفتح بن خاقان وتتابع تلك السلسلة الدرية التي لمت شعث الأدب العربي ، حيث يأتي أبو البركات مبارك بن أبي الشعار الموصلي المتوفي سنة ٦٥٤هـ ليصنف كتابه المسمى "عقود الجمان في شعراء هذا الزمان " ونجد أيضا ابن سعيد ،أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ يؤلف كتابين في شعراء المائةالسابعة الأول أسماه " الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة " وقد يكون انتهى فيه الى سنة ٦٥٢هـ، ثم وصل ما انقطع فألف كتابه " الغرة الطالعة في فضلاء المائة السابعة " وكذلك أبو عبدالله محمد بن علي بن هانيء السبتي المتوفي سنة ٧٣٣هـ له أيضا كتاب أسماه " الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة".

ثم يتوقف التأليف في هذا الميدان إلا ما كان من مؤلفات جمعت بين الشعراء وغيرهم من العلماء كـ "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع "للإمام السخاوي - حتى يأتي الشهاب الخفاجي ليأخذ على عاتقه مهمة الترجمة لشعراء وادباء عصره ويعيد الى الأذهان تلك المجهودات الضخمة وتلك السلسلة الذهبية التي أرخت لأدبائنا العظام فألف كتابه "خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا" ، ثم نقحه وأخرجه في ثوب جديد وأطلق عليه "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا" (١).

وسأتناول بعد الحديث عن هذا الكتاب مدى تأثيره في الأدباء والمؤلفين من بعده .

---

(١) العماد الأصبهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، القسم العراقي ، المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧٥هـ جـ١ ص ٨٣ ومابعدها ، تحقيق محمد بهجة الأثري وجميل سعيد . والطاهر أحمد مكي ، دراسة في مصادر الأدب ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م ص ٢٤٨ ومابعدها . وعمر الدقاق ، مصادر التراث العربي في اللغة والأدب والتراجم ، المكتبة العربية حلب سنة ١٩٦٨م ص٢٣٣ ومابعدها . ومقدمة محقق الريحانة ص ٣٢ . وابن سعيد ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، طبعة دار المعارف ص ٢٠ تحقيق ابراهيم الابياري .

سبب تسمية هذا الكتاب بـ " ريحانة الألبا ...

إن الحديث عن هذا الكتاب حديث ذو شجون لما حواه من الذخائر والفوائد العلمية الجمة التي قلما تجدها في سواه ،وسأتناوله من جوانب عدة نظرا لمكانته بين كتب الشهاب خاصة وكتب العصر عامة ولما فيه من الجوانب المهمة التي تحتاج إلى وقفة تضيء ما حواه هذا الكتاب ،والمنهج الذى خطه المؤلف لنفسه فيه ، ومدى موافقته لبعض الكتب السابقة التي أشرنا إليها آنفا ،وكذا الإشارة إلى الجوانب التي تطرق إليها المؤلف في هذا الكتاب ،ولم تجد المؤلفين السابقين أولوها عناية مثل عناية الشهاب ،ولكنني قبل الحديث عن ذلك كله سأذكر السبب الذى دعا المؤلف إلى أن يسمى هذا الكتاب بـ " ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا " إنه اسم شاعرى لا بد أنه يعبر عن شيء أراده صاحبه ، بل ما هو إلا اختصار للخواطر التي داعبت صاحبه ،وأخذت تعتلج في صدره فأطلق هذا الاسم عله ينبيء عن تلك الخواطر.

ولنترك الإجابة على هذا السؤال إلى المؤلف لأنه كشف لنا في كتابه عن الداعي الذى جعله يطلق تلك التسمية وذلك حين قال :

" سميت هذه الرحلة ريحانة الندماء ،وشمامة الأدباء الظرفاء ، وفاكهة الأعيان الفضلاء لأني ذكرت فيها الأحباب من هو موجود ، فكأني بذكره أستنشق بالآذان طيب عطره ،ومن هو مفقود ، فبالثناء عليه والدعاء كأني أهدى له ريحانا ،وأضع في القلوب من طيب أحواله طيبا لأن قلوب الأحرار ،قبور الأسرار بل قبور الأخيار ،لأنهم سر من أسرار الله ....

- ثم يقول :- وانما خصصتها بالريحانة لأنها يشبه بها المحبوب ،وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الحسن والحسين: هما ريحانتاي.(١)

وسأل أبرويز بعض ندمائه عن روائح الرياحين فقال : رائحة النرجس كرائحة الشباب ، ورائحة الورد كرائحة الأحباب ،ورائحة الريحان كرائحة الأولاد ،ورائحة المنثور كرائحة الأصدقاء .

وانما خص الله هؤلاء بالريحان لأن الله أنبته نباتا حسنا ، غضا طريا سريع الزوال ،ولا يتمتع به كغيره فإذن أقول :

* أَيِنْ ريحانةَ الدّاعي السّميعُ *

أو أقول قول محمد بن المعدّل :

مَنْ يُهْدِ ريحاناً فإني مُهْدى ... ريحانةُ الحمدِ لأهلِ الحمدِ

أو كقوله :

وريحانُ النباتِ يعيشُ يوماً ... وليس يموتُ رَيْحانُ المقالِ

فلا تَكُ مؤثِرا ريحانَ شَمٍّ ... على ريحانِ أَسْماعِ الرجالِ(٢)

ومن هنا نكتشف سر تسمية هذا الكتاب بهذا الإسم ،لأن الأحباب والأصدقاء ريحان ،ولئلا يذبل ذلك الريحان قام بتسجيله قياما بحق الصحبة والصداقة وإيثارا لريحان أسماع الرجال على الريحان الذى يذبل بمجرد شمه وقطفه.

---

(١) احمد بن حنبل - المسند ج٢ ص ٨٥ طبعة دار الفكر سنة ١٣٩٣هـ.

(٢) ريحانة الألبا ج٢ ص ٣٠٨-٣٠٩.

منهجه في هــذا الكتــــــاب

إن نظرة سريعة إلى المنهج الذى خطه الشهاب لنفسه في كتابه هذا تعطينا تصورا واضحا عن المجهود الذى بذله ، في سبيل أن يخرج هذا الكتاب في ثوبه الذى أراده له صاحبه جامعا لأخبار عصره ورجالاته حاويا من الفوائد العلمية القيمة الشيء الكثير .

فلقد قسم الكتاب الى أربعة أقسام :

القسم الأول : في محاسن أهل الشام ونواحيها :

ترجم فيه لثلاثة واربعين رجلا بدأه بشيخه وصديقه " أحمد العناياتي " وانتهى فيه بـ " صلاح الدين الكوراني الحلبي " ، على أن هذا القسم مقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فيمن عرفهم أو سمع عنهم قبل نفيه إلى مصر وعددهم ثلاثة وثلاثون رجلا .

الفصل الثاني : فيمن لقيه بالشام في رحلته إلى مصر راجعا من الروم وذكر فيه خمسة رجال .

الفصل الثالث : فيمن لقيه في أثناء رحلته إلى حلب وهو في طريقه إلى مصر ويضم خمسة رجال .

ويعد هذا القسم الخاص عن الشام من أكبر اقسام الكتاب من حيث عدد الصفحات إذ يحوى مئتين وخمسا وثمانين صفحة .

القسم الثاني : في محاسن العصر بين من أهل المغرب وما والاها .

و يضم أحد عشر رجلا ، بدأه بـ " أحمد بن عبدالله - أحمد

ملوك المغرب - ،وختمه بـ " يحيى القرطبي .

ثم ذكر بعد هذا القسم : مكة ومن بحماها دون أن يفردها بقسم خاص ،ترجم فيه لواحد وعشرين رجلا بدأه بـ " أبي نمي بن بركات" وختمه بالعلامة "عبد الرحمن الخياري " .

ثم ذكر أيضا بعض فضلاء اليمن بعد الحديث عن أهل مكة وما جاورها ،تحدث فيه عن أربعة رجال من أهل اليمن .

القسم الثالث : في مصر وأحوالها وسبب العودة لرسومها وأطلالها .

ويعتبر هذا القسم أكبر الأقسام من حيث عدد التراجم ،حيث ترجم فيه لواحد وسبعين رجلا ، بدأه بالحديث عن " محمد بن يحيى المنوفي " وختمه بالحديث عن الأستاذ الإمام ابو المواهب البكرى .

القسم الرابع : في ذكر الروم ،وما اتفق له فيها ،وذكر من لقيه من رؤسائها وعلمائها وبقية دهمائها ، ترجم فيه لخمسة رجال فقط أولهم "علي ابن الحنائي بن أمر الله الحميدى " ،وخامسهم "محمد بن برهان الدين الحميدى ".

ثم عقد بابا في آخر الكتاب عن " أحوال الروم وانقراض علمائها ، ونشر الظلم والعدوان بين أمرائها " ، تحدث فيه عن أمور عديدة منها مقامة في رجل يدعى - يحيى بن زكريا - وعما جرى للنسب العلوى من البلية ، ثم عقد فصلا عن أمراء الدولة وحكامها ،ورجوعه إلى مصر ثم وضع فصلا تحدث فيه عن "بيان حاله في خبر المبتدا ، تحدث فيه عن شيوخه ومؤلفاته ومقاماته ،وختم الكتاب بفوائد عديدة منها ،اختلاف وجوه القراءات ،وطبقات البلغاء وطبقات الشعراء .

ملاحظات حول هذا المنهج

إن الناظر لمنهج الشهاب في هذا الكتاب لا يسعه إلا أن يعجب به ،ومع ذلك فإن المتفحص له لا بد أن يخرج ببعض التعليقات حوله ،وأهم ما بدا لي منها مايلي :

إن تقسيم الشهاب كتابه إلى أربعة أقسام يعتبر تقسيما غير دقيق اذا ما نظرنا إلى الواقع الذى نهجه فيه ،حيث نجده يتكلم في المجلد الأول عن مكة ومن يحماها وعن اليمن ومن بلغه خبره ممن عاش بها من الفضلاء والشعراء من أهل زمانه .

فهذان المبحثان يستغرقان من الكتاب قرابة مائةصفحة ،وتحتوى على خمسة وعشرين رجلا ،ومع ذلك فلم يفرد لهما قسما مستقلا ،وكان الأفضل أن يفعل ذلك ، حيث نجده يفرد أقساما مستقلة لأقل من ذلك العدد ، فها هو ذا يضع لأهل المغرب قسما خاصا بهم وعددهم أحد عشر رجلا فقط ،وصفحاته أقل مما استغرقه مبحثا مكة واليمن ،ونراه أيضا يضع لأهل الروم قسما خاصا ولم يترجم فيه إلا لخمسة أفراد ولا نجد للشهاب أى مسوغ في ذلك التقسيم إن صح إلا متابعة السابقين ممن ألفوا في هذا المضمار كما سيأتي ، وبهذا يتبين أن تقسيم الشهاب كتابه إلى أربعة أقسام تعوزه الدقة ،وكان الأولى به أن يضع لأهل مكة واليمن قسما خاصا بهم ليستقيم التقسيم .

وقد يكون الشهاب وضع لأهل مكة واليمن قسما مستقلا ،ولكن النساخ حذفوا العبارة الدالة على ذلك ، بل هذا هو الذى يغلب على ظني بدليل أنني وجدته في خبايا الزوايا يقسمها إلى خمسة أقسام -

كما مر بنا. وكان القسم الثاني عن رجال الحجاز.

وهنالك ملاحظة جديرة بالتسجيل هنا ألا وهي :

أن الشهاب الخفاجي في كتابه هذا لا نجده يتحدث عن شعراء العراق وهو قطر مشرقي عظيم كان مركزا مهما للشعر خاصة والأدب عامة في سالف الأزمان ، فهل يعقل أنه لم ينجب أحدا ذا مكانة يمكن للشهاب أن يتناوله ولو من قبيل الاشارة ، فياترى ما الذى جعل الشهاب يضرب صفحا عمن عاش في هذا البلد من العلماء والأدباء من أهل زمانه ؟

إن علامة الإستفهام هذه تحتاج منا إلى أن نتبين سببها ،ونفتش عن عذر نلتمسه للشهاب في عمله هذا.

وبعد طول نظر وروية لم نجد حلا لذلك سوىأن الناحية السياسية والمذهبية كانت وراء ترك الشهاب ذلك القطر ،وغض الطرف عن الحديث والترجمة لرجاله ، فمن المعلوم أن الأقطار التي تحدث عنها الشهاب في الريحانة تخضع بصفة رسمية للدولة العثمانية ، وهي دولة سنية المذهب بل نصبت نفسها ذائدة عن حماه ، بينما نجد العراق يخضع تحت سيطرة الدولة الصفوية ،وهي دولة شيعية المذهب وكان بين الدولتين عداوة شديدة ،وصلت إلى حد الصدام المسلح ،والذى كان كثيرا ما يدور بين الطرفين ،وما دام الأمر كذلك ،والشهاب من أتباع الدولة السنية بل كبار قضاتها ،وعلمائها البارزين ، فلابد له أن يعرض تمام الإعراض عن الحديث عن كل ما يمت بصلة إلى تلك الدولة الشيعية.

هذا هو السبب في نظرى الذى جعل الشهاب لا يتحدث من قريب أو بعيد عن أخبار ذلك القطر.

وقد يعترض معترض على هذا الرأى فيقول: إن المحبي في نفحة الريحانة ،وابن معصوم في سلافةالعصر قد خص كل منهما شعراء العراق بنصيب ،وهما من أتباع الدولة العثمانية والجواب على هذا :

إما أن الدولتين في عهد تدوين كل منهما كتابه ،بينهما سلام لا حرب .

وإما لأنهما لم يكونا ذوي مكانة تذكر عند الدولة فلذا تحدثا عن أهل العراق .

نلاحظ أن الشهاب في الريحانة في القسم الخاص عن الشام اكثر رواية لشعر شعرائه ،حيث يروى كثيرا من المطولات لكثير من الشعراء ، بينما نجده في القسم المصرى أقل رواية وإيرادا لشعر شعرائه ،وإن كنا نجده في بعض الأحايين يورد السبب الذى حداه إلى عدم الإكثار من تسجيل شعر بعض الشعراء من مصر مثال ذلك .

عندما ترجم لمحمد البلبيني (*) قال في شعره : " إلا أنه تجاوز عن رقة النسيب إلى كثرة التجنيس ، والحوشي الغريب فلذا لم أثبت من شعره إلا النزر القليل (١) .

ومن ذلك أيضا قوله في شعر محمد الأسيوطي (**) التاجر :

" ولشه شعر محته عن صحف الفكر السّنون ولم يعلق به إلا قوله في المجون .. (٢)

(*) هو محمد بن ناصر الدين بن علي البلبيني المصرى أديب شاعر شافعي المذهب توفي سنة ١٠١٩هـ ،خلاصة الاثر جـ٤ ص ٢٣٦ ، والريحانة جـ٢ ص١٣٧

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ١٣٧ .

(**) هو محمد الأسيوطي التاجر أديب شاعر ،كانت بينه وبين والد الشهاب مودة وصداقة . الريحانة جـ٢ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المصدر ونفس الجزء ص ١٤٠ .

وقد يكون السبب في ذلك أيضا :

أن شعراء الشام أحبوا الشهاب الخفاجي واستقبلوه عندما مر بالشام إلى منفاه ،استقبالا حافلا وكانت له علاقة صداقة ومودة مع كثير من أدبائها ،فدون كثيرا من أشعارهم ،بينما نجد أهل مصر خرج من عندهم في البداية عندما ضاق بهم ذرعا ،لعدم اكتراثهم به ، ولوجود بعض الإحن في النفس عليهم فلذا قل إيراده لأشعارهم.

ثم أن شعر شعراء الشام أجود في عهد الشهاب من شعر أي قطر من الأقطار التي أوردها ،والدليل على ذلك أننا نجده يسجل قصائد طوالا لمثل الصالحي وابن منجك والطالوى تعتبر من عيون شعر ذلك العصر بل على مستوى الشعر العربي عموما في تقديري.

انظر قول ابن منجك مثلا في هذا المقطع :

بانَ الخَليطُ ضُحىً عن الجَرْعاءِ — فمَن الغَريمُ لِشِدَّةٍ وعَناءِ
اللهُ يعلمُ أنَّ صَبْحي في الهوَى — سِيَّان بعد رَحيلِهم ومَسائِي
تُطوَى على النائِباتُ كأنَّني — سِرُّ الهوى وكأنَّها أحْشائي
وأشدُّ ما يشكو الفؤادُ مُمنَّعٌ — في لَحْظِهِ دائي ومنهُ دَوائي
رَيْحانةُ الحسنِ التي لعِبَتْ بها — ريحُ الصَّبا لا راحةُ الصَّهْباءِ
تجْري مِياهُ الحُسْنِ في أعْطافِهِ — جَرْيَ الصَّبابةِ منه في أعْضائي
قَمَرٌ إذا حسَرَ القِناعَ مُخاطِباً — شخَصتْ إليه أعيُنُ الأهْواءِ
إنْ يُخفِهِ ليلُ الغَوى فجبينُه — صُبْحٌ يَنِمُّ عليه بالأضْواءِ (١)

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢٣٦-٢٣٧.

وانظر أيضا قول درويش محمد الطالوى (*) من قصيدة عارض بها قصيدة المنخل اليشكرى (**) التي مطلعها :

إنْ كُنْتِ عاذلتي فَسيـــــرى ‏ ‏ نَحْوَ العراقِ ولا تحُـــورى
حيثُ الشَّبيبةُ روضـــةٌ ‏ ‏ غنَّاءُ صافيةُ الغديـــرِ (١)
فنَّاءُ رائدها المنهـــــا ‏ ‏ ةُ الرّودُ من ريم الخـــدور (٢)
من كلِّ مُخطفة الحشـــا ‏ ‏ كأخي الرّشا أختِ الغريـــر (٣)
طَلَعَتْ بليلٍ ذوائـــبٍ ‏ ‏ أبْهى من القمر المُنيـــرِ
بيضـــاءَ وشَّحت الثّــرا ‏ ‏ ئبَ والنُّحورَ من الثغـــور
تَمْشي أناةَ الخطْـوِ فيـ ‏ ‏ ـها رَوْعةُ الظَّبْي النَّفُـــورِ
قويتْ على قَتْلي وفـــي ‏ ‏ ألْحاظِها ضَعْفُ الفتُـــور
وبما جَرى يومَ النَّـــوى ‏ ‏ من دُرِّ مدمعِهـــا النَّثيـــر
كالعِقْدِ أسْلَمه النِّظــــا ‏ ‏ مُ من التَّرائبِ والنُّحـــور
وبَوَقْفةِ التّوديـــعِ والْـ ‏ ‏ أنفاسُ تَصْعَد بالزَّفيـــر
ويدُ الفِراق تشــبُّ فـــي الْـ ‏ ‏ أحشـاءِ نِيرانَ السَّعيـــر (٤)

(*) ستأتي ترجمته . ٣٥٨

(**) هو المنخل بن عبيد بن عامر من بني يشكر وهو قديم جاهلي وشى بالنابغة عند النعمان وقتله عمرو بن هند لأنه كان يتهم بامرأة له ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، طبعة دار المعارف جـ١ ص ٤٠٤ تحقيق احمد شاكر .

(١) الشبيبة : الشباب .

(٢) فناء : الشجرة الكثيرة الاغصان - الرود - يقال امش على رود - على مهل - اى المها التي تمشي على مهل .

(٣) مخطفة : ضامرة الحشا والبطن ، الرشا : ولد الظبية إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ، الغرير : الخلق الحسن .

(٤) المصدر السابق جـ١ ص ٦٦-٦٧ .

إلى غير ذلك من القصائد الكثيرة ،التي يجمعها جمال العبارة وسهولتها وسلامة اللغة على الرغم من طول تلك القصائد ،مما يدل على جودة شعر شعراء الشام في عهد الشهاب .

ومن تلك الملاحظات التي عنت لي في هذه الدراسة عن الريحانة :

أنني لم أجد الشهاب في المجلد الأول من هذا الكتاب يغمز أحدا بسبة ممن ترجم له سوى ما يذكره من فسوق بعضهم وخلاعته ، ولكن تلك الخلاعة لم تكن مدعاة - في نظر الشهاب كما بدا لي - لأن يسلط عليهم قلمه بالتنقيص والازدراء والحط من قيمة أدبهم .

انظره مثلا عندما أورد ترجمة " محمد بن ابراهيم الفاسي "(*) فهو يذكر عنه أنه كان يهوى غلاما هام به هياما شديدا(١) ، ومع ذلك لم نجده ينقده على ذلك السلوك الشاذ بل على العكس من ذلك مجده ، ورفع من مكانته ،وراسله ،وصادقه .

وهذه سمة عامة على المجلد الأول .

أما في المجلد الثاني وخاصة عند ترجمته لبعض أهل مصر نجده يسف في سبابهم إسفافا شديدا ، فها هو ذا يقول عند ترجمته "لعبد الواحد الرشيدى"(**) ، " وعندى أن عذره أقبح من ذنبه ،

(*) هو محمد بن ابراهيم بديع الزمان الفاسي كان شاعر فصيحا رحل من المغرب الى المشرق وجال فيه ودخل القسطنطينية وحظي بالاجتماع بعلمائها وكانت نهاية مطافه بمصر حين وافته منيته فيها ،كان صديقا للشهاب الخفاجي - خلاصة الأثر جـ٣ ص ٣١١ ، الريحانة جـ١ ص ٣٣٢ .

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٣٨ .

(**) عبد الواحد الرشيدى البرجي الشافعي كان فاضلا إماما زاهدا ورعا عالما بمعارف شتى له كتاب نزهة السامرة في أخبار مصر والقاهرة توفي ١٠٢٣ هـ بمصر . خلاصة الأثر جـ٣ ص ٩٩ والريحانة جـ٢ ص ٨٠ .

وتوبته لا أراها مقبولة عند ربه"(١) ويقول أيضا معلقا على بعض أبياته : "وهو مع سخافته ، وما فيه من رائحة الكفر الكريهة لما سمعته قلت : لله دره ما أعرفه ،لولم يصدق فيما جرى ،لم ينطق منه مثل هذا الخرا"(١) فهل يا ترى لم يجد في قاموسه النقدى واللغوى وهومن هو في كلا الأمرين ،الا هذه العبارات النابية التي لا يمكن أن نخرج منها بعبارة نقدية حول هذه الأبيات بالمعنى النقدى المتزن الواضح الخالي من العواطف الشخصية .

ويقول أيضا عن رجل آخر يدعى "رمضان الهُوِّي"(*). ذو أخلاق مجعدة ،وألفاظ محلولة مبددة . . . أشأم من طويس ، وأثقل على الراجي من لا ،وليس "وربما أن العلاقة الشخصية كان لها دورها في نقده لهذا الرجل ، بل على كل من ينتسب إلى أهل هذه البلدة فهو يقول عنها : "وهوّ بلدة بالصعيد ،لم يخرج منها نجيب ولا سعيد ،وما يسوء الفؤاد إلا هو"(٢).

فأرى من خلال هذه الأمثلة أن إطلاق مثل هذه الشتائم لم يكن لها من مبرر إلا أن يكون بينه وبين من يترجم له بعض الأحقاد ،التي لم يذكرها إلا من خلال تلك العبارات.

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٨٨ ، ٩٠ .

(*) رمضان الهُوِّي من صعيد مصر طال عمره كثيرا ، عارض مقامات الحريرى ابتلى بالفقر ، ريحانة الألبا جـ٢ ص ٩١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٩١ - ٩٢ .

من الملاحظ أن الشهاب الخفاجي عندما ترجم لخاله " أبي بكر الشَّنَوَاني " ذكره ضمن علماء المغرب علما أنه -كما مر بنا في الباب الأول- عاش بمصر، وأنه من شَنَوان، والسبب في كونه مذكورا ضمن علماء المغرب أن جده الأعلى ابن عم السيد علي الشريف الوفائي التونسي منشأ ومولدا "(١) إذاً فأبو بكر وإن نسب إلى شنوان إلا أنه من أهل المغرب لذا أورده الشهاب عند حديثه عن علماء المغرب ولكن هل التزم هذا المنهج في كتابه كله، وهو أن من أصله من المغرب مثلا يذكره عند حديثه عن أهل المغرب وإن عاش في بلد آخر ؟

والجواب أن الشهاب لم يلتزم ذلك المنهج بدليل :

أنه عندما ترجم " ليوسف المغربي " (*) ذكره ضمن تراجم علماء مصر (٢)، وواضح أن اصله من المغرب وأنه نزل مصر وعاش بها فلهذا لم يذكره عند تراجم أهل المغرب ليكون المنهج مستقيما .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الشهاب لم يلتزم ذلك المنهج المشار إليه، وكان الأولى والأسلم أن ينهج في هذا الكتاب منهجا واحدا بعيدا عن الاضطراب ليكون مناسبا كل التناسب لما حواه كتابه من معلومات قيمة قلما تجدها في غيره وبخاصة عن أهل عصره .

ثم أنه لم يسجل من أدباء المدينة الا عبد الرحمن الخياري نزيل المدينة المنورة علما أنها كانت مليئة بالأدباء البارزين .

----

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٠١ .

(*) هو يوسف بن زكريا المغربي نزل بمصر ونشأ بها يتعاطى صنعة الأدب فهو أديب شاعر ، أخذ العلم عن كبار رجال عصره له ديوان سماه الذهب اليوسفي والورد العذب الصفي " توفي سنة ١٠١٩هـ ،خلاصة الأثر جـ٤ ص ٥٠١ ، ومابعدها ،ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٢ ومابعدها .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٣٢ .

بعض أوجه التشابه بين الريحانة وبين بعض مثيلاتها في الأدب العربي :

لقد عرفنا في بداية هذا الفصل أن الشهاب الخفاجي لم يكن مبتدعا بل متبعا في الترجمة لأدباء عصره ، حيث عرضت هنالك مجمل أهم ما ألف في هذا المضمار ، وبعد أن عرضت بعض الملاحظات التي عنت لي في أثناء قراءتي للريحانة ، أود أن أشير الآن إلى بعض نقاط الإلتقاء بين الشهاب في ريحانته وبين من سبقه خاصة الثعالبي وابن بسام والعماد الاصفهاني باعتبارهم أشهر من ألف في هذا الميدان ، ولا أدعي أني سأحصر كل نقاط الإلتقاء ولكنني سأذكر أمثلة ليس إلا فأقول : إن من أهم مواضع التشابه بين الشهاب في ريحانته والثعالبي في يتيمته ، وابن بسام في ذخيرته والعماد الاصفهاني في خريدته مايلي :

ان هؤلاء جميعا يتشابهون في أن كلا منهم منتصر لعصره ، وما فيه من شعراء وأدباء ، أضف إلى ذلك أن بعض المعاصرين كانت تصلهم بهؤلاء المؤلفين صلات صداقة وأستاذية وأحبوا أن يحسنوا إليهم ويسجلوا ذكرهم ومحاسنهم قياما بحق الأستاذية والصداقة . فذا الشهاب يقول : " وحمية المرء لعصره ، وقيامه على منابر نصره ، من آيات الفتوة ، التي هي على لسان الدهر متلوة ، فليس منا من لم يغتذ بدر المجد في مهاده ، ولم يفتخر في المحافل بأستاذه وإسناده ".(١) ونجد الأمر نفسه عند الثعالبي وابن بسام ، فذا الثعالبي يقول في اليتيمة :

" وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء ، وذكر طبقاتهم ، ودرجاتهم وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ،

---

(١) ريحانة الألبا مقدمة المؤلف جـ١ ص ٥٥

ولذة الجدة وحلاوة قرب العهد ، وازدياد الجودة على كثرة النقد ، غير محصورة بكتاب يضم نشرها ،وينظم شذرها ... ... وقد كنت تصديت لعمل ذلك".(١)

ويقول ابن بسام — وإن كنا نلحظ أن دافعه أقوى من دافع صاحبيه لأنه إنما فعل ذلك غيرةً من أهل المشرق يتضح ذلك من خلال حدة تعبيره التي استبدت بنفسه وظهرت في كلامه حين نعى على مواطنيه متابعة أهل المشرق: " يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ،أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ،وتلوا ذلك كتابا محكما وأشعارهم السائرة مرمى القصية ،ومناخ الرزية ... ... فغاظني منهم ذلك ،وأنفت مما هنالك ، وأخذت على نفسي بجميع ما وجدت من حسنات دهري ،وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة ،وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه ،وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ،وخص أهل المشرق بالإحسان ".(٢)

ولم يكن الثعالبي وابن بسام والشهاب اختصوا بالدفاع عن محاسن عصورهم ،لأننا نجد كل أناس يظنون أن عصرهم في ميادين العلم أفضل من سابقيهم ،وأن تلك الحمية ظاهرة عند كثير من

----

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،طبعة دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ جـ١ ص ٤ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة طبعة دار الثقافة بيروت ،القسم الاول المجلد الاول ص٢ تحقيق احسان عباس.

المؤلفين فذا عماد الدين الاصفهاني صاحب الخريدة يقول : "لما رأيت الفضل في عصرنا هذا ،وإن ضاع عَرْفه ، قد ضاع عُرْفه . . . . . آثرت أن أَثُر من مآثر أهل العصر ،ما يخلد آثارهم و يجدد منارهم"(١).

و نحمت الحمية لأهل العصر هذه ،لأنهم حفظوا لنا من تاريخ الأدب العربي ما يجعلنا نفخر نحن بتلك المآثر ، وأن تلك الحمية لم تكن أبدا لتحط من مكانة هؤلاء الأعلام الذين سجلوا بأمانة ما عرفوه عن علماء عصرهم وأدبائهم .

إن ريحانة الألبا كانت نواتها " خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا "ثم مدة عاد اليه ونقحه وزاد عليه كثيرا من الأخبار والتراجم والتعليقات وأخرجه بعنوان " ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا "كما أشرنا الى ذلك في الفصل السابق .

فعمله هذا - أي إعادة النظر في خبايا الزوايا - أعاد الى الأذهان سيرة الثعالبي في "يتيمة الدهر" فلقد ألفها بادئ الأمر و جمعها في كتاب ثم أعاد النظر فيها فأخرجها في ثوبها الجديد المعروف باليتيمة .

فالشهاب يقول في مقدمة الريحانة : " فهذه ذخائر من خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا تنفس الدهر بها عن نفحة عنبرية ،وهبت بها أنفاسه الندية ندية ، . . . . . . فلذا سميتها ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا "(٢).

----

(١) العماد الاصفهاني ، خريدة القصر و جريدة العصر ،المطبعة الهاشمية ١٣٨٨هـ بداية قسم شعراء الشام ص ٣ تحقيق شكرى فيصل .

(٢) مقدمة ريحانة الألبا جـ١ ص ١١ .

والثعالبي يقول في مقدمة يتيمة الدهر " وقد كنت تصديت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلثمائة والعمر في إقباله والشباب بمائه ، ... وحيث أعرته على الأيام بصرى ، وأعدت فيه نظرى ،... ورأيتني أحاضر بأجواب كثيرة مما ينسب فيه لما فيه ، وقعت بأخرة إلي ، وزيادات جمة حصلت من أفواه الرواة لدي ... فجعلت أبنيه وأنقضه ، وأزيده وأنقصه وأمحوه وأثبته "(١) .

فهذا الوجه من أوجه الشبه بين الريحانة واليتيمة لم يكن لينقص من قيمة الكتابين العلمية بل على العكس من ذلك فهو يدل على اتساع في العلم و معرفة بمواطن الضعف في الكتاب الأول فيحاول المؤلف تدارك الهنات في الكتاب التالي ، وهذه سمة بشرية عند الإنسان ، و نجد الثعالبي يعقب على مثل هذا بقوله : " ... إن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتابا ، فيبيت عنده ليلة الا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة "(٢) .

ومن أوجه الشبه بين الشهاب الخفاجي والثعالبي في كتابيهما :

هو أن أصل الريحانة الذى هو خبايا الزوايا الفه الشهاب - كما ذكر الحلو - باسم شيخ الاسلام " يحيى بن زكريا "(٣) وكان هذا عالما مفتيا ينعته الشهاب باسم الوزير(٤) فكأنه إنما فعل ذلك تقربا إليه ،

---

(١) يتيمة الدهر جـ١ ص ٤ - ٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص٥ .

(٣) مقدمة محقق الريحانة ص ١٢ .

(٤) الريحانة جـ٢ ص ٣٢٠ .

وهو بهذا يتفق مع صاحب اليتيمة عندما وضع أصلها ، فقد افتتحها باسم بعض الوزراء وذلك حين قال : "... فافتتحته باسم بعض الوزراء مجريا إياه مجرى ما يتقرب به أهل الأدب الى ذوى الأخطار والرتب ".(١)

ثم أن اولئك الكتاب - الشهاب ،والثعالبي ،وابن بسام ،والعماد الأصفهاني - تناولوا الشعراء على حسب أقاليمهم ،ومناطق بلادهم وهذا التناول أقرب الى روح الأدب نفسه من تصنيف الشعراء بترتيب أسمائهم ، لأن في ذلك ربطا بين الأديب وبيئته ،لأن الأديب متأثر ببيئته .

ثم أن الشهاب قسّم الريحانة إلى أربعة أقسام وهو بهذا موافق للثعالبي في تقسيم اليتيمة ، وقدم شعراء الشام حيث جعلهم في الجزء الأول ،وفي هذا التقديم الذكرى دلالة على تفضيله لهم على شعر سائر البلدان ،وهو بهذا يتفق مع الثعالبي وإن لم يصرح بذلك .

أنهم جميعا قصروا حديثهم على الشعراء المعاصرين لهم أو كانوا قريبي العهد منهم ،وهذا في حد ذاته عمل جيد ، لأنهم لو لم يعملوا مثل هذا العمل في الاقتصار على أهل عصرهم لتفرقت بهم السبل ، ولم نجد فيزارة علم عن معاصريهم مثل هذا الذى وجدنا .

ثم أن تلك الكتب ،كتب أدبية في المختارات الشعرية المعاصرة لهم وتصوير جيد للحياة الأدبية في القرون التي تناولوها ،قبل أن تكون كتب تراجم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، لأن المادة الأدبية كانت

---

(١) يتيمة الدهر جـ١ ص٤ .

تهمهم جميعا ، وإن كانوا يختلفون في ذلك بين مسهب فيها ومختصر ،وهم بهذا العمل أمكن لهم أن يحفظوا لنا كثيرا من النصوص الأدبية التي لولا ذلك العمل الجاد لضاعت واندثرت .

ثم أنهم نهجوا في كتبهم منهجا فنيا خالصا فسجعوا ورصعوا ، وطابقوا وقابلوا إلى غير ذلك من الألوان البديعية التي أغرموا بها أشد الإغرام كل ذلك جرى منهم في أثناء تعريفهم بالشعراء والترجمة لهم وذكر أخبارهم ونقدهم ،وعلى الرغم ما في هذا العمل من العيوب فإنه يدلنا على المقدرة اللغوية الضخمة لهؤلاء الأعلام ، حيث يعتبر هذا في حدا ذاته عملا شاقا لا يستطيع أي مؤلف أن يسلك هذا المسلك إلا أن يكون ذا موهبة عظيمة ،وذا رصيد لغوى جم .

ألاحظ أنهم في كتبهم جميعا يوردون ملاحظات نقدية قيمة في أعقاب القصائد التي يذكرونها أو في مقدمتها أو في أثنائها ،وإن كانوا يختلفون ما بين كاتب وآخر فبعضهم مسهب في ذلك مثلما عند الشهاب الخفاجي في كثير من تعقيباته ،وبعضهم مقل كالثعالبي والعماد الأصفهاني في بعض أجزاء كتابه ما عدا قسم شعراء الشام فكما ذكر الدكتور شكرى فيصل -رحمه الله- أنه في هذا الجزء " كان أقرب إلى أن يختار منه إلى أن يجمع "(١) .

إن الشهاب يعتني بذكر شعره ونثره وحياته ومناصبه وصلاته بالعلماء ورحلاته في طلب العلم وشيوخه،وهو في بعض هذه يلتقي مع العماد الاصفهاني صاحب الخريدة(٢) ، كما يلتقي مع الثعالبي

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ،بداية قسم شعراء الشام جـ١ ص ٣٨ .

(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٣٩ .

وابن بسام في ايرادهم نماذج من اشعارهم في ثنايا كتبهم.

إن هوءلاء الأدباء يتنقلون في رياض الأدب والشعر منذ الجاهلية إلى عصورهم التي عاشوا فيها ،فينتقون ما في جناها ويعرضونها في معرض المقابلة ،أو من باب الشيء بالشيء يذكر ،ويأتون بالشعر المختلف لشعراء مختلفين في موضوع متشابه أو متقارب ، و يستحضرون من هذه الاستطرادات والمقابلات كثيرا جدا ،أعانتهم على ذلك حافظتهم القوية ،وروايتهم و يصدق عليهم قول ابن بسام " واذا ظفرت بمعنى حسن ،أو وقفت على لفظ مستحسن ذكرت من سبق إليه ،وأشرت إلى من نقص عنه أو زاد عليه ، ولست أقول أخذ هذا من هذا قولا مطلقا ،فقد تتوارد الخواطر ،ويقع الحافر حيث الحافر اذ الشعر ميدان والشعراء فرسان ".(١)

وبعد فان تلك النقاط التي بينتها ،وقلت إن الشهاب فيها نهج نهج سابقيه ،لا يعد انتقاصا من قيمة هذا الكتاب العلمية ، إذ الاستفادة من مناهج السابقين يعد في حد ذاته أمرا عظيما يدل أن الشهاب اهتم بتراث من سبقه وهضمه ، وحركت في نفسه السير على ذلك المنوال ،فأعاد لنا ذكراهم في الأذهان ،وخدم عصره خدمة عظيمة اذ حفظ لنا تراثه من الضياع.

ما اهتم به الشهاب في الريحانة دون سائر الموءلفين السابقين ، أود ان أشير الان - بعد أن عرضت أمثلة لدلالة على مدى موافقة الخفاجي في ريحانته لبعض الموءلفين الذين سلك مسلكهم - بإيجاز إلى الأمور التي اهتم بها دون سائر الموءلفين السابقين ،وإن وجدت

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول المجلد الأول ، ص ١٨.

عند بعضهم فإنهم لم يولوها اهتماما كبيرا مثلما فعل الشهاب . وهي كالتالي :

إن هذا الكتاب ليس كتاب أدب وتراجم فحسب بل يحوي من الفوائد العلمية القيمة ما يمكن أن نجعله في مصاف الكتب الشاملة أو ما اصطلح على تسميته بكتب الموسوعات ، وإن كان هذا الكتاب أقل حجما فإنه عظيم الفائدة ،لأنني وجدت الشهاب يدرج فيه من أنواع المعارف العامة الشيء الكثير ، فالتفسير نجد له نصيبا طيبا ،والحديث كذلك ،وللغة من نحو وصرف نصيب أيضا . وإليك هذه الأمثلة للدلالة على ذلك ،فمن التفسير قول الشهاب "وقد تأملت دعوة أبي الأنبياء ابراهيم -عليه السلام - ، وقوله : "فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم"- ابراهيم : ٣٧ - إذ لم يقل : اجعل الناس تهوى إليهم ، لأن المراد أن الشوق يجذبهم إليه ،ويُعلِّق مشكاة قلوبهم بسلاسل أنواره ،حتى يراهم بغير اختيار له متوجهين ،وهم على تحمل المشاق بوعثاء السفر غير متضجِّرين :

كأنما هو مِغْناطيسُ أنفسنا ... فحيثُما كان دارتْ نَحْوهُ الصُّوَرُ

ولذا جعل الطائف البيت على يساره ،لأن القلب في جهة اليسار ، وقد كان قبل الوصول مائلا إليه ، فلما وصل دام على ما كان عليه"(١) الى غير ذلك من الأمثلة المبثوثة في ثنايا الكتاب .

ومن أمثلة الحديث قوله : " واعلم أنه وقع في حديث صحيح ، عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٨١ .

يا رسول الله ،أنت أحب إليَّ من نفسي وأهلي ومالي ، وإنــــي إذا ذهبت لداري لا تطيب نفسي حتى آتيك وأراك ، فاذا مـــتّ أنت كنت في أعلى مقام ، فأخشى ألا أراك ، فلم يجبه الرسول صلى الله عليه وسلم ،فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله عز وجل : " ومن يطــع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم " .. الاية - النساء ٦٩/٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المرءُ مع من أحب "(١).

ومن أمثلة النحو قوله : " ومما عابوه عليه قوله : طوباك ،قالوا : صوابه طوبى لك وفيه نظر عندى ،فإنه إذا استعمل لفظ في كلا مهم على وجه من وجوه الكلام ،ثم استعمل على وجه آخر جارٍ على قواعد العربية مؤدٍّ لذلك المعنى ، كيف يعد خطأ ،فإن اللام مقدرة ،والمقدر في حكم الملفوظ ،فما الفرق بين طوبى لك ،وطوباك حتى يقال إن الثاني لحن"(٢).

وواضح من هذا المثال وغيره أن الشهاب يورد الآراء ،وإن كان له اعتراض يذكره ولم يكن اعتراضه تعسفا بل يورد الدليل والبرهـــان مما يدل على سعة علمه وطول باعه في هذه العلوم .

ومن اللغة قوله : " الجَرِيْمَة : التمرة تسمى بها النواة لأنها منها ". والوشية : حجر القَدّاحة ،وأمر بمعنى : كثر ،والهَبِيت : الضعيف الجبان ،والأبلج : السيد الوضّاح ،والمعلهج : المختلـط النسب"(٣) .

---

(١) المصدر السابق جا ص ١٤٣-١٤٤/ لقد خلط الخفاجي بين حديث عائشة وحديث - المرء مع من أحب ، فهذه اللفظة لم ترد فـــي الحديث المروى عن عائشة بل وردت عن غيرها ،وحديث المرء ... صحيح ،وحديث عائشة حديث مرفوع قال عنه ابن كثير : لا أرى باسناده بأسا " - ابن كثير - تفسير القرآن العظيم طبعة الشعب ج٢ ص ٣١٠ . تحقيق محمد البنا وآخرون .

(٢) نفس المصدر ج٢ ص ٤٨٥ . (٣) نفس المصدر جا ص ٣٦١ .

إن الشهاب في هذا الكتاب يعطي صورة حية عن نفسه ، ونظرته لبعض معاصريه سواء أكانوا حكاما أم محكومين ، دونما تهيب منهم أو اكتراث ، ويهاجم العلماء وخاصة علماء الروم ، ويعيب عليهم جهلهم ، ولعل علة ذلك يرجع إلى عامل شخصي ، فكأنه يقول من طرف خفي إن هؤلاء لا علم لهم ومع ذلك مكنوا من وظائف الدولة العليا بينما هو من هو في غزارة العلم ، وأصالة النسب ومع ذلك لم يعط مثلما أعطيه أولئك القضاة الجهلة .

انظره مثلا عندما يقول تحت عنوان "بيان أحوال الروم وانقراض علمائها ونشر الظلم والعدوان بين أمرائها" لما انهدم من الفضل بنيانه ، وانقضت عمده وأركانه ، وقوضت خيامه ، واندرست رسومه وأعلامه ، وصار أمر الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ، بعد العلامة شيخ الاسلام أسعد(*) ملعبة وشعبذة وسخرية ، والمدارس مأوى الحمير وقلد القضاء من ليس في العير ولا في النفير ... ... وولي الإمارة الفجار الأشرار ... وقد قال افلاطون : إذا تسامحت في القضاة والأطباء دولة فقد أدبرت وقرب انحلالها ، قلت : وكذا كثرة العزل والنصب(١).

وما هذا إلا نموذج من النماذج المتناثرة في ثنايا هذا الكتاب كلها تعبر عن نفس مليئة بالكراهية للدولة وبعض علمائها ، لتلك الأمور المذكورة ، مما كان له عظيم الأثر في عزل الشهاب عن منصبه .

ولعل أهم ميزة امتاز بها هذا الكتاب عن غيره من كتب السابقين أنه وإن كان خاصا بالحديث عن أهل عصره وإظهار مكانتهم إلا أنه مع ذلك لم ينس المتقدمين عليهم على اختلاف طبقاتهم ، فخصص في

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٢٨٣ .

(*) هو : أسعد بن محمد سعد الدين بن حسن جان التبريزي ، ولد في القسطنطينية سنة ٩٧٨هـ ، كان من أكابر علماء عصره ، اشتغل بالتدريس والقضاء ، والافتاء ، مات سنة ١٠٣٤هـ . خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٩٦ - ٣٩٩ .

آخر هذا الكتاب خاتمة تكلم في أولها عن اختلاف وجوه القراءات ، ثم وضع عنوانا آخر أسماه "طبقات الشعراء" بدأه بالكلام عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم ،ثم تكلم عن "بلغاء العرب في الشعر والخطب" حيث قال : "وبلغاء العرب والخطب على ست طبقات : الجاهلية ،والإسلام ، والإسلاميون ،والمولدون ، والمحدثون ،والمتأخرون و من الحق بهم من العصر بين ".(١)

ثم بعد ذلك أورد نماذج عن أشعارهم واقوالهم المنتقاة وصدق حين قال : " وها أنا أورد منها ما تقربه عيون الأدب ،وتنشرح به صدور الطلب ،من كل ما يدخل الأذن بغير إذن ".(٢) وقد استغرقت منه هذه الخاتمة قرابة خمسين صفحة ،وها أنا أورد نموذجا واحدا مما اختاره من شعر هذه الطبقات لنقف على حقيقة قولي .

قال الشهاب : " و من قصيدة لعمرو بن حسان ،أخي بني الحارث ابن همام (*) ذكر فيها الأكاسرة وآل المنذر :

أَلا يا أُمَّ قيسٍ لا تلومـــي ... وأَبْقي إنما ذا الناسُ هـــامْ

أَجَدَّك هل رأيتِ أبا قُبَيْـــسٍ ... أطال حياتَهُ النَّعَمُ الرُّكامْ

وكسرى إذْ تَقَسَّمَهُ بنـــوهُ ... بأسْيافٍ كما اقْتُسِمَ اللِّحـــام

تَمَخَّضتِ المَنُونُ لهُ بيَـــوْمٍ ... أَنى ولكلِّ حامِلةٍ تمـــام (٣)

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٤٤٩-٤٥٠ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٤٥٠ .

(*) عمرو بن حسان بن هانيء بن مسعود بن قيس بن خالد من بني الحارث بن همام ... كان صاحب شراب ،استفرغ شعره في وصف المجالس والندامى ـ المرزباني ـ معجم الشعراء طبعة دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ ص ٢٣٢ تصحيح سالم كرنكو .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٤٥٥ .

ومن الفروق بين الشهاب والثعالبي : أن الأخير جعل فصولا من كل قسم من أقسام كتابه للملوك والأمراء والوزراء والرؤساء ومن في حكمهم ، وكذلك ابن بسام سلك نفس المسلك في تقديم الملوك والأمراء على غيرهم من الأدباء ، بينما الشهاب الخفاجي اكتفى بذكر أدباء كل بلد دونما نظر لمكانة او رياسة ،إلا ما لاحظت في كلامه عن بلاد الحرمين فإنه بدأ بالأسرة الحسينية الذين هم أمراء مكة ،ولكن هذا الأمر لا ينم عن تقديم أو مكانة أدبية،اذ لو كان الأمر كذلك لجعلهم في القسم الأول من كتابه ،وبالأحرى لأفرد لهم قسما مستقلا ولكنه لم يفعل ذلك .

ثم أن الشهاب الخفاجي لم يقصر كتابه على الشعراء فقط بل أدرج ضمنه علماء لم يرو لهم شعرا من أمثال - القاضي أحمد المحلي المالكي المترجم له برقم ١٢٢ وناصر الدين محمد بن سالم الطبلاوى المترجم له برقم ١٤٤ وغيرهما بينما لم أجد الثعالبي وابن بسام ترجما الا من اتصف بصفة الشاعر.

تأثر المحبي وابن معصوم في كتابيهما بالريحانة

الكلمة الاخيرة في هذا الفصل هي : هل تأثر اللاحقون للشهاب ممن ألفوا في تراجم القرن الحادى عشر بريحانة الالبا ؟ والجواب عن هذا السؤال يأتي على لسان كل من المحبي في نفحة الريحانة ، وابن معصوم في سلافة العصر .

فإذا ما نظرنا لرأى المحبي نجده يقول : " وكان كتاب الريحانة للشهاب الذى أغنى عن الشمس والقمر ،وأطلع الكلام ألذ من طيب المدام والسمر ،وناهيك بمن استخدم الالفاظ حتى قيل : إنها له ملك ، ونظمها في أجياد الطروس كأنها جواهر لها كل سطر من سطورها سلك ، لم يزل في عهد صباي ،قبل نوم سيارة شمولي وصباي ،أمنية رجائي الحائم ،وبغية قلبي الهائم ،و شماماتي التي أشم ،ومسلاتي متى أهتم ،وزمزمقساني ،وعقيلة استحساني . . . . . . فخطر لي أن أقدح في تذييله زندى ،وآتي في محاكاته بما اجتمع من تلك الأشعار عندى ، وقصدي بذلك اشغال الفكر ،لا الإنضمام إلى من فاز بألى الذكر وإلا فمن أنا حتى يقال ، أوإذا عثرت عثرة تقال ،سيما إذا قرنت بمن جاريته في ميدان الكلام ، أو ضممت إلى من باريته وأنا لست له باري أقلام . . . . . . وكنت عزمت على ألا أترجم لاحد ممن ترجمه ثم عدلت ،لانى رأيت ألسنة النقاد عن زيف بعض تراجمه مترجمة . . . . . على أنه أغفل من القوم حزبا نقابيا ، وكأنه أومأ إلى قولهم : في الزوايا خبايا ".(١)

---

(١) المحبي ،نفحة الريحانة ،طبعة عيسى البابي الحلبي جـ١ ص١٢ تحقيق عبد الفتاح الحلو .

ويعتبر هذا الكتاب ذيلا لكتاب الشهاب الخفاجي ،لأن الأخير وقف بكتابه إلى حوالي منتصف القرن الحادى عشر بينما كتاب المحبي يمتد إلى أوائل القرن الثاني عشر ،لذا كان ضعف كتاب الخفاجي .

ثم أنه جمع بعد ذلك قدرا صالحا من رجال عصره ،ووضعه ذيلا لنفحة الريحانة ،ولكن المنية وافته قبل أن يقوم بتنسيقه ، فجمعه تلميذه محمد بن محمد السوء الاتي .(١)

أما علي بن أحمد المعروف بابن معصوم الحسني الحسيني صاحب "سلافة العصر" فقد قام بإخراج كتابه هذا بعد أن اطلع على "ريحانة الألبا" وتأثره بالشهاب الخفاجي واضح من قوله : " هذا وإني منذ ارتأيت بعين البصيرة في عالم الوجود ... لم أزل ثاقب البصيرة كالشهاب الثاقب ،في اكتساب المناقب ... كلفا باجتلاء عرائس المأثور ،من المنظوم والمنثور ... أقتني من نفائس الأدب كل تليد وطارف ... وأعتني بجميع أخبار سماسرته وأحاديث سماره ، لا سيما للمعاصرين ومن تقدم عصرهم قليلا ، من أزاهير النظم والنثر التي هب عليها نسيم القبول بليلا ، ثم لم أزل أقدم رجلا وأؤخر أخرى ... إلى أن أهدي إليّ من مكة المشرفة ... كتاب ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا تأليف العلامة النحرير ... شهاب الدين الخفاجي ... فرأيته قد قصد الغرض الذى كنت قصدته .... من جمع محاسن أهل العصر وأخبارهم ... فأجاد فيما ألف ... بيد أنه اقتطف ريحانة من روض وأهمل ذكر جماعة من أكابر الفضلاء ... ومجيدى الشعراء ... هم أجل قدرا من أن لا يعرفوا وعذره فيمن أدرك منهم ،ولم يجر ذكره لبعد دياره عن ديارهم ... فجدد لي

---

(١) المصدر السابق ،مقدمة المحقق ص٣

هذا الاستدراك ذلك العزم القديم فوجهت الهمة شطر ذلك القصد ... وكنت على أن لا أوارد الخفاجي في ريحانته ولا أزاحمه في ورد حانته ... فكررت في كتابي هذا اسماء جماعة سبقتني إلى ذكرهم من أهل هـــذه المائة ... والتزمت ألا أورد شيئا من الشعر الذى رقمه ، وإن أعدت اسم الشاعر الذى ترجمه (١).

بعد أن اتضح تأثر كل من ابن معصوم المتوفى سنة ١١١٩ هـ والمحبي المتوفى سنة ١١١١ هـ بالشهاب الخفاجي أود الان أن أضع مقارنة موجزة بين هذه الكتب في أسطر قليلة فأقول :

إنهما يختلفان عن الشهاب الخفاجي في تقسيم كتابيهما ،فالمحبي قسم كتــابه إلى ثمانية أبواب :

الأول : في محاسن شعراء دمشق ونواحيها .

الثاني : في نوادر أدباء حلب .

الثالث : في نوابغ بلغاء الروم .

الرابع : في ظرائف ظرفاء العراق والبحرين .

الخامس : في لطائف لطفاء اليمن .

السادس : في عجائب نبغاء الحجاز .

السابع : في غرائب نبهاء مصر .

الثامن : في تحائف أذكياء المغرب .

أما ابن معصوم فقد بنى كتابه على خمسة أقسام :

القسم الأول : في محاسن أهل الحرمين .

القسم الثاني : في محاسن أهل الشام ومصر ونواحيها .

القسم الثالث : في محاسن أهل اليمن .

القسم الرابع : في محاسن أهل العجم والبحرين والعراق .

القسم الخامس : في محاسن أهل المغرب .

---

(١) سلافة العصر ص ٨ .

انهما استدركا على الشهاب الخفاجي بذكر أدباء لم يذكرهم الشهاب في الريحانة، وقد يترجمان لأدباء ترجم لهم في الريحانة الا أنهما التزما بعدم تسجيل شيء من أشعارهم التي سجلها الشهاب .

ثم أنهما اهتما بذكر أخبار أسرتيهما ، ومن نبغ فيهما من العلماء والأدباء ، بينما لا أجد الشهاب يفعل مثل فعلهما إلا عندما ترجم لخاله - أبي بكر الشنواني - بينما والده عالم له مكانته بين علماء عصره لم أجده يفرده بترجمة مستقلة .

أنهما لم يذكرا شيئا من أخبارهما ومشائخهما ، وإن فعلا ذلك فلم نجدهما يصرحان بذلك مثلما فعل الشهاب في ثنايا كتابه حيث أفرد في آخر الجزء الثاني فصلا خاصا بأخباره ومؤلفاته ومشائخه، أنهما لم يتعرضا للمباحث اللغوية والتفسيرية ونحوهما إلا نادرا ، بينما نجد الشهاب - كما عرفنا سابقا - يكثر من ذلك ، والسبب يرجع في نظري إلى كون الشهاب عالماً من أكابر علماء عصره يتسم بالثقافة الموسوعية ، بينما ابن معصوم والمحبي في كتابيهما أقرب الى كونهما مؤرخي أدب منهما إلى علماء موسوعيين .

يتفقان مع الشهاب في اتخاذ المنهج الفني أساسا في أسلوب كتابيهما، إلى غير ذلك من مواضع تأثرا بالشهاب الخفاجي فيها ولا يعد انتقاصا من قيمة كتابيهما العلمية إذ التأثير والتأثر سمة عامة في المعارف الانسانية .

وبعـــد : فقد أدى هوءلاء الثلاثة دورا كبيرا ،وخدمـوا أدب عصرهم خدمـة جلى ، وأسهموا فيه إسهاما كبيرا ، لا يسع الواقف على هذا التراث إلا ان يكبر تلك الهمم ،وأن ينظر إليهم بعين ملوءها الاعجاب لما أسدوه لنا نحن المتأخرين من خدمة بإيضاح النشـاط الأدبي لعصرهم ، وقد وضع ايضا عبدالله (*) الشهير بابن قضيب البان ذيلا على كتاب الريحانة ولكنه لم يكمل (١) ٠

(*) هو عبدالله بن محمد حجازى عبد القادر بن محمد الحلبي الحنفي الشهير بابن قضيب البان ، فقيـه أديب شاعر كاتب من آثاره حل العقال ذيل على كتاب الريحانة لم يكمل ، نظم الأشباه والنظائر لابن نجيم ،ونفائح الازهار وكشف الأسرار وكلاهما في الفقه -
معجم الموءلفين جـ٦ ص ١١٥ ٠

(١) عمر رضا كحالة معجم الموءلفين طبعة داراحياء التراث العربي بيروت جـ٦ ص ١١٥ ٠

الفصل الثالث

- مجهوداته الإنشائية ،

رسائل - مقامات - فصول قصار .

الفصل الثالث

رســائل - مقامــات - فصول قصار

رســائله :

ذكر الشهاب في الريحانة أن من موءلفاته " رسائل ومكاتيب لم يجمعها "(١) . وكذلك ذكر كل من المحبي في خلاصة الأثر(٢) ، وابن معصوم في سلافة العصر(٣) ، وعبد القادر البغدادي في خزانة الأدب(٤) ، أن للشهاب رسائل ومكاتيب لم يجمعها في كتاب يلم شعثها . وقد فتشت عن هذه الرسائل ، فوجدت قسطا منها في الريحانة ، وقسما آخر ذكره المحبي في نفحة الريحانة ؛ ومن الممكن جدا أن تعطينا تصورا واضحا عن رسائل الشهاب ، ومن استقرائي لها وجدت أنها لا تخرج عن التقسيم التالي :

رسائل إخوانية :

وهي عبارة عن الكتابة لبعض أصدقائه : حيث كانت صلة الشهاب الأدبية بكثير من أهل الأدب دافعا وراء كثير من الرسائل الداخلة تحت هذا النوع .

ورسائل الشهاب الإخوانية : قد تكون شكوى من الزمان ، وماجرى له فيه من متاعب وآلام يبثها إلى صديقه كي يشاركه أتراحه ويعلم ماهو

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٣ .

(٣) سلافة العصر ص ٤٢٢ .

(٤) خزانة الأدب جـ٨ ص ٥٢٩ .

فيه من ضيق الحال من سوء جور أهل الزمان ، وقد تكون رسائله في الشوق للقيا الأصحاب والأحباب ممن جمعتهم الأيام في أيام طلب العلم ، أو أثناء رحلات الشهاب في الآفاق ونحو ذلك .

وكل تلك النماذج من رسائله تظهر فيها المحسنات اللفظية بكثرة ، ولكن الهدف المحدد للرسالة يكون واضحا لا غموض فيه ، ولا إبهام مثال ذلك : رسالة كتبها الشهاب إلى صديق له يسمى " عبد الوهاب المحلي الحنفي (*) وذلك ردا على رسالة كتبها له هذا الصديق يشكو فيها أمرا نزل به ، فرد عليه الشهاب بالرسالة التالية : مواسيا له ، ومذكرا إياه بطبيعة الحياة التي خلق الله الخلق عليها ، يوم لك ويوم عليك قائلا :

" هو لاي يشتكي من الدهر وهو أبو العبر ، وفي المثل من سابق الدهر عثر ، فانظر عقب الزمان عليك ، وكل إلى الله أمر من أساء إليك ، فإنّ الدهر دول ، ولله جنود منها العسل ، وكم أغنت الوحوش ، عن صدمات الجيوش ، وما سمّيت الحال بالحال ، إلا لسرعة التحول والانتقال ، فأيامه يوم بيوم وحربه سجال ، فما عبس مساء بوجه أفقه إلا بعده صباح يضحك عليه فم شرقه ، فأوقد مصباح فكرك إنْ أظلم الدجى ، واصبر فإنّ الصبر يفوح منه أرج الرجا ، وإنْ جفت قريش فلله

(*) هو عبد الوهاب المحلي الحنفي كان من أصدقاء الشهاب الخفاجي أيام طلب العلم ، كان شاعرا روى الشهاب بعضا من شعره ويقول عنه " وفصاحته تفعل ما لا يفعله السكران ، سكر الشباب ، وسكر الشراب وتخلُب بما لا يُؤثِّره السحران : سحر النفثات ، وسحر الكلمات العذاب " الريحانة جـ٢ ص ٥١ .

أنصار ، وإنْ نبت بك دار فلله ديار ، وإذا كان انتظار الفرج عبادة ،
فأوقات الضيق كلها سعادة ، وقرب الأشرار ، أعظم مصائب الأحرار ،
ولله در القائل :

مَرضتُ من الحُمْقى فَلَمْ أُدْرِك المُنى
تَمَنيْتَ أنْ أُشفى برؤيةِ عاقل

فإنْ لم تجد الشفاء ، فالزم الاحتماء كما قيل :

أرى مرضَ الحُمْقى يُعْدْواهُ مُهلكا ... فَمَنْ لي بذي لبٍّ به يشتفي باسِي
يَئستُ ولمْ أنظُرْ حكيماً فلا شِفَا ... سوى حِمْيتي بالبُعْدِ عن سائرِ النَّاس
جَزى اللّهُ عني اليأسَ خَيرَجزائِهِ ... فانّي لَمْ أظْفَرْ بأعْقَلَ من ياسِي

وقد قلت في الفصول القصار : في الترك غِنىً بلا مِنَن ، والحِمْية دواء بلا ثمن . والسلام" (١)

فهذه الرسالة واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد ، أنبأت عن معناها من أول نظرة لها ، وهذه سمة الشهاب في كل رسائله التي اطلعت عليها ، مما يدل على القيمة الأدبية لهذه الرسائل ، وما هذه الأنموذج من الرسائل الإخوانية تعطينا تصورا عاما لهذا النوع من رسائله .

*

رسالة في نقد المجتمع ومن الممكن أن نسميها تجوزا "رسالة سياسية" ، على أنني لم أعثر إلا على هذه الرسالة ، ولكنني على يقين أن للشهاب رسائل أخرى تدور حول هذا المعنى ، بدليل أن واقعه يصدق ذلك ، حيث إن كتبه مليئة بنقد مجتمعه فهل يعقل أنه - وهو

---

(١) ريحانة الألبا ج ٢ ص ١٩-٢٠ .

بهذه النفسية المتحفزة ،التي تلقت ألوانا من صدود هذا المجتمع عنها وعدم الاكتراث بصاحبها وعلمه ومكانته - لم يكتب إلا هذه الرسالة حول هذا الموضوع الذى شغله وأرقه ، واستولى على نفسه ، إن المنطق يكذب ذلك لما عرفناه من تلك الأسباب .

وهذه الرسالة التي بين يدي رسالة طويلة سأذكر مقتطفات منها للدلالة فقط على شدة هجوم الشهاب في هذه الرسالة على مجتمعه ،وأسلوبها واضح لا التواء فيه ولا تعقيد ، مليئة بالمحسنات البديعية ،التي هي سجية من سجايا الشهاب في جل كتاباته بدأها بثلاثة أبيات تعطينا تصوره من أول وهلة حيث قال :

رأيتُ الدّهرَ يَرْفعُ كلَّ وَغْدٍ ... ويَخْفِضُ كلَّ ذي شِيَمٍ شريفه
كمثلِ البحرِ يُغْرِقُ فيه حيٌّ ... ولا يَنْفكُّ تطفو فيه جِيفة
أو الميزانِ يَخْفضُ كلَّ وافرٍ ... ويَرْفعُ كلَّ ذي زِنةٍ خفيفة (١)

ثم بعد حمد الله والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم يمهد لموضوعه بكلام طويل منه قوله " وقد قيل إن الدهر مُعلم إذا لم يتعلم منه عاقب ، وإذا تعلم أدب وهذب ،..... وكم أدبني وقرع لي العصا ،ففشني رائد الأمل وعصى .... حتى لزمت حمية الحمية ، ولازمت الأزم -الحمية- عن ذوق نعمها الشهية " ثم بعد ذلك

---

(١) انظر ص ٢٢

التمهيد الطويل يبدأ في صلب الموضوع ، منتقصا ذلك المولى الذى سبب عزله وحرمه منصب القضاء وما يتبعه من أبّهة وشرف حيث قال :

" حتى اتصلت بمولىً امتنّ بالحرمان ،وقد كان الناس يُمنّون بروائع الإحسان ،فعاقبني بالبعد عن سُدّته ،ولم يدر أنّ أعظم المنن عدم رؤيته "... فكأني لم أسمع بقول القائل (١) :

إذا ما الليالي جاورتك بناقص وقدرك مرفوعٌ فمنه تحوّل
ألم ترَ ما لاقاه في جنب جاره كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزمّل (٢)

ثم بعد ذلك يذكر السبب الذى جعله يصاحب ذلك المولى ويلجأ إليه هو " ما عهدناه من الشرف الباذخ في صميم الموالي» ،ثم يدبّج ألوانا من المدح على من عهد من الموالي ،ويعود إلى صاحبه نازلا عليه بكل الوان الشتائم ،وإن كنت ألاحظ أنه يلمح في كلامه ولا يصرح حيث قال :

" وقد سُمع من النحاة الأوائل يقولون : إذا اجتمع في لفظ عاقل وغير عاقل ، غُلّب العاقل فانتقضت الأحكام ، حتى في الكلام ، فغُلّب غير العقلاء من الجهلة ،وارتفع العدل من السلسلة ،وعلا قطاعُ الطريق ،وملك السيدَ الرقيقُ ،وصار الرعاةُ ذئابا ،والغنمُ والشياه كلابا " ثم يستطرد ليدلل على صحة قوله من أن الجهال لهم المكانة والرياسة ، وأن أهل العلم مبعدون عنها . حيث قال : " وقد كان

---

(١) لم أعثر على القائل .
(٢) الشطر الثاني من البيت الثاني من بيت امرئ القيس :

كأنّ أبانا في أفانين ودقه كبيرُ أناس في بجاد مزمل

بعض الحكماء قال للسلطان: لو جعلت حكماءك وزراءك، ووزراءك حكماءك أصبت، لأن حكماءك يُحكمون القتل، ووزراءك لا يقدرون على ذلك، ويرأي هذا الحكيم عمل الناس الآن، فجُعِل المنجمون والحكماء حكام شريعة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وطرد رئيسهم العلماء ونفى .

انفوا المؤذّنَ من بلادكـمُ إنْ كان يُنفى كلُّ من صدقا(*)

ثم يضرب أمثلة للدلالة على سوء أوضاع من تصدر للفتيا في عصره فيقول:

« فكان الشاهد يسأل عن الصلاة والفنون والواجبات، فصار يسأل عن القضايا والمختلطات، ... وكان الامتحان من كتب التفسير وشروح " الهداية "(١)، فصار بالزايرجة السبتية(٢) »

(*) البيت لابن عنين كما ذكر الشهاب في ج١ ص ١٠ وهو محمد بن نصر الله بن مكارم بن عنين من أجود شعراء عصره . كان هجاء مقذعا لم يسلم أحد من هجائه . في دمشق تولى الوزارة في آخر عهد الملك المعظم ومدة الملك الناصر . له ديوان شعر، والتاريخ العزيزي . مات سنة ٦٣٠هـ الأعلام ج٧ص ١٢٥ -

(١) منظومة الحزري : شرحها عبد الدائم بن علي الحديدي الأزهري " شرح الهداية الى علم الدراية " وشرحها السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن وسماه " العناية في شرح الهداية ، ايضاح المكنون ج٤ ص ٧١٩ ، وقد يكون الشهاب قصد به التعميم بمعنى كل كتاب فقهي اسمه " الهداية " أيا كان - فهنالك الهداية في فروع الحنابلة ، والهداية في فروع الحنفية ، نفس المصدر ص ٧٢١ .

(٢) هو من القوانين الصناعية كاستخراج الغيوب لأبي العباس احمد السبتي ، أحد المتصوفة بالمغرب ، كشف الظنون ج٢ ص ٩٤٨ .

ونقاية [1] الحكيم الكندى للغواية ... ".

ثم بعد استطراد طويل قال مسليا عن نفسه : " فدع الجدال ، وكثرة القيل والقال ، فإن حياة الفاجر فضيحة الدهر ،وطو القُنا* غير ضار للنهر ،ولكل حزن سهل ولكل أحمد أبو جهل ،وما كنت أظن الشمس تخفى ،وأن مثلي يُنفى ،ويهان و يخفى .... فبُعدا وسحقا لدار لا أجد فيها للمعالي طُرقا ،ولا يلمع في جوّها للفضل بَرْقا ... .

وليس بعارٍ أَنْ أُهانَ وإنما
على الدهر عارٍ والعُلا والمناصب

ولا خيرَ في دارٍ مُهانٍ كريمُها
ولم يَرُمْوْناً منخليلٍ وصاحب

بها الأَسْدُ الضِّرْغامُ في غابِه اخْتَشَى
كِلا باً قد اعْتادَتْ بصَيْدِ الثعالب

---

(١) النقاية لعبيد الله بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٥ هـ المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٧١ وكذلك الريحانة جـ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٣١- ٣٣٩ .

أما النوع الثالث من رسائل الشهاب فهو الرسائل العلمية:
والمقصود بها الرسائل التي يكتبها جوابا على أسئلة ترد اليه ويطلب الاجابة عنها ، أو ما يكتبه تقريظا لكتاب عالم من العلماء .

وان كانت المادةالعلمية التي بين أيدينا من هذا النوع من الرسائل ،لا يوجد منها الا مثال أو مثالان ، الا أنها تعطينا تصورا عاما عن هذا النوع من رسائل الشهاب حيث يظن أن له من هذا اللون مثيلات .

فمثال اللون الأول - أى التي كتبها جوابا على سوءال ورد اليه :
ما أورده المحبي في نفحة الريحانة وخلاصة الأثر مفصلا .
من أن الأديب يوسف بن زكريا المغربي (*) المتوفي سنة تسع عشرة بعد الألف ،كتب الى الشهاب ،يسأله عن مدى جودة استعارة الثعالبي في قوله :

قَلْبِيَ وجْداً مُشْتَعِل ... وبالهُموم مُشْتَغِل
وقدْ كَسَتْنِي في الهوى ... ملابِسَ الصَّبِّ الغَزِل
إنْسانَةٌ فتّانةٌ ... بَدْرُ الدُّجى منها خَجِل
إذا زَنَتْ عَيْني بها ... فبالدموع تَغْتَسِل

فكتب اليه مجيبا على ذلك بقوله :
"أيها الأخ قرة العين ،وبدر هالة المجلس الذى هو لها زين ، إنه من المعاني القبيحة المورثة للفضيحة

(*) ستأتي ترجمته .

(*)
وقد سبق إليه ابن هندو في قوله :

يقولونَ لي ما بالُ عينِك مُذْ رأَتْ   محاسنَ هذا الظبي أدمعُها هُطْلُ
فقلتُ زَنَتْ عيني بطَلْعةِ وجهِهِ   فكان لها من صَوبِ أدْمُعِها غُسْلُ

وهو معنى قبيح واستعارة بشعة ،ألا يرى ما قيل في الذم:

أيُّها المُنْكِحُ بالعَيْنِ   منْ جوارى الأصْدِقاء

وقول صُرّدُرّة (**) في قصيدته المشهورة ،وإن كان معنىً آخر :

يا عَيْنُ مثلُ قَذاك رؤيةُ مَعْشرٍ   عارٌ على دنياهم والدينِ
نَجَسُ العيون فمذْ رأَتْهم مُقلتي   طَهَّرْتُها فنزحْتُ ماءَ عيوني

وكيف يتأتّى هؤلاء ما قالوه ، بعد قول يزيد بن معاوية في شعره المشهور:

وكيف تَرَى ليلى بعينٍ ترى بها   سواها وما طَهَّرْتَها بالمَدامعِ
أُجِلُّكِ يا لَيْلى عن العينِ إنَّما   أراكِ بقلبٍ خاشعٍ لكِ خاضعِ

(*) هو علي بن الحسين بن محمد بن هند وأبو الفرج ، من المتميزين في علوم الحكمة والأدب وله شعر ، نشأ بنيسابور من كتّاب الانشاء في ديوان عضد الدولة له كتب منها "الكلم الروحانية من الحكم اليونانية" ،والرسالة المشرفية ، ومفتاح الطب ،والمقالة المشوقة ،ت ٤٢٠ هـ ،الأعلام ، جـ ٤ ص ٢٧٨ .

(**) هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي ،أبو منصور شاعر مجيد من الكتاب كان يقال لأبيه "صر بعر" لبخله ،وانتقل اللقب إلى الابن حتى قال له نظام الملك "انت صردر لا صربعر" فلزمته . قال الذهبي : لم يكن في المتأخرين أرق طبعا منه . له ديوان شعر مات سنة ٤٦٥هـ . الأعلام جـ٤ ص ٢٧٢ .

ومنه أخذ العفيف التلمساني (*) قوله :

قالوا أتبكي من بقلبك داره جهل العواذل داره بجميعي

لم أبكه لكن لرؤية وجهه طهرت أجفاني بفيض دموعي

وقال ابن رشيق في كتابه "البدائع": قال أبو علي الفارسي : ليس العجب من توارد الثعالبي مع ابن هندو ، وإنما العجب من قوله : لم أقدّر أني سبقت إليه وأبو الطيب يقول في الحمى :

إذا ما فارقتني غسّلتني كأنّا عاكفان على حرام

وهل هذا إلا ذاك بعينه ،وأبو الطيب أحسن لفظا ،وأصح معنى لذكره ذكراً أو أنثى يقع الزنى بينهما ، خلاف ما ذكره ... والسلام (1).

ولقد أجاب فأجاد في هذه الرسالة ولم يخيب ظن صاحبه ، حينما أرسل له هذه الرسالة فالجواب في غاية الدقة يدل دلالة قاطعة على سعة مفهوم الشهاب ،واطلاعه على ديوان العرب ، خالية هذه الرسالة من التعقيد والتجريح إلا ما استدعاه الجواب كقوله : "وهي استعارة بشعة" فاللفظ فيه نوع من التجريح دعاه إلى ذلك غلو الثعالبي في قوله : "ولم أقدر أني سبقت اليه".

(*) هو سليمان بن علي بن عبدالله بن علي الكومي التلمساني سكن دمشق وكان صوفيا على طريقة ابن العربي له تآليف كثيرة وشعره مجموع في ديوان مخطوط ، ابنه الشاب الظريف وهو أشعر من أبيه ولد سنة ٦١٠هـ ومات سنة ٦٩٠هـ - الأعلام جـ٣ ص ١٣٠ .

(1) نفحة الريحانة جـ٤ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ ،وخلاصة الأثر جـ٤ ص ٥٠٢ ولم يوردها في الأخير كاملة .

أما اللون الثاني من رسائله العلمية : فهو ما كان يكتبه تقريظا لكتاب عالم من العلماء ، وهذا النوع لم أعثر منه أيضا إلا على رسالة واحدة ، ولكنها تعطينا دلالة خاصة على سعة علم الشهاب ومكانته بين معاصريه .

قال بعد مقدمة توازى الغرض من التقريظ :

" هذا وإن أخي شقيق الروح وقرة العين ، وصفوة الحياة ومن كفاية محبته علي فرض عين ، لما أتحفني في قدومي للقاهرة بكتابه " قاموس الأطباء " وجدته الدرة الفاخرة ، والروضة التي تفتحت فيها عيون أنواره الزاهية الزاهرة ،ظنا منه أني شعيب مدينته وما أنا الا سلمان (*) بيته ، بل أشعب (**) موائد كرمه ومنته ، فإذا هو برد محبر ،وروض وعقد كله جوهر ، وكتاب جميعه مفردات ،ولغة لو رأها الجوهرى (***) قال : هيهات العقيق هيهات أو الخليل (****) بعينه ، فداها بعينه ،أو جار الله (*****) لقال هذا هو الفائق ،أو ابن البيطار (******) ودلو طابقه مطابقة النعل بالنعل لما فيه من الدقائق ،أو صاحب القاموس (*******) لقال :

(*) سلمان : هو سلمان الفارسي رضي الله عنه .

(**) أشعب الطامع مولى عبدالله بن الزبير ظريف من أهل المدينة .

(***) الجوهرى : اسماعيل بن حماد صاحب الصحاح .

(****) الخليل بن احمد صاحب العين .

(*****) جار الله الزمخشرى صاحب الفائق في غريب الحديث ، والكشاف .

(******) ابن البيطار : عبدالله بن أحمد المالقي إمام النباتيين وعلماء الأعشاب في عصره صاحب كتاب الأدوية المفردة توفي بدمشق سنة ٦٤٦هـ .

(*******) هو محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى .

: هذا المجد الذى ارتضع دَرّ العربية ما بين تهامة و نجد ، فلله در مصنفه فقد أرانا في الرجال بقا يا ،وفي الزوايا خبايا ،وأنار فكره ظلمة الجهل وقد وَقَدْ، وروى ظمآن الفكر فيما ورد ورد ، وحقق ما قيل من دقّ الباب ولج ،ومن جد وجد ،وقد قلت فيه ارتجالا :

دهرٌ يجودُ بمثلِهِ أَنعمْ بهِ دهرٌ وفي

روّى بكأسِ علومِهِ وختامُهُ مِسكٌ وفي (١)

وهذه الرسالة مثل أخواتها خالية من التعقيد ،وإن كانت تحمل في طياتها رموزاً فإنها رموز واضحة ،وكان للمحسنات البديعية الدور الأكبر في ذلك ، حيث ظهر ذلك في كل ما رمز به عن اسماء الكتب ومؤلفيها .

و في إطرائه نوع من المبالغة ،إلا أننا قد نجوزها نظرا للندرة هذا الكتاب الذى قرظه ،وعدم وجود مثيل له ، فيماعلمت ، إلا ما طلع حديثا من محاولات لتعريب بعض العلوم الطبيعية وجمع قاموس لغوى لها .

---

(١) نفحة الريحانة جـ٤ ص ٤٠٢-٤٠٣ ،وخلاصة الاثر جـ٤ ص ٣٣٣-٣٣٤ والرسالة تقريظ على كتاب مجد الدين القوصوني الطبيب ، والشطر الأخير من البيت الثاني مقتبس من قوله تعالى : "وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " المطففين ،الاية : ٢٦ .

فن المقامـــة

معنى المقامة في اللغة :

استعملت هذه الكلمة بادئ ذي بدء بمعنى : مجلس القبيلة أو ناديها كقول زهير :

وفيهم مَقَاماتٌ حِسانٌ وجوهُهـا ... وأَنْدِيةٌ يَنْتابُها القولُ والفعلُ

وتارة استعملت بمعنى : الجماعة التي يضمها هذا المجلس أو النادى كقول لبيد :

ومقامةٍ غُلْبُ الرِّقاب كأنَّهـم ... جِنٌّ لدى بابِ الحَصيرِ قيامُ

ثم استعملت في العصر الإسلامي بمعنى المجلس ،يقوم فيه شخص أمام خليفة أو غيره ليتحدث ، ثم نتقدم قليلا لنجدها تعني المحاضرة ، وبذلك استقرت لتعنى حديث الشخص على أي هيئة كان ، وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان الهمذاني .(١)

المعنى الإصطلاحي :

"هي : حديث يصاغ في شكل قصصي يتأنق في ألفاظه ، وأساليبه يتخذ لها بطلا وراويا أيا كان الهدف من ذلك الحديث".(٢)

عناصرها :

إن لفن المقامة أضلاعا معينة لم تحد عنها منذ نشأتها ،ولا يمكن

---

(١) يوسف نور عوض ،فن المقامات بين المشرق والمغرب ،طبعة دار القلم ١٩٧٩، بيروت ص ٥ ، وشوقي ضيف ،المقامة ، طبعة دار المعارف ط ٤ ص ٧ .

(٢) نفس المصدر الثاني ص ٨ .

أن تستغنى عن أي جزء من الأجزاء ،وأهم تلك الأضلاع :

(١) : الراوية والبطل معا ،فالراوى عند بديع الزمـــان "عيسى بن هشام" وعند الحريرى "الحارث بن همام" ، ولعل هـذا التقليد الذى اتبعه المقاميون على مر العصور جاءهم عن طريق السند عند أهل الحديث ، أما البطل فيمتاز بسرعة البديهة وسعة العلم.

(٢) : ملازمة المقامة للسجع والمحسنات البديعية ،وقد التزم المقاميون بهذه الطريقة ،وما ذلك إلا نتيجة للعصر الذى ظهرت فيـــه المقامات ، إذ هو عصر زينة وتأنق في الألفاظ ،وأصبحت المقامة لا تعرف بهذا الإسم إلا إذا التزمت تلك المسحنات ،إلا ما عرف عن مقامات المويلحي في العصر الحديث .

(٣) : العنصر الثاني مرتبط بالعنصر الثالث : أى الذى يقوم بمعالجة مشكلات المجتمع أيا كانت اقتصادية أو لغوية أو أدبية . . . الخ

على أن طغيان العنصر الثاني - المسحنات اللفظية والسجع - على لغة المقامة أضاع الكثير من جهد المؤلف ،ولكن بالرغم من ذلك فقد أدى كثير من المقاميين دورهم تجاه مشكلات مجتمعهم.

(٤) : أما العنصر الرابع فهو الموضوع : وهو يختلف على حسب مزاج وهوى صاحب المقامة أو بالأحرى الموقف الداعي لانشاء المقامـــة فكثير من أصحاب المقامات اعتمدوا على موضوع الكدية ،ولكن بعضهـم قد اتخذ موضوعات عدة كما سنعرف عند شهاب الدين الخفاجي (١) .

----

(١) محمد رشدى حسن : أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة طبعة دار نهضة مصر ص ١٨-٢٠ .

لمحة تاريخية عن المقامات إلى عصر الشهاب

إذا تتبعنا تاريخ المقامات وجدنا أن أول من عملها كفن قائم بذاته هو : بديع الزمان الهمذاني ،وأصبحت مقاماته نيفا و خمسين مقامة ، ويجزم بعض الباحثين أنه إنما أنشأ مقاماته معارضة ،لأحاديث ابن دريد ، وأن من يقرأ الأمالي ويتعقب مقامات بديع الزمان يجد ذلك واضحا ، فالمقامة الأسدية عنده تعد الشكل الأخير لصفة الأسد في " ذيل الأمالي " لابن دريد ،وأيضا فإن كثيرا من الأدعية والحكم والأمثال والوصايا الموجودة في المقامات تتصل مباشرة بما في الأمالي ،وعلى كل حال فقد نضج هذا الفن على يد بديع الزمان .

ويأتي القرن الخامس لنجد مقامات للغزالي وابن ناقيا ،ويذكر بعض الباحثين أن مقامات الغزالي تعبر عن مواقف صوفية ،وأما ابن ناقيا فنسج على منوال بديع الزمان ولكنه لم يحفل بالمضمون احتفال الهمذاني ،وقصر في الناحية اللفظية عنه تقصيرا كبيرا .

ثم يأتي القرن السادس لنجد أبا القاسم بن علي الحريري ،وقد نهج في مقاماته على منوال الهمذاني ،فموضوع مقاماته هو الكدية في الغالب ، وشخصيتا البطل والراوي واضحتان ، لا يختلفان إلا في الأسماء ،ولكن هذا لا يعد تقصيرا من الحريري ،لأننا نجد له ابداعا وتفوقا في الصياغة الأسلوبية والأحكام حتى غدت مقاماته قمة تحتذى ، وأقبل عليها الدارسون يشرحونها وينسجون على منوالها ويوقرونها ، ويرون فيها آية الأدب الرفيع . ولعل أول من حاول تقليد الحريري أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي فقد اطلع على مقامات الحريري وأنشأ على منوالها خمسين مقامة ،ولكن هذه المقامات ضاعت ضمن ما

ضاع من تراثنا العربي ،ونجد في نفس الوقت الزمخشري يؤلف مقاماته الوعظية، وتختلف عن مقامات السابقين في كونها بلا راو ولا بطل .

ثم نتقدم قليلا في القرن السادس لنلقي "الحسن بن صافي المصري " حيث صنف مجموعة من المقامات على غرار مقامات الحريري ، وفي نهاية القرن السادس يؤلف ابن الجوزي خمسين مقامة في موضوعات أدبية شتى ينحو بها منحى وعظيا ،ونجد أيضا في نفس الزمان "أبا العلاء احمد بن أبي بكر بن محمد الرازي " يؤلف ثلاثين مقامة ، ثم تأتي القرون التالية فنجد الاتساع في موضوعات المقامات ،اكثر مما عرف سابقا ، حيث تدخل ميادين أخرى كالحديث والفقه والنحو كمقامات ابن الصقيل الجزري وعدتها خمسون مقامة وهكذا يكثر المقاميون في القرنين السابع والثامن حتى يأتي القرن التاسع فنجد السيوطي يؤلف أشهر مقامات صنفت في العصور المتأخرة ،ولكنها مثل مقامات الزمخشري من حيث عدم اعتمادها على راو وبطل ،ولكن مقامات السيوطي متعددة الأغراض ، ثم يأتي القرن الحادي عشر حيث نجد الشهاب الخفاجي يؤلف مقاماته التي نحن بصدد الحديث عنها .(١)

---

(١) فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٤١ - ١٤٤ ، والمقامة ص ٩ ومابعدها .

مقامات الشهاب الخفاجي

إن المقامات التي وجدتها للشهاب الخفاجي موجودة في كتاب "ريحانة الألبا" ولا شك أن له مقامات أخرى غير ما ذكر في هذا الكتاب بدليل ،أن المحبى مثلا ذكر أن له مقامات أخرى حين قال : "وله ... مقامات ذكر بعضها في ريحانته (١) " ، ثم أن عبد الفتاح الحلو ذكر أن "بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي أشار الى أن للشهاب مقامة مخطوطة توجد منها نسخةفي "برلين "برقم ٥٧٦ " (٢) ولكنني لم أستطع الحصول عليها ،ولم أعثر فيما بين يدى من مراجع على زيادة على ما ذكر في الريحانة من مقامات.

وبناء على ذلك فان دراستي ستكون منصبة على المقامات الموجودة ، وهي ست مقامات :

الأولى في رجل يذمه ، والثانية تسمى المقامة الرومية ،والثالثة المغربية ، والرابعة المقامة الساسانية ، والخامسة مقامة عارض بها رجلا يسمى رشيد الدين (*) الوطواط ، والسادسة المقامة المغربية .

---

(١) . خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٢ .

(٢) مقدمة محقق الريحانة ص ٢٧ .

(*) هو محمد بن محمد بن عبد الجليل بن عبد الملك العمرى البلخي رشيد الدين أبو بكر الوطواط ،كان ينظم الشعر بالعربية والفارسية له كتب جمع فيهما من كلام الخلفاء الأربعة ،و مجموعة رسائل في جزءين ،وديوان شعر ،وله بالفارسية حدائق السحر في دقائق الشعر ، توفي بخوارزم سنة ٥٨٣ . الأعلام جـ٧ ص ٢٥ .

المقامة الأولى :

سبب نشأتها :

من المعلوم لدينا أن الشهاب الخفاجي ناقم نقمة شديدة على بعض معاصريه ،وعلى بعض علماء الدولة العثمانية على الأخص ،وتعتبر هذه المقامة من أول القذائف التي أطلقها على بعض معاصريه ، وقد ساعده على ذلك ما رآه من تفشي الظلم بين أمراء الدولة ،وحكامها وعلمائها، وذا هو يفصح لنا بشكل واضح عن السبب في انشاء هذه المقامة وذلك حين قال : " فمما حدث بها - اى بالروم - لما سجد الزمان فارتفع كلُّ أسفل ،واتبعت نتيجة هذه الدولة الأخص الأرذل ، أن فوّضت صدارة العلماء ،ووجهت قيادة الفضلاء ، لشخص ملقب بأسود الخصى ، يفنى دون عدد معائبه الرمل والحصى ، فجرت بيني وبينه مخاصمة ،أدت إلى المكابرة والمحاكمة فقلت في وصفه مقامة (١) . . . "

هذه دوافع الشهاب في صنع هذه المقامة ،وذا المحبي يذكر أن الشهاب " وصل إلى الروم وكان إذ ذاك مفتيها المولى يحيى بن زكريا فأعرض عنه لأجل أمور انتقدت عليه أيام قضائه في سلانيك ،ومصر من الجرأة و بعض الطمع فصنع مقامته التي ذكرها في الريحانة ، وتعرض فيها للمولى المذكور . . . " (٢)

إذاً فالسبب في إنشاء هذه المقامة على رأى المحبي : هو إعراض المولى يحيى بن زكريا عن الشهاب و نفيه إلى مصر ، و نحن إذا نظرنا

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .

إلى المقامة المذكورة وجدناها مليئة بأنواع الشتائم/وهي تختلف عن بقية مقاماته اذ لا يوجد بها راوٍ ولا بطل ،ولا يظهر فيها من صفات المقامة إلا كثرة المحسنات اللفظية ،والموضوع الذى ألفت من أجلـــه ، وكأنه إنما أسماها مقامة ليضفي عليها شيئا من الأهمية ، وقد خصصهـا كما قلنا في ذم هذا الرجل ،والإنتقاص من مكانته ،ولا نخرج منهـــا بغير ما ذكر ، وهذه أسطر منها توضح مدى شدة هجوم الشهـــاب على ذلك المولى " فإنه ما صُبّ من المصائب أن حمل على كاهل الدهر عَيْبةَ المعائب ، نسخة القبائح مسوّدة الفحش والفضائح ، جريــــدة العيوب ، تِمْثال السيئات والذنوب ،إكسير الفساد ،وشماتة الأعداء والحساد ، أنموذج الهموم ،أظلم من ليل المرض والغموم ، قحط الرجال ،قائـــد جيش الدجال ، قبيح الفعل والقول ، إذا اعتذر عن اساءته غســل الغائط بالبول ".(١) ثم يستطرد في الكلام على هذا الرجل وينتقص ما أسعفه به قاموسه اللغوى من ألوان الذم فيقول : " ريقه الزّقوم وأنفاسه السَّموم ،فهو لعين الدهر قذى ،لا ينطق بغير فحش وأذى ، الجهـــل رداؤه ،والجذام حليته وبهاؤه ... أقبح من النّقم ، وأســـوأ من زوال النعم ،أزنى من ظُلْمَه ، وأمد من غُـمَّـة على غُمَّة ...لا خيـر فيه إلا أنه لا يأثم له مغتاب ، بل يحمد ويجازى بجزيل الثواب "(٢) وكل هذه المقامة حول هذا المعنى .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٨٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٨٦-٢٨٧ .

إيضاح بعض معاني كلمات هذه المقامة :

عَيْبة المعائب : العيبة "العيب ،ووعاء من خوص ونحوه ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين ،وعاء من أدم و نحوه يكون فيه المتاع"[١] والمعنى أن ذلك الرجل هو وعاء المعائب كلهافكأنهاجمعت فيه .

إكسير الفساد : الإكسير " مادة مركبة كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ،وشراب في زعمهم يطيل الحياة"[٢] والمعنى هنا ،أنه مادة الفساد .

أنموذج الهموم : الأنموذج : "المثال الذى يعمل عليه الشيء ، معرّب عن الفارسية"[٣] .

لعين الدهر قذى : القذى جمع القذاة ما يتكون في العين من رَمَص وغَمَص ويقال : هو يُغْضي على القذى : إذا سكت على الذل والضيم ولم يشك "[٤] والمراد والله أعلم أنه ساكت على الذل والضيم لذا استحق لعنة الدهر .

أزنى من ظُلْمه : ظلمة : فاجرة هذليةَ أسنّت و فنيت فاشترت تيساً فكانت تقول أرتياح لنبيه : فضرب بها المثل فقيل أقود من ظلمه[٥] .

أمرّ من غُمّةَ على غمه : الغمة : الغم الكرب أو الحزن يحصل للقلب .."[٦] .

---

(١) المعجم الوسيط جـ٢ ص ٦٤٥ .
(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٢٢ .
(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٠ .
(٤) نفس المصدر جـ٢ ص ٧٢٩ .
(٥) أحمد محمد الميداني مجمع الأمثال طبعة عيسى البابي الحلبي ، بدون تاريخ جـ٢ ص ٥٢٠ ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،وهامش الريحانة جـ٢ ص ٢٨٧ .
(٦) المعجم الوسيط جـ٢ ص ٦٧٠ .

المقامة الثانية : المقامة الرومية نسبة إلى بلاد الروم :

راويها : النعمان بن ماء السماء ، أما موضوعها فينبئنا عنه الشهاب نفسه حين قال : "تمت المقامة المسماة بعتاب الزمان في سبب حجب بني الأعيان ، حجب حرمان و نقصان ،واستفتاء الكرام في مشكل الليالي والأيام . . . الخ "

وهذه المقامة هي رحلة انتقادية في مدينة القسطنطينية عاصمة الخلافة يبدأها المؤلف بالحديث عن رحلته من مصر وسببها فيقول : " . . . أتلفع(٢) برود الأسحار والأصائل ، وأشمِّر عن ساق الجد لخوض بحر دُجىً ما له غير الفجر ساحل ، علَّ أن يفتح عينه عما تثني عليه الحقائب(٣) ، و يبتسم فم الأفق عن صبح و عدٍ صادق أو كاذب ".

فهو يفصح عن مقصده من هذه الرحلة علَّه يظفر بمنصب ما يكسب منه عيشا رغيدا، لأنه لم يظفر من مصر بشيء من ذلك، إذ يقول : " والكرم أفل نجمه ،وركدتْ ريحه و قلَّ عزمه ،وتضعضع ركنه ، فما ثمَّ أنيس ،ولا اليعافير ولا العيس"(٤) .

ولكنه لما ألقى عصا التسيار في عاصمة الخلافة ، أخذ يصورها لنا بقوله : " فإذا هي جنة ملئت بالحور والولدان ،وحُفَّت بالشهوات ، إذ حفت بالمكاره الجنان ، من كل شادن(٥) سرق التفاتة الغزال ،

وتسلّلت لترى لطفه الصبا والشمال " .

ثم يذكر بعد ذلك ما كانت عليه هذه المدينة من العلم والقوة ثم ما آلت إليه من الجهل والظلام فكتّابها كانوا "ملائكة من الكرام الكاتبين غاليتهم (٦) المداد ، وعبير نشرهم يفوح على جمر الذّكاء (٧) الوقاد ،إذا راشوا (٨) بالبنان سهام البراعة أصابت قراطيس البلاغة والبراعة ،وإذا افتخرت الرّماح السّمهرية ،انتسبت إلى أقلامهم السّمر فكانت خطّية " ، ثم يسترسل في الحديث ويغمز ويلمز مرة ،ويصرح ويوضح تارة عما في نفسه تجاه هذه المدينة وأهلها ،ومعاهدها وينعى ما آلت إليه من جهل وظلام كما يصورها هو فيقول :" ثم عجتُ على معاهد ذلك الحمى ، فإذا دساكرها (٩) قصور هي سلّم السما ،وقباب قناديلها الزُّهر (١٠) الدراري ، فقلت : لعل هنا بدوراً يُهتدى بها في ظُلَم الخطوب الساري . . . . والدهر قد أرخص كلّ غالي ،وقال كل من ضرب العير لنا موالي ".

ويصف أطفالهم فيقول :" وأطفال كأنّما زُينوا للجنان ، أو لاستقبال دَهْقان (١١) سدوم (١٢) . . . مولود تقول قوابله هذا ما لم يُسَمَّ فاطه " ،وأما شبابهم فهم " . . شبّان . . فيهم بلا فضلٍ فُضول ، جُفاة أجلاف (١٣) ، بنو عَلّات (١٤) وأَخْياف " وأما الشيوخ فهم "في الطراز الآخر من السّفل ،كم فيهم من نادرة المريخ وزحل . . . أعمى البصيرة والبصر " ثم يصف شيخ عصره المولى المعروف وإن لم يصرح باسمه فيقول :" إن ذكر له الفقه والحديث وما فيه من الغريب ،اهتز عُجْبا ،وأجاب بغزل رائق ونسيب ، أو أُنشد له حوليات زهير ، وقلائد المتنبي ،وزهديات أبي العتاهية ، نظر إلى خزانة الفتوى

والخلاصة (١٥) وقال تلك أمة خالية " .

ثم يوافينا بعد ذلك بالحل وموقفه من ذلك كله ،ويسلّي نفسه ، ويعقد العزم على الرحيل إلى موطنه الأصلي فيقول : " وقد سئمت عتاب الدهر والشكوى ، ونفضت جراب (١٦) الطمع عما جفَّ من زاد المَنّ والسلوى ... وقد أخرسني العجز فما أفتح فما ، أفغير الله ابتغي حكما (١٧) ،إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع ....

فإنْ تسألاني ما دوائي فإنّني بمنزلةٍ أعيا الطبيبَ سُقامُها

... وعقدت أهداب النية بأهداب الظَّعْن ،إذ هتف بي شِقٌّ (١٨) الكهانة ... لمّا تجاذبت الآمال الداعية للنفس إلى حب الوطن ، قانعا بأحسن الراحتين ،وإن عُدّتُ بخفي حنين ". ثم يعود مرة أخرى لينصح نفسه بأن تعود إلى السلطان «مراد» علَّه يظفر منه بمنة ،ويدبج ألواناً من المدح في الثناء عليه حيث يقول : " فعج على سُدَّة (١٩) مُخصِبة للروّاد ، وأنزل في ظل كرمهـا تظفر بكل مراد .

وقلّما أتلَتْ عيناك من رجـــلٍ إلا ومعناهُ إنْ فتّشْتَ في لقبه

فناهيك من ملك ينقاد له السَّعد (٢٠) والإسعاد ،وتهوى الأفئدة طائعة خاضعة لهقبل الأجساد ... عُمريُ الذات والصفات ، فاروق حُكمه دِرْياق (٢١) السّموم والآفات ".

ثم يختتم المقامة بعد ذلك الإطراء الطويل بقوله : " ... وهـٰـذا أحمد في صباح الظَّفرالسُّرى ،وأُنبّه حظي من رقدة الخمول لا سِنةَ الكرى ، بعدما وقفت على حبه فؤادي ،ورتّبتُ في جامع أمانيه وظائف ودادي ، ولستُ لندى مُستميحاً ،ولا لنيل نوالٍ أهدي مديحا " ثم يبين في

آخر المطاف أنّ عمله ذاك مع هذا السلطان ليس لربح مادي ، ولكن سعيا وراء مركز أدبي ، إذ يقول : " فسكاب طبعي لا يباع ولا يمار ، ولو نُقدت له دراهم النجوم بكفّ الثريا فهو خُسْر وبوار ، على مذهب أبي الطيب في قوله :

وما رغبتي في عَسْجدٍ أستفيدُهُ ولكنّها في مَفْخرٍ أسْتَجِدُّهُ

ومذهب الطائي حيث قال :

وَمَنْ خَدَمَ الأقوامَ يرجو نوالَهم فإنّيَ لم أخْدِمْك إلا لأُخْدَما (١)

*

إيضاح بعض معاني كلمات هذه المقامة :

(٢) أتلفّع .. " تلفّع فلان ... بالثوب التفع - أي - اشتمل به حتى يجلل جسده " .

(٣) تثنى عليه الحقائب .. : الحقائب : مفردها حقيبة وهي : ما ما يجعل فيه المتاع والزاد ، وكل ما يحمل وراء الرحل ، ويقال احتقب فلان حقيبة سوء ، والعجز ... " ، ولعله يقصد هنا الحُقْب ولكنه مفرد أحقاب ، وحِقاب ، ولكنه آثر حقائب على الرغم من مخالفتها للعربية الفصحى ربما لضرورة القافية .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٢- ٣٥٤ .

(٢) المعجم الوسيط جـ٢ ص ٨٣٨ .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ١٨٦ .

(٤) " لا اليعافير ولا العيس : هذا مأخوذ من قول جِرانْ العود (*) :

وبلدة ليس بها أنيـــــس الا اليعافير والا العيس

(٥) من كل شادنٍ : الشادن ولد الظبية جمع شوادن .

(٦) غاليتهم المداد : الغالية : أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر .

(٧) جمر الذكاء الوقاد : الذَّكاء : ... الجمرة الملتهبة .

(٨) راشوا : " راش الطائر ريشا نبت ريشه ، وفلان : استغنى والسهم رُكِّب عليه الرِّيش فهو مَرِيش .

(٩) دساكرها قصور: الدساكر جمع دَسْكَرة ، وهي " الأرض المستوية وبناء كالقصر حوله بيوت للاعاجم فيها الشراب والملاهي يكون للملوك ، والقرية العظيمة .

(١٠) الزُّهر : هكذا ضبطها عبد الفتاح الحلو : وهي ثلاث ليـالٍ من أول الشهر ، ولا تتفق بهذا المعنى مع ما بعدها ، فلعلَّ صوابها بفتح الزّاي - الزَّهر - أي نَوْرُ النَّبات والشجر واحدته زهـرة جمع أزهار ".

(١١) دهقان سدوم : الدُّهْقان : " رئيس القرية ، ورئيس الإقليم ".

(*) هو عامر بن الحارث بن كلفة وقيل كلاة - شاعر من كبار الشعراء ، وسمّي بجران العود لقوله :

عَمَدْتُ لعَودٍ فالتحيْتُ جِرانَه وللكَيْسُ أمْضى في الأمور وأنْجح

خذا حِذراً يا ضَرَّتي فإنَّني رأيتُ جران العود قد كان يصلح

والجران : باطن عنق البعير ، والعود : المسن من الابل ،
خزانة الأدب جـ١٠ ص١٨

(٥) المعجم الوسيط جـ١ ص٤٧٩ . (٦) نفس المصدر جـ٢ ص٦٦٧ .

(٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) نفس المصدر جـ١ ص٣٦٤ ، ٣٨٦ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٣٠٠

(١٢) سدوم من مدائن قوم لوط .

(١٣) أجلاف : جمع جِلْف : أي الأحمق .

(١٤) بنو عَلّات وأخياف : بنو عَلّات " بنو رجل واحد من أُمّهاتٍ شتى ، وبنو الأخياف " هم بنو الأُم الواحدة من آباءٍ شتى " .

(١٥) خزانة الفتوى والخلاصة : لطاهر بن احمد بن عبد الرشيد البخارى الحنفي المتوفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

(١٦) جراب : وعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه .

(١٧) "أفغير الله ابتغى حكما " .

(١٨) شقّ الكهانة : شقُّ اسم كاهن من كُهّان العرب .

(١٩) السُّدَّة باب الدار ، والظُّلَّةُ بباب الدار ، والساحة بين يدي الباب .

(٢٠) السَّعْدُ والإسعاد : السَّعْدُ : اليمنُ نقيضُ النَّحس ، والإسعاد المعونه .

(٢١) دِرْياق : الدِّرياق هو الترياق ، فارسي معرب : هو دواء السُّموم .

(٢٢) السُّرى : سير عامة الليل .

(٢٣) سكاب : اسم فرس مثل قطام وحذام قال الشاعر :

أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، إنَّ سَكابِ عِلْقٌ نَفِيسٌ لا تُعارُ ولا تُباع

وقد ضبطها الحلو بالتشديد ، ولعل صوابها بدون شدة لأنها على وزن حذام - فعال .

---

(١٢) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى ، مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع - مختصر معجم البلدان - طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الاولى سنة ١٣٧٣هـ جـ٢ ص ٧٠٠ تحقيق على البجاوى .

(١٣) المعجم الوسيط جـ١ ص ١٣١ . (١٤) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٣٠ .

(١٥) هامش الريحانة جـ٢ ص ١٣٥ . (١٦) المعجم الوسيط جـ١ ص ١١٤ .

(١٧) الأنعام : ١١٤ .

(١٨) ابن منظور ، لسان العرب طبعة دار صادر بدون تاريخ جـ١٠ ص١٨٦ .

(١٩) المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٢٤ .

(٢٠) و (٢١) لسان العرب جـ٣ ص٢١٣-٤١٤ ، جـ١ ص ٣٢ و ٩٦ .

(٢٢) المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٣٠ . (٢٣) لسان العرب جـ١ ص ٤٧١ .

المقامة الثالثة : مقامة الغربة :

أشار في مقدمتها إلى أنه يريد أن يقدم بها نموذجا من مقامات له نسجت على منوال مقامات الحريرى ، وأطلق عليها اسم " دفع الكُرْبة بسلوة الغربة .

راويتها : " الربيع بن ريان عن شقيق بن النعمان ".

وهي تبدأ بالحديث عن طموحات الشهاب لاختراق الآفاق علّه يظفر بمن يعرف له حقه ومكانته ، فمجتمعه قد قلاه وعاداه لذا عزم على مفارقته ، قال : " لما هزّتني أرْيَحيَّة (١) الشباب إلى اقتعاد سَنام (٢) الأرض على غارب الاغتراب (٣) ، وقد أجديت الأرض من كل ماجد يجتني جنى المجد وتُجْنَى له ثمار المحامد ، وتعطّلت من كريم تلْتفُّ عليه المحافل ، وتسير في ظلال أعلامه الجحافل ... أقسمت ببيت سالت ببطحائه أعناق المطايا ، ... لأغْتَرِبَنَّ غُرْبةً قارظيّة (٤) يخفق منها قلب الخافقين ... " ثم وصف راحلته ومقدرتها على تحمل المشاق " على عيس ما لها غير النصب عقال ، وظهور سوابح مالها غير الكلال شِكال (٥) إلى أن حطّت به المطي بالخورنق والسدير (٦) ، فسأل عن عزيز البلد " فقالوا : هو النَّضر بن كِنانة (٧) ثم وصفوا له مكانة هذا الرجل بينهم " من شجرة مورقة النَّسب ، مثمرةٍ بيانع ثمار الحسب " ، وكان الوقت وقت ليل فانتظر انبلاج الفجر ليذهب إلى النضر بن كنانة ، وما أن وصل فرأى ما رأى " أتيت داره ، فرأيت بدورا لها المنازل داره (٨) ثم وصف تلك الدار ومن بها فرأى النضر وحوله أعيان أهل بلده وهم جميعا " يتنفّسون بأَنْفاس النُّعامى (٩) ، بين أوراق ريحان وخُزامى (٩) وما أن قام بين يديه حتى تكلم قائلا : ".. حيّاك اللهُ وبيّاك (١٠) ، ولا زالت مشكاة

أُنْسك مشرقة بمُحيَّاك ، فرد التحية بأحسن منها وما ردَّها ،وأمدَّها بطلاقة بشر كانت سُلَّما لكرامة أعدها " ، ثم وصف ناديه وما فيه من خدم وحواشي ، وتجاذب معه أطراف الحديث إلى أن سأله عن سبب رحيله من بلاده فأجاب بقوله : " قَحْطُ الديار من الاعيان ،وعُتُوّ الدهر وكَلَبُ الزمان ، وَفَقْدُ كلِّ خلٍّ رقَّت شمائله ، إن سألْته تهلل حتى كأنك تعطيه الذى أنت سائله :

إنَّا لفي زمنٍ تَرْكُ القبيح بـه من أكثر الناسِ إحسانٌ وإقْبالُ"

فأعجب النَّضر بتلك البلاغة وذلك الوصف الدقيق لأهل الزمان ،فأجزل عليه من أنواع النِّعم ما أجزل ، ووافقه في كون الزمان مجدباً من الرجال " فدعا بالدواة والقلم ،وأنعم بجزيل النِّعم ،حتى سدَّ طرقَ الآمال والمطالب ، وملأ المنازل والحقائب

فلو كانتْ لهُ الدّنيـا لأَعْطاها وما بالـى

ثم تأوَّه آهةَ الحزين ،وأجاب نَفْثَةَ المصدور منه الحنين ،وقال : هـذه نائبة نابت ، ومصيبة عمَّت وما طابت " ثم تبادلا أطراف الحديث ثانية ، وما في الزمان من عبر إلى أن طلب منه شيئا من إنشاده وذلك حين قال : " قال لي : هات من هنَّاتك ،وأنشد لي ما قلته من أبياتك فأنشدته منها :

عقاربٌ منكمْ لا تزالُ لنا تَسْرِى تَدُبُّ ولا تدرى بأنِّي بها أدْرِي
وتأكلُ لحمالَمْ يكنْ تمَّ نُضْجُـه على نارِ حِقْدٍ لا تُنفِّي بها قِدْرِي
وعنديَ نَمْلٌ قد أُعِدَّتْ لِمِثْلِهـا تعاهدُها أن لا تَدِبَّ إلى الحشر
ولي هِمَّةٌ لا تَرْتضِي دَفعَ شِدَّةٍ بكشْفِ سَوْآتي لِخِلٍّ سوى صَبْرِى "

فلما انتهى من تلك القصيدة التي تبلغ حوالى عشرين بيتا ،امتدحه صاحبه

بقوله : " لا فضّ اللّهُ فاك ، ولا أُقضّ في مَهدِ الهنا مثواك . . . وقد أصبتَ دارَ المُقامة ، فأنت جار أبي دؤاد بدار الكرامة (١١) ، فالزمه لزوم الطّوق جيد الحمامة ، فمالك لا تظمأ بهذا المُقام ، وكيف يظمأ من كان جارُ الغمام .

ما بَيْنَ عَصْرٍ سابقٍ مُتَلَفِّتٍ شوقاً إليك ولا حقٍ يتطلّعُ

وكان هذا آخر ما دار بينهما وانتهت بذلك هذه المقامة .

وهكذا يتضح أن الغرض منها :

أولا : وصف حال الشهاب قبل رحيله عن مصر ، ووصف حال أهلها ، الذى كان داعيا لرحيله من تلك الديار .

ثانيا : التشفي من بعض معاديه واستخدام التعميم في ذلك .

ثالثا : المدح : حيث يستخدم البطل ذكاءه في المدح لنيل العطاء ، دون أن يسلك في سبيل ذلك الاحتيال كما يفعله كثير من المقاميين ، وان كانت النتيجة واحدة (١) .

*

ايضاح بعض كلمات هذه المقامة :

(١) أريحية : خفة ودهشة (٢) .

(٢) سنام الأرض : وسطها ، ويقول الشهاب : سنام الأرض هو خصيبها (٣) .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٧١ – ٢٨٠ ، وفن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٣٤٤ .

(٢) لسان العرب جـ٢ ص ٤٦٧ .

(٣) المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٥٢ .

(٣) غارب الاغتراب : الغارب : الكاهل ،ومن البعير ما بين السنام والعنق ،وهو الذى يلقى عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء ... وأعلى كل شيء " فغارب الاغتراب : أعلى درجات الغربة.(١)

(٤) غربة قارظية : قال الشهاب : "كان ناس في الجاهلية تغربوا ففقدوا ولم يسمع لهم بخبر ،منهم القارظي ، خرج ليأتي بقرظ الدباغة ففقد وضرب به المثل و منهم سنان بن حارثة الغَطَفاني .. وفي المثل أضل من سنان ".

وهكذا في معجم الأمثال ،وفيه أيضا أضلُّ من قارظ عنزه ".(٢)

(٥) شكال : الشكال : القيد ، وفي الخيل أن تكون إحدى اليدين واحدى الرجلين من خلاف محجلتين ".(٣)

(٦) الخورنق والسدير : موضعان بالحيرة ،أو القصران اللذان بناهما النعمان بن المنذر بالحيرة أيضا.(٤)

(٧) النَّضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة من بني نزار من عدنان جد جاهلي ... ومن الناس بين من يرى أنه "قريش".(٥)

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٥٣ .
(٢) معجم الأمثال جـ٢ ص ٢٧٤ ،ريحانةالألبا جـ٢ ص ٣٨١ .
(٣) المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٩٣ .
(٤) نفس المصدر جـ١ ص ٤٨٩ و جـ٢ ص ٧٠٠ .
(٥) الأعلام جـ٨ ص ٣٣ .

(٨) داره : الداره : الرسول (١)

(٩) النمامي ،والخزامي : النمامي "ريح الجنوب لأنها في جزيرة العرب أندى الرياح وأرطبها ".

والخزامى : عشبة طويلة العيدان ، صغيرة الورق ،حمراء الزهرة طيبة الريح فيها نوركنور البنفسج ،وليس في الزهر أطيب ريحا منه (٢).

(١٠) بياك : بيّاه " تَبْيِيـاً وتَبْيِيَةً : بيّنه ووضحه ،وسَرّه وعَجّل له ما يحب ،وبوأه مكانا حسنا ،ويقال في الدعاء حياك الله و بياك (٣).

(١١) ابو دؤاد الإيادى يضرب به المثل في حسن الجوار (٤).

---

(١) المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٨٦.

(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٢٣٢ ،و جـ٢ ص ٩٤٤.

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ٨٠.

(٤) هامش الريحانة جـ٢ ص ٢٨٠.

المقامة الرابعة : الساسانية :

راويها : مالك (١) بن دينار عن مسافر بن يسار :

يبدأ الراوي بوصف حاله أيام شبابه ،وحبه للسياحة ،والاستكشاف وذلك ديدن الشهاب ،قال : "كنت والشباب غرابه لا يطار ... أهوى السياحة والناس ناس والديار ديار " ،ويظهر أنّ حبّه للرحلة إنما أتى اهتداء بقوله تعالى : " سيروا في الأرض " العنكبوت آية ٢٠ فالرحلة دليل الجد " فإن من جدّ وجد ،ومن توانى فقد فَقَد " .

ثم بعد ذلك أخذ يصف لنا حال تلك الرحلة وما جرى له فيها حيث ما إن وصل إلى خراسان حتى نزل على بخيل بها بعكس المقامة السابقة التي نزل فيها على كريم جواد ، قال : "حتى أتيت كُورَة (٢) خراسان ، فإذا بها قَيْل (٣) نصب عِرْضه لسهام الهوان ، مقلدا في ترجيح البخل مذهب سهل بن هارون (٤) " وما إن أتى إليه ليستطلع خبره ،ويعرفه معرفة حقه " وما راء كمن سمعا " ، فلما وصل جاس خلال إيوانه وعرف عنه شيئا ما من خلال نظرات عجلى لحشمه وغلمانه وسمعه يقول : " لمن اشترى (٥) أخلاق (٦) دَرّته (٧) ، وشبع من خَلّته (٨) وحمّضه بروية جَرّته ،يا هذا صناعتنا واحدة ،لو لم تدُرج من عشّك كانت الراحة فائدة " ، وكانت تلك الكلمات بيانا صادقا عنه ،وصح ظنه وحدْسه فيه ،ثم أخذ يستمع ماذا يقول ذلك البخيل زيادة على ما سبق " ألم تَسْمعْ نُصْحَ ناصح ، ولم تر زَجْرَ سانح وبارح :

قال الحكيمُ في قديمِ العَهْدِ	سواءُ السلطانُ ثم المُكْدِي
كلاهما يطْلُبُ أموالَ الورى	لكنّ ذا بقَهْره والجُنْد
وذا بألْطافِ الدُّعاء ضارعا	لما يُرَجِّيه بمَخْضِ الزّبد

وكانت الأبيات زيادة وتوضيحا له عن هذا الرجل البخيل ،مما جعل اليأس يستولي عليه ،وعرف ألاّ خير فيه ،ولا يطمع فيما عنده من مال وعطاء ،ثم وجه البخيل للزائر سؤالا ليستطلع خبره وخبر بلاده قائلا : " أي البلاد تُهْدي سلامها وأيّ زهرة تحية فتحتْ لك النسمات أكمامها " فأجابه بقوله : " قلت الكنانة المُعِزّية ،والخِطّة التي هي في حضانة نيلها محمية ، رياضها تحيا بأنهاره ،وأصابعه تشير لكنوز خِصْبٍ تستخرج من معادن أقطاره " ،وكان ذلك السؤال الموجه مفتاحاً لاطلاق العِنان للسان المسؤول وبيانه ،حيث وصف حاله وحال أهل بلده ، وكان للعلماء النصيب الأوفى " فإن سألت عن حالي ففؤادي فؤاد أمّ موسى فارغ من آمالي ،وما حال وردة فارقت نسمات القَبُول ، فحداها السَّموم وقادها الذُّبول

فتأمّلْ كيف يَفْشَى مُقْلةَ المجدِ نُعاس "

ثم بعد أن وصف حاله قام بوصف أهل بلده بمختلف طبقاتهم فقال أولا معمما " فأما حال سكانها . . . فقد ذهب أرباب الهمم العالية ، ولم يبق إلا من يفتخر بالرِّمَم البالية ، روح الشُّوم ،ونتيجة اللُّوم ، وخليفة البُوم " ثم انطلق بعد ذلك ليزيد الأمر توضيحا ، ويتخذ من ذلك سلما يتدرج فيه ليصل إلى أهل كل حرفة فيكيل عليهم التهم ، مشنعا ما هم عليه قائلا : " وأعظمهم جُرْما ،وأقلّهم دينا وحزما حمر مستنفرة ،يقرءون القرآن في بقاع مُسْتَقْذَرة بين رهط لا يتدبرون ، ولا يستمعون ولا يمتثلون قول الله : " واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " (الاعراف آية ٢٠٤)

وتُجّار .... يُزكّون كذبَهم بالأيمان الفاجرة ، فيربحون خسارة الدنيا والآخرة ... ورؤساءِ الفقهاء ، والكتاب ،الرّاضين من الغنيمة بالإياب ،وسَّعوا الأكمام وطوَّلوا الذيول ،ومشوا في ظلمات الجهل والعلمُ مصباح العقول " ويطيل في وصفه لهؤلاء كأنما صنع المقامة لسبهم وانتقاصهم والحط من قدرهم و مكانتهم،وحتى لا يخيل للقارئ قبل أن ينتهي من تلك المقامة ،أن وصفه ذلك شامل لكل أهل العلم بتلك البلاد ، ذكر أن هنالك ناسا لا ينطبق عليهم ذلك الوصف ،حيث نذروا أنفسهم للعلم وطلبه ،وكان من توفيق الله لهم أن قيض لهم من الأمراء والولاة من يؤيدهم على ذلك حيث قال : " وقد فُقِد العلم لولا نفحةُ أُنْسٍ من نفر بقايا ،فتح الله بهم خزائن كنوزِهي خبايا في الزّوايا ... ولمّا شرح الله بهم صدر الدّين ،وفتح ببصائرهم عين اليقين ، أيّدهم بسأبناء الأعيان من أمرائها ... " ، ثم يختم المقامة بالدعاء للدولة بالبقاء تحت ظل حكامها حيث قال : " متّعنا اللهُ بهذه الدولة وجعلها أطولَ الدول عُمُرا ،وأرفعَها منارا ،وأعظمها قدرا ".

إذا فالغرض من هذه المقامة أو بالأحرى عناصرها :

١ - الرحلة ومبرراتها .

٢ - وصف حال أهل بلده وما وصلوا إليه من حال مزرية على اختلاف طبقاتهم .

٣ - الدعاء للدولة بالبقاء ،وهذا أمر مخالف لما عهدناه عن الشهاب من الثورة على الدولة وحكامها ،وربما يرجع ذلك إلى أنه كتب هذه المقامة قبل أن يحصل بينه وبين المولى يحيى بن زكريا ذلك الصدام الذى نوهنا عنه كثيرا . وان كانت نغمة التذمر

من الدولة واضحة من تسنويهه بأن حال الدولة وصل الى التمام ، ومابعد التمام إلا النقصان حين قال : " فقد جف القلم ،وكل شيء قد بلغ الحد انتهى وتم ".(١)

*

بيان بعض معاني كلمات هذه المقامة :

(١) " مالك بن دينار البصرى أبو يحيى من رواة الحديث ،كان ورعا يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة توفي بالبصرة سنة ١٣١هـ.(٢)

(٢) الكورة : الصقع . والبقعة التي يجتمع فيها قرى و محال جمعها كور ".(٣)

(٣) قيل : " القيل : من ملوك اليمن في الجاهلية دون الملك الاعظم جمعها أقوال ،و أقيال ".(٤)

(٤) سهل بن هارون بن راهبون أو راهيون أبو عمرو كاتب أصله فارسي من كبار الشعوبيين تولى رياسة خزانة الحكمة توفي سنة ٢١٥هـ.(٥)

(٥) امْتَرَى : " يقال مالك لا تَمْرأ أي مالك لا تطعم ،وقد مَرَأْتُ أى طَعِمْتُ والمَرْءُ الإطعام على بناء دار أو تزويج ".(٦)

---

(١) ريحانة الأدبا جـ ٢ ص ٣٨٨ - ٣٩٥.

(٢) الأعلام جـ٥ ص ٢٦٠.

(٣) المعجم الوسيط جـ٢ ص ٨١١.

(٤) نفس المصدر جـ ص ٧٧٣.

(٥) الأعلام جـ٣ ص ١٤٣.

(٦) لسان العرب جـ١ ص ١٥٥.

(٦) أُخلاف : جمع خِلْف وهو الضرع لكل ذات خُفٍّ و ظلف ،وقيل : هو مقبض يد الحالب من الضرع (١) .

(٧) دَرَّتـه : اللَّبن أو الكثير منه (٢) .

(٨) خَلَّتـه : الخَلَّة مفرد الخَلّ ،والخَلَّة الخمر عامة ،و قيل الخَـلُّ الخمرة الحامضة (٣) .

(٩) حَمْضِـه : الحمض : كل نبت مالحٍ أْو حامض يقوم على سوق ولا أْصل له . . . واللحم حَمْض الرجال (٤) .

---

(١) المصدر السابق جـ٩ ص ٩٢ .

(٢) المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٧٩ .

(٣) لسان العرب جـ١١ ص ٢١١ .

(٤) نفس المصدر جـ٧ ص ١٣٨ .

المقامة الخامسة : مقامة عارض بها مقامة رشيد الدين الوطواط :

وهي مقامة قصيرة إذا ما ووزنت ببقية مقاماته .

راويها : مبارك بن سعد العشيرة ،وكان حسن السيرة سليم السريرة " وقد بدأها المؤلف بالرحلة كعادته في معظم مقاماته التي عرفناها قال : " لما هزّتني الأَرْيَحِيَّة دعتني دواعي الهمم والحمية ، إلى تقلد صوارم الأعمال ، وجهت وجه الطلب إلى قبلة الآمال " ،ولكنه لم يجد ما أمله لأنه وجد الأمر وسِّد إلى غير أهله وكانت نقطة انطلاق له ليبث ما في نفسه من كراهية للدولة ووزرائها ،قال :

" فلم أجد المقاليد ، بيد حر رشيد " ،واحتدم الجدال بينه وبين شخص آخر قائلا له : " لِمَ لَمْ تؤدِ الأمانات إلى أهاليها ،وترم سهام الأغراض نحو مراميها ،ألم تدر أن زوال الدول باصطناع السَّفَل " ولكن خبر ذلك الجدال الذى يغض من مكانة حكام الدولة ما لبث أن وصل إلى بعض وزرائها " فلما سمع ماوشوا به أحضره ونفاه ،بعدما هدده وزجره " .

ثم ما لبث بعد نفيه أن ذهب إلى البيت الحرام فلقيه أحد رجالها " فتذاكر مع ذلك النديم ، عهد أنسه القديم ،ثم قال : إن أردت أعدتُها جذعة بدرهمين ،في أحسن نزهة وقرة عين " ،ولكنه وُشِيَ به عند ذلك الأمير ثانية :" فحمله على الأدهم ،وأبرق له وأرعد وأنذره صواعق عقابه الأشد " ،وانتهت المقامة بقول الوزير : " ومن كان كذلك لا أقيل له علا ،ولا أوجه نحو سُدَّته أملا ، ونام العمل في مهد البطالة ،واهتدى سارى الطلب بالضلالة " وهكذا تنتهي هذه المقامة الموجزة ،وغرضها واضح هو التعبير عن حال الشهاب ،وما حصل له من

أحداث في حياته ،وما حدث من أن الدولة ولّت أناسا أقل منه مكانة وطما بينما هو محروم من هذه الوظائف العالية ،وهي قريبة من مقامة رشيد الدين الوطواط (١) ،وهذه مقارنة موجزة بين المقامتين :

١ - إن مقامة الشهاب قصيرة بينما مقامة الوطواط أطول منها .

٢ - إن الهدف من مقامة الشهاب هو النيل من مكانة بعض معاصريه ، وهي موجهة إلى وزير يعطي ويمنع و يجزى و يعاقب ،بينما مقامة رشيد الدين الوطواط موجهة إلى كاتب منافس له ، كان يزاحمه أداته ودواته .

٣ - اتكاء مقامة الوطواط على حادثة تاريخية قد تكون من نسج الخيال سلسل أحداثها ووضع لها نتيجة توافق مقصده من المقامة وذيلها بقوله :" إن كنت كاتب الملك فهيّئ الطّرس والنّفس ،وإلا فالزم البيت والعرس ، فقد أفسدت دواتي وقلمي ،وأطلت عنائي وألمي " بينما مقامة الشهاب لا تعتمد على ذلك ،ولكن أحداثها جرت معطيا له .

٤ - ثم أن في أسلوب الشهاب ثورة لأنه مطارد تحيط به العيون في كل مكان ،على أن حاله لا يسمح له بأكثر من ذلك ،بينما أسلوب الوطواط فيه نوع من السخرية والاستهزاء إذ وضعه أفضل من وضع الشهاب لدرجة أنه يأمر منافسه دونما خوف من عاقبة "...فهيئ الطرس والنفس ،والا فالزم البيت والعرس ".

وهكذا يتضح الفرق بين هاتين المقامتين .

---

(١) المقامتان في الريحانة جـ٢ ص ٣٩٩-٤٠٦ .

أما المقامة السادسة فهي : المقامة المغربية :

وهي مقامة عارض بها مقامة الحريري المسماة " بالمقامة المغربية " راويها : "موءتمن عن زعيم تونس " ،وهو يفخر بأن مقامته " تهزأ بالمقامة المغربية - يعني مقامة الحريري - وتدعها لا شرقية ولا غربية - لاجل - ركاكة مبانيها ،وغوءور معين معانيها".

وكأنه يريد أن يقول لاولئك المعجبين بأدب الحريري ومعاصريه ، الرامين عصر شهاب بأنه عصر اضمحلَّ فيه الادب ،ودالت دولته ، أن تلك الدعوى لا يصدقها الواقع فأنذا أستطيع أن آتي بمثل ما أتى الحريري فإن قال : " تعاطينا كأس المناقشة ، وقدحنا زند المباحثة " فأنا أقول : " نازعناه كأس الحِوار ، فأسكرتنا بلا صُراع ،ولا خُمار ،وقدحنا زند الافكار ، فأضاءت أنوارُها بغير نار".

ثم يزيد الامر توضيحا بضربه أمثلة ليدلل على أن عصره لا يقل عن عصر الحريري فهو مليء بالعلماء الذين نذروا أنفسهم للعلم ومدارسته من أمثال " عيسى الجزري ودرويش الطالوى ".

ثم وقف عند قصيدة الحريري التي أتى فيها بمعانٍ كثيرة "للغرب" والتي مطلعها :

سَلَّ الزمانُ عليَّ عَضْبَهْ ليَرُوعَني وأحَدَّ غَرْبَهْ (١)

وزعم أن لو سمع الحريري قول الطالوى معارضا هذه القصيدة بقصيدة طويلة مطلعها :

أَمِنْ رَسْمِ دارٍ كاد يُشْجيك غَرْبُهُ نَزَحْتَ زكيَّ الدمعِ إذْ فاضَ غَرْبُهُ (٢)

---

(١) غربه أي حده .

(٢) غربه موق العين .

" ما حَوْقل واسْتَرجع وأُنشد من قلبٍ مُوجَع "[١] قصيدتـــه التي ذكرت مطلعها ، هذا هو أهم ما تعالجه هذه المقامة ، إلى جانب أنها تحمل في طياتها إشارات تاريخيه مهمة و هذا يدل على القيمـــة التاريخية لهذه المقامة الى جانب القيمة الفنية .

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٤٠٧- ٤١٣ .

فصوله القصـــــار

هذه الفصول أشار إليها في كتابه " الريحانة " ،وذكر طرفا منها أيضا في كتابه " خبايا الزوايا " وقد استغرقت من كتاب " الريحانة" نحو خمس عشرة صفحة ،وقد ذكر في مقدمتها أنها " فصول فيها حكم ونصائح سميتها بالفصول القصار في نتائج الأعمار "(١) وذكر أيضا أنها " منسوجة على منوال ابن المعتز في فصوله "(١) ،ولكن لماذا اختار ابن المعتز دون غيره لينسج على منوال فصوله ،علما أن الأدب العربي في تاريخه مليء بمن عمل مثل ذلك العمل ،وهم كتاب عظام إن لم يكونوا أعظم من ابن المعتز فهم لا يقلون عنه شأنا من أمثال بديع الزمان الهمذاني ،وأبي بكر الخوارزمي ، حيث نجد طرفا كبيرا من فصولهم في " يتيمة الدهر "(٢) لا تقل معنى وبلاغة عن فصول ابن المعتز . إن السبب في نظري أنه يريد أن يشير بذلك إلى أن هؤلاء جميعا يعتبر نفسه أكبر منهم إنْ لم يكن مساويا لهم ،وإلا لماذا يتخطى هذه الحقبة التاريخية إلى ابن المعتز.

وهذه الفصول القصار أقرب إلى الحكم والأمثال منها إلى أي شيء آخر من فنون القول العربي كما سبق أن نوه بذلك .

ثم أن الفصل فقرات قد لا تتعدى بضع كلمات كقوله " خَلُّك أحلى من عسل غيرك " وكقوله : " شجاعة الملوك الثَّبات ،وشجاعة الجُند إقدام وثبات ،ولكنه قد يأتي في بعض الأحيان فيما لا يزيد عن صفحة

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٥٥ .

(٢) يتيمة الدهر جـ٤ ص ١٩٤ ومابعدها ،وص ٢٩٠ ومابعدها .

ونصف الصفحة ،وذلك من قبيل الشرح والتوضيح للمعنى المراد من الفصل كمثل فعله عند قوله : " ربَّ معنىً سار بلباس آخر ضار " ، فقد ضمن خبرا عن الرشيد لكي يبين المعنى المقصود من فصله (١) .

والذى خيل لي من خلال قراءتي لهذه الفصول أن الشهاب كَدَّ ذهنه لكي تخرج فصوله في تلك الصورة تهتم بتركيز المعاني في كلمات قصيرة .

وهي تعبر بشكل واضح عن المقدرة البلاغية واللغوية ،وقوة التركيز التي أوتيها الشهاب ، وهي تحكي لنا في نفس الوقت عن تجربة قاسية , وهو يخوض غمار الحياة نتج عنها تلك النماذج الرفيعة من النثر الأدبي .

ولكي نكون على بينة من تلك الفصول سأورد نماذج منها ، وكذلك بعض فصول ابن المعتز ليتضح لنا مدى قدرة الشهاب ، في النسج على منوال السابقين في كل فن من فنون القول العربي ، وأنه وضع نصب عينيه أمثال أولئك الأعلام محتذيا آثارهم الأدبية دونما تقصير عنهم ،وهي بالانضمام إلى ما سبق من رسائله ومقاماته تعبر بشكل واضح عن المستوى الأدبي الذى وصل إليه بين أدباء العربية عامة وأدباء عصره خاصة ،وهذه بعض نماذج من فصول الشهاب :

" من كان وارف الظلال ، تقيل عنده القلوب والآمال " ، " رب مُوقد نارٍ بها يحترق،ومحسن للسَّبح في اللُّجة غرق " ، " احذر أيدى الدعاء ،

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٦٧ .

إذا قرعت أبواب السماء "،" هدايا اللّئام تجارة و وقبولها منهم خسارة "، " ليس الصديق من إذا رآك قام ، بل إذا أقعدك الحظ أقام " ،" ظل المرء قطعه من عقله ،و محسن الرمي أدرى بمواقع نبله " ،" المعروف والصنيعة ، عند الأحرار وديعة " ، " الحكماء الجهّال ، رسل عَزْرائيل للاستعجال " ، " المَطْلُ طليعةُ جيش الحرمان وسوء التدبير كمين الخسران ،" ومن كان بغير نفع نفيس الملابس ، كان كالصور المنقوشة في الكنائس".(١)

ومن فصول ابن المعتز : " البِشْر دالٌّ على السَّخاء ،كما يدل النَّوْر على الثمر " ، " اذا اضطررت إلى الكذاب فلا تصدقه ،ولا تعلمه أنك تكذبه ، فينتقل عن ودّه ،ولا ينتقل عن طبعه " ،" الحوادث الممضة مكسبة لحظوظ جزيلة ،من صواب مدخر ،و تطهير من ذنب ،و تنبيه من غفلة ، و تعريف بقدر النعمة ،و مرون على مقارعة الدهر ".(٢)

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٥٥- ٣٦١ .

(٢) الحصرى ، زهر الآداب وثمر الألباب ،طبعة دار الجيل بيروت الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢م جـ٢ ص ٥٩٩ ، تحقيق : زكي مبارك .

خصائص نثره

٢ - التزامه بالمحسنات البديعية في رسائله ومقاماته وفصوله القصار ، حيث تعد معرضا فنيا لهذه المحسنات اللفظية ، فقد كلف بالسجع كثيرا ، واستخدم الجناس والطباق ومزجها بأساليب البلاغة البيانية من استعارة وكناية وتشبيه ،وهذا العمل وإن رآه بعضهم انتقاصا من حق من سلك هذا المسلك بدعوى ضياع المعنى على حساب الألفاظ ،إلا أنه في ميزان عصرهم يعد قمة شامخة من الأدب الرفيع الذى لا يضاهى ،ثم أنه يدل على الذخيرة اللغوية ،والمقدرة البلاغية ، والتعبير الجميل المنمق ،وحينما ننظر إليها نعجب أشد العجب كيف استطاع هذا الكاتب ،أن يوشى رسائله ومقاماته ،وفصوله ،بكل هذه الفنون المختلفة .

٢ - الترادف والتكرار على قلة حدوثهما ،يتضح ذلك في رسالته التي كتبها إلى أحد رؤساء الروم ،وكذلك في مقامته الرومية ،وأختها التي كتبها في رجل يذمه .

٣ - كما نجد أيضا المبالغة والتهويل واضحين في جل رسائله ومقاماته إلا أنها فيما سبق أكثر وضوحا ، وهو بهذا يشبه الجاحظ في كتاباته .

٤ - الإكثار من الإشارات التاريخية والأدبية والعلمية ،فهو يحاول أن يجعل من رسائله ومقاماته نموذجا واضحا للدلالة على اتساع ثقافته ،ومحفوظاته وإحاطته إحاطة تامة بشتى أنواع العلوم ،وكأني به من جهة أخرى أراد أن يقول لخصومه : هذا من احتقرتموه ،ولم تقدروه حق قدره ، عارفا عالما بما لم تعرفوه ،ومن جهة أخرى أيضا أراد أن تكون هذه الرسائل والمقامات مرجعا لطلاب العلم الذين

كانوا يتوافدون عليه من أصقاع شتى ، ويعجبون بعلمه و ثقافته . مثاله من الرسائل قوله : " "وقد كان بعض الحكماء قال لسلطان : لو جعلت حكماءك وزراءك ، ووزراءك حكماءك أصبت ،لأن حكماءك يحكمون القتل ، ووزراءك لا يقدرون على ذلك ..." (١) ،ويقول في المقامة الرومية :" ... إن ذكر له الفقه والحديث ،وما فيه من الغريب ، اهتز عجبا وأجاب بغزل رائق و نسيب ، أو أنشد له حوليات زهير وقلائد المتنبي ،وزهديات أبي العتاهية نظر في خزانة الفتوى ،والخلاصة ، وقال : تلك أمة خالية " (٢) ونحو ذلك من الأمثلة كما مر بنا في أثناء عرضنا لرسائله ومقاماته .

كثرة ضرب الأمثال في رسائله ومقاماته كقوله :" من سابق الدهر عثر " ،وقوله " أيامه يوم بيوم وحربه سجال " (٣) ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت " ، وكقوله :" رضيت من الغنيمة بالإياب " (٤) .

ومن الملاحظ أن الشهاب لم يكتف بالامثال العربية الفصحى بل نراه يمثل حتى بالأمثال العامية مثل قوله في رسالته التي وجهها إلى أحد رؤساء الروم قال :" وفي أمثال العامة : ليلة العيد من العصر ما تخفى ،واليوم المبارك من أوله يبين ،والديك الفصيح من البيضة يصيح " (٥) ،ونكتفي بهذه الأمثلة للدلالة على إكثار الشهاب من ضرب الأمثال في كتاباته الانشائية .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٣٥٠ ومابعدها .

(٣) و (٤)

(٥) نفس المصدر والجزء ص ٣٣٨ .

الإكثار من الأشعار سواء كانت له أم لغيره في أثناء مقاماته ورسائله ،ومن الملاحظ أنه تارة ينسبها وتارة يتركها بدون نسبة ،مما يجعلنا في حيرة هل هي له أو لغيره . انظره مثلا عندما واجهنا في بداية رسالته التي وجهها إلى بعض رؤساء الروم - كما سبق أن قلناه - فهو يذكر ثلاثة أبيات لم يصرح أنها من إنشاده ولم ينسبها لأحد غيره من المؤكد نسبتها لابن الرومي وهي :

رأيتُ الدهر يَرفعُ كلَّ وغدٍ ويَخفضُ كلَّ ذي شيم شريفة

كمثل البحر يَغرَقُ فيه حيٌّ ولا ينفك تطفو فيه جيفة

أو الميزانِ يخفض كلَّ وافٍ ويرفعُ كلَّ ذي زنة خفيفة (١)

ومن ذلك أيضا - أي لم يصرح بقائله :

يهوديٌ بلا مالٍ وأعمى ما له صوت

فهو لم يشر إلى قائله ،وأورد الدكتور عبد الفتاح الحلو في هامش الريحانة ، رواية أخرى لصدر هذا البيت " فقير ماله تقوى " وذكر أنه " لمنصور (*) الفقيه " (٢) .

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ٢٣٢ . ديوان ابن الرومي ج ٤ ص ١٩٥٠ ط دار الكتب المصرية ١٩٧٠ تحقيق حسين نصار

(*) هو أبو الحسن منصور بن اسماعيل بن عمر التميمي المصرى الفقيه الشافعي الضرير له مؤلفات منها الواجب ،والمستعمل ،والمسافر ، والهداية ،وله شعر جيد توفي سنة ٣٠٦هـ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان طبعة دار صادر بيروت جـ٥ ص ٢٨٩-٢٩٢ . تحقيق احسان عباس .

(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٦ وهامشها .

ومثال ما صرح أنه ليس من قوله : . . . . قول الخوارزمي :

لَمْ أرَه إلا خشيتُ الرَّدى   وقلتُ يا رُوحُ عليكِ السلام

يَبْقى ويفْنى الناسُ من شُؤْمِه   قوموا انظرُوا كيف تموتُ الكرام

كيف نراهُ سالماً بيننا   يا مَلَك الموتِ إلى كم تنام (١)

ومن ذلك أيضا قوله : "... على مذهب أبي الطيب في قوله :

وما رَغْبَتي في عَسْجدٍ أستفيدهُ   ولكنَّها في مَفْخرٍ أستجدّه (٢)

وهكذا يتضح أن الشهاب يضمن كتاباته الانشائية كثيرا من الأشعار .

نرى في كتاباته ،أنة الحزن والأسى واضحة تمام الوضوح ،وما ذلك إلا لأنه صارع أهل زمانه وحاسديه فانتصروا عليه كثيرا ،وكانت آماله أكبر مما حظي به في دنياه ،لذلك وغيره تجده دائم الشكوى ،والتذمر من روء ساء عصره ،دائم الثورة على أوضاع زمانه ،وما فيه من المفاسد التي تصورها فأظهرها دونما خوف ولا وجل ، بل كانت محركا أساسيا في كتاباته الإنشائية ،اتخذ من ذلك نافذة يطل منها على أسباب الوهن ،والضعف في البيئة الاجتماعية التي عاش فيها ، فكانت تلك المعاناة واضحة تمام الوضوح في كل نتاج له ،فمثاله من رسائله قوله في رسالته - الرومية - " ... الحمد لله الذى جعل الدنيا الخافضة الرافعة لسَفَل الأنذال ... " وكقوله " ... فانتقضت الأحكام ، حتى في الكلام ، فغُلِّب غير العقلاء من الجهلة ،وارتفع من العدل السلسلة ،

---

(١) المصدر السابق والجزء ص ٣٢٨ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٥٤ .

وطلا قطاع الطريق ،وملك السيدَ الرقيقُ ، وصار الرعاة ذئابا ،والغنم والشياهُ كلا با "(١)

وكقوله في مقامته المسماة " بالغربة " : " ... حتى فاض المقال إلى السوءال ، عن الداعي لشد رحال الترحال ، فقلت : قحط الديار من الأعيان ،وعتو الدهر وكلب الزمان وفقد كل خل رقت شمائله ، إن سألته تهلل حتى : كأنك تعطيه الذى أنت سائله :

إنَّا في زمنٍ تَرْكُ القبيحِ بــه من أكثرِ النّاسِ إحسانٌ وإقْبال "(٢)

ويقول في فصوله القصار : " أنا في زمان يتيم حضر مائدة جبار لئيم "(٣).

فواضح إذاً أن ما لاقاه من مصاعب كدرت عليه صفو عيشه ،جعلته يسلك ذلك المسلك من الهجوم على خصومه والتهكم بهم ،ووصف مجتمعه بأنه لا مكان فيه للشرفاء وأصحاب العلم من أمثاله ،إنما هو مجتمع ساد فيه الجهال والأنذال .

إن بعض مقاماته ،وفصوله القصار انما هي محاكاة للفحول من الكتاب من أمثال الحريرى ،ورشيد الدين الوطواط ،وعبدالله بن المعتز ،فكأنه أراد أن يبين قوة الشبه بينه ،وبين أئمة الكتاب الذين نالوا إعجاب الأجيال المتعاقبة وأن يلفت انتباه معاصريه أنه يستطيع أن يعمل مثل عملهم ، وأن أعماله الأدبية لا تقل مكانة عن أعمال اولئك الذين نالوا إعجابهم .

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٦٤ .

الباب الثالث

شعره

وتيضمن الفصول الثلاثة الآتية

- مظاهر عامة حول شعره .
- أغراضه الشعرية .
- خصائص شعره .

الفصل الأول

- مظاهر عامة حول شعره .

الفصـــل الأول

مظاهر عامة حــول شـــــعره

مظان شـــعره :

يتجلى لنا نتاج الشهاب الدين الخفاجي الأدبي في شعـــره الذى خلفه بعد وفاته ، والذى وصلنا مجموعا في ديوان ، ومتفرقـــا في بعض كتبه ، وكتب من أرّخ له .

وقد أشار الشهاب نفسه أن شعره مجموع في ديوان حيـــث قال : " ولي من النظم ما هو مسطور في ديواني فلا حاجة لذكره ".(١)

كما نقل هذه العبارة ابن معصوم حينما ترجم للشهاب(٢) ، وأشار المحبي في كتابيه خلاصة الأثر ، ونفحة الريحانة . قال في الأول : "وله ديوان شعر وقفت عليه ، وكل شعره مفروغ في قالب الإجادة"(٣) ، وقال في الثاني : " وله ديوان شعر وقفت عليه بخطه ، فأثبته بخطي(٤) ..."

وسأتحدث عن هذا الديوان ونسخه فيما بعد إن شاء الله .

على أن هنالك الكثير من شعره موجود في بعض كتبه وأهمها :

* ريحانة الألبا : وقد تحدثت عنها في الباب السابق .
* ديوان الأدب : وقد تحدثت عنه في الباب السابق .
* طراز المجالس : وقد تحدثت عنه في الباب السابق .
* خبايا الزوايا : وقد تحدثت عنه في الباب السابق .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤٠ .
(٢) سلافة العصر ص ٤٢٢ .
(٣) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٦ .
(٤) نفحة الريحانة جـ٤ ص ٣٩٨ .

كما تحدث ابن معصوم عن شعره ، وأثبت له بعض المقاطع ، في كتابه "سلافة العصر" الذى تحدثت عنه في الباب السابق ،وكذلك المحبي أثبت شيئا من شعره في كتابيه ،وأكثر من النقل عن ديوان الشهاب في كتابه نفحة الريحانة .

ثم إن هنالك مجموعة قصائد أخرى ذكرها الدكتور عبد الفتاح الحلو نقلا عن بروكلمان وقال عنها : "وهي مجموعة من شعره في دار الكتب المصرية نسخة خطية منها برقم ٧٦ مجاميع ، و برلين نسخة أخرى برقم ٧٩٩٠ ضمن مجموعة ٣ ".(١)

وهذه القصائد التي اطلعت عليها مجموعة مع رسالة تسمى "القول المفيد في معرفة التوحيد لمحمد الدمرداشي المحمدى " وقصائد أخرى لعبد ربه الشعراني ، و معشرات للحصرى وقصيدة أخرى على قافية التاء المربوطة ،وقصائد هذه المجموعة منها ما هو موجود في نسختي الديوان التي سنتحدث عنها فيما بعد ،و منها ما هو موجود في النسخة الأزهرية فقط و هذه المجموعة تحتوى على :

مقدمة وهي نفس مقدمة الديوان على اختلاف ضئيل في بعض الألفاظ وستأتي عند الحديث عن الديوان .

مقصورة(*) عارض بها مقصورة ابن دريد ،مكتوب في مقدمتها :

---

(١) مقدمة محقق الريحانة ص ٢٤ .

(*) القصر في اللغة ضد الطول والمد ، والمقصورة : القصيدة المقفاة بالف تنتهي بألف غير ممدودة ، محمد بن احمد بن هشام اللخمي ، الفوائد المحصورة في شرح المقصورة ،طبعة مكتبة الحياة بيروت سنة ١٤٠٠هـ ص ٧ تحقيق احمد عبد الغفور عطار .

* هذه مقصورة شهاب الدين الخفاجي ، عارض بها مقصورة ابن دريد *
وأولها :

أيا شقيق الرَّوضِ حيّاهُ الحمى ... فاحمرَّ وردٌ خدِّهِ مِنَ الحيا
لا نْتَ تِربُ الغُصْنِ نشوانٌ إذا ... أدارتْ المزنُ له خمرَ النّدى

وآخرها :

صلَّى عليك اللهُ ماحيّاك من ... سحْبِ الحمى لسانُ بارقٍ خفا
ونزل القطْرُ لكي يقبِّلَ ا لْـ ... أرض التي فيها محيّاك ثوى
لا زالتِ السُّحْبُ على أرجائِه ... تمرُّ سُجفاً طُرِّزتْ من السنا

وهذه المقصورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وعدد أبياتها ثلاثة وخمسون (١) ومائة بيت وهي مذكورة بتمامها في نسختي الديوان (٢) ، وذلك مباشرة بعد مقدمته :

قصيدة همزية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أولها

ما سُليمى ما هِنْدٌ ما أسماءُ ... أنتَ معنىً وكلُّها أسماءُ
أيُّ معنىً بهِ العباداتُ ولْهى ... حين حار المديحُ والإطراء
وَقفَ الفكرُ عن بُلوغِ مَداهُ ... كيف يَمْشي من قَيدِهِ الإعياء
ذِكْرُ طه ووصْفُ يس فيه ... قَصَصٌ هام عِندهُ الشعراءُ

---

(١) مجموعة قصائد الشهاب الخفاجي ورقة ١٧-٢١ ونسخة الازهر من ورقة ٤ .
(٢) نسخة دار الكتب المصرية من ورقة ٢ ومابعدها .

وآخرها :

مغربُ الوحي مُشْرقُ الدينِ منهم عزَّ قومٌ بهديهم واستضاءوا
فعليهم حطّت سحائبُ مُزنٍ مُوقراتٌ لها الرعودُ رغاءُ
ما تردَّ الصباحُ بُرد سناءٍ حيث أُلقتْ جلبابَها الظلماءُ
وسرتْ دُهمُها تخجلُ بالإصباح م والبُدْرُ غرّةٌ غــــرّاءُ

وعدد أبيات القصيدة في هذه المجموعة ثلاثة وستون ومئتا بيت ،وتزيد في الديوان عن ذلك بخمسٍ وثلاثين بيتا (١) .

قصيدة عارض بها معلقة زهير بن أبي سُلمى قال الشهاب :

" وقلت معارضا لميمية زهير " وهي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، أولها :

أبدراً أضياءَ الأرضَ للعُرفِ تَمّمِ وبلّغْ أخاك الشوقَ عني وسلّمِ
تلطَّفْ بإبلاغِ التحيةِ سُحْــرةً فربَّ رسولٍ حائزٍ أجرَ مُنعمِ

وآخرها :

وإنْ بُهرتْ بالحسن سامعُ مَدْحِها
يصلّي على خيرِ الورى ويسلّمِ

وعدد أبياتها أربعة وعشرون ومائة بيت (٢) .

---

(١) مجموعة قصائد الشهاب ورقة ٢٢ - ٣٠ والديوان نسخة الازهر ورقة ١٠ - ٢٠ .
(٢) نفس المصدر بين ورقة ٣٠ - ٣٣ ، وورقة ١٩ - ٢٣ .

قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم عدد أبياتها ستة عشر بيتا ،قال الشهاب في سبب نظمها : "وقلت بديهة وقد رأيت في بعض كتب الحديث ذكر حداة النبي صلى الله عليه وسلم " وأولها

يا ليتني ثانٍ لحادٍ حَـــدَاك أو رابعُ الكَهْفِ بكَهْفِ حـواك

وآخرها :

صلَّى عليك اللّهُ ما أذَّنَ ال قمريُّ في الرّوضِ فصلى الأراك (١)

قصيدة على قافية اللام بدأها بالنسيب ،وعدد أبياتها تسعة عشر بيتا

أولها :

غَراميْ على رُسْلِ الصَّبا لكم أُمْلا رسائلَ هَلْ وافتْ إلى حكيم أم لا

وآخرها :

ومالي إلى طُرْقِ الغنا من وسيلةٍ إذا كانت الوقاحة والجهلا (٢)

قصيدة على قافية القاف عدد أبياتها واحد وعشرون بيتا ،أولها :

عَهْدُ الصِّبا بالسرورِ أَوْرقْ ووجْهُه بالصَّفا أشْرق

ولِلّهوى في الصِّبا نَسيم دهْري بألْطافِه تخلّق

وآخرها :

فلَيْتني لو أراهُ يومـــاً بالبُعْدِ عن ساحتي تصدق (٣)

---

(١) المصدرين السابقين ورقة ٣٤ ، ورقة ٢٣ .

(٢) نفس المصدرين ورقة ٣٤ ومابعدها ، ورقة ٢٣ - ٢٥ .

(٣) نفس المصدرين ورقة ٣٥ ومابعدها ، ورقة ٢٤ .

قصيدة لامية عدد أبياتها اثنان وعشرون بيتا ، أولها :

اشْرَبْ هَنيئاً سَلْسَبيلا ولخَيرِ وِرْدٍ سَلْ سَبيلا

ولصالحِ الأعْمالِ كُنْ ما عِشْتَ متخِذاً خليلا

وآخرها :

وكذاكَ قدْ حَمِدَ السُّرى في الصبح مَنْ عرف المقيلا (١)

قصيدة على قافية اللام عدد أبياتها ثلاثة وعشرون بيتا ، أولها :

رويدَك لا تَعْجلْ وصَبْرُك أجْملُ وذاك قوى خَطْبٍ على الحرِّ ينزل

وماقَرَّت الأغراضُ قط فكلُّ ذا على رغم أنفِ الحادثاتِ تجوّل

وآخرها :

وفي حَيِّهِ حطّتْ رِحالُ عزائمي وألقى عصيَّ السير ثمّ التوكل (٢)

وقصائد هذه المجموعة مذكورة بكاملها في الديوان نسخة الأزهر ، وعلى نفس الترتيب ، فقد يكون ناسخ الديوان رجع إلى تلك المجموعة وضمها إلى بقية شعره .

---

(١) المصدرين السابقين ورقة ٣٥ - ٣٦ ، ورقة ٢٤ - ٢٥ .

(٢) نفس المصدرين ورقة ٣٦ ، ورقة ٢٥ .

ديوان الشهـــــاب

لقد عرفنا أن للشهاب الخفاجي ديوانا ،وأنه لا يزال مخطوطا ، وتوجد نسخه في :

١ - الدانمرك هافانا برقم ٤٨٣ .

٢ - الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٢ شعر تيمور.

وهاتان النسختان أشار إليهما الدكتور عبد الفتاح الحلو.

وفي فهارس الدار أن الديوان بخطه ،كما وجدت ذلك علـــى الصفحة الأولى من الديوان حيث كتب عليه العبارة التالية " ديـــوان شعر الشهاب أحمد الخفاجي المصرى ... بخطه " ، إلا أن الأستاذ الحلو قال مشككا في أن الخط ليس خط الشهاب "ولم يقم لي دليل على هذا حين رجعت إلى النسخة ،وبهامش النسخة التيمورية شعـــر كثير له ،ولغيره ،وبعض تعليقات لغوية ،كل ذلك بخط يقارب خط الأصل إنْ لم يكنه "،(١) وفعلا ظهر لي ذلك حينما اطلعت علـــى تلك النسخة، ثم إن ما يشكك في صحة كون تلك النسخة ليست بخـــط الشهاب ،أن الناسخ يقول عندما ينتهي من قصيدة ويبدأ في أخرى : "وله " بضمير الغيـبة وذلك على خلاف عادة الشهاب عندما يورد في ثنايا كتبه التي اطلعت عليها شيئا من شعره كما في الريحانـــــة مثلا فهو يقول : "ولي " ،"وقلت " بضمير المتكلم.

وعدد صفحات هذه النسخة قرابة مائة صفحة ، وعـــــدد أسطرها مختلف ما بين صفحة وأخرى .

---

(١) مقدمة محقق الريحانة ص ٤١ .

٣ - وهنالك نسخة ثالثة للديوان لم يشر إليها عبد الفتاح الحلو بل أشار إليها الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه الموسوم بـ " الخفاجيون في التاريخ " ،حيث ذكر أن لهذا الديوان نسخة بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٠١٧ - ٥٠٥٠.(١)

وقد اطلعت على هذه النسخة ووجدت على أول ورقة في الديوان " ديوان المولى العلامة شهاب الدين الخفاجي المصري رحمه الله تعالى ".

وكتب عليه أن هذا الديوان آلت " ملكيته بالشراء المعتبر في سنة ست وتسعين وألف ، للعبد الفقير مصطفى بن محمد الأنصاري عاملهما بلطفه وكرمه الباري ،وغفر ذنوبهما بجوده آمين ".

وذكر الناسخ أن هذا الديوان المبارك تم نسخه في تاسع عشر شوال المبارك سنة تسع وثمانين وألف .

وتقع هذه النسخة في ٢٦٦ ورقة، عدد الأسطر تسعة عشر سطرا ، ولم أعثر على اسم ناسخها ،وهي تختلف عن نسخة دار الكتب المصرية في الأمور التالية :

أنها تحوي قدرا كبيرا من شعر الشهاب الخفاجي ، بل لم يسقط من شعره فيها إلا النزر القليل -كما سيأتي توضيحه - وهي بهذا تختلف عن نسخة دار الكتب لأنها - أي نسخة الدار - تسقط كل ما حوته " مجموعة قصائد الشهاب " التي أشرت اليها فيما سبق ، عدا قصيدته الأولى التي مطلعها :

---

(١) الخفاجيون في التاريخ ص ١٤٤

أيا شقيق الروض حياه الحمى واحمر خد ورده من الحيا

فهي موجودة أيضا في نسخة الدار .

إن خط نسخة الأزهر حسن جميل مشكول في بعض الأحيان ، ولا يوجد عليها تعليق إلا نادرا ، أما خط نسخة الدار فهو خط مقروء ، ويميل إلى الرداءة نوعا ما ، وعليه كثير من التعليقات ، والأشعار للشهاب ولغيره ولكن هذه التعليقات زادت النسخة سوءا على أن كلتا النسختين لم ترتبا لا على الموضوعات ولا على القوافي بل ترد القصائد فيهما كيفما اتفق ، وإن كنت ألاحظ أن المقطعات شغلت آخر الديوان من كلا النسختين .

ثم إن مقدمة نسخة الأزهر فيها زيادة عما في نسخة دار الكتب ، وأول تلك المقدمة « بسم الله الرحمن الرحيم ما انتظم من عقد ثناء في جيد الأيام ، وما زيّنت حلل البلاغة بطراز الكلام وما لاح في رياض الطّروس من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وما جرى ماء الفصاحة في خمائل البراعة الغضّة الثمار إلا وكانت ثمرة نظمه ونثره ، ووشاح كواعب خطابته وشعره شكرا لله على امتنانه ناظرا من طرف خفي إلى فرائد احسانه » . . . الخ (١)

---

(١) ديوان الشهاب الخفاجي ، نسخة الأزهر ورقة ١ ونسخة دار الكتب المصرية ورقة ١ .

مظاهر عامة في شعره

لا بد لي وأنا بصدد الحديث عن شعر الشهاب الخفاجي ، أن اعرض بإيجاز مظاهر شعره التي من الممكن أن تجلي هذا الشعر وتصوره هيكلا متكاملا ،أستطيع من خلاله أن أتبين السمات التي توافرت فيه إجمالا وأهم ما سأقف عنده حجم نتاجه الشعرى ، ما اتسم به هذا النتاج من طول نفس في جزء منه ، وقصره في جزء آخر ، اضافة الى مطالع قصائده وخواتيمها .

حجم نتاجه الشعرى :

اذا ما طالعنا نتاجه الشعرى ،فإننا نجد له ديوانا ضخما - كما أشرت إلى ذلك سابقا - وهو الذى حوته نسخة الأزهر حيث إن عدد ورقاته ٢٦٦ ورقة ،ولكنني من خلال مطالعتي لشعره وكتبه ، تبين لي أن تلك النسخة على ضخامتها ،لا تحوى كل ما قاله الشهاب من شعر بدليل :

أن عبد الفتاح الحلو ذكر أن للشهاب " قصيدة غزلية في مدح شيخ الاسلام البكرى ،ذكرها بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ،توجد منها نسخة خطية في "غوطة" ألمانيا الشرقية " ٢٣٧ "(١) . ولم أجد تنويها أو ذكرا لهذه القصيدة في الديوان ، إذ من الملاحظ أن ناسخ النسخة الأزهرية يشير إلى السبب الداعي إلى إنشاد الشهاب قصائده وذلك في الأعم الأغلب، ولو كانت هذه القصيدة موجودة في الديوان المجموع لأشار الناسخ إليها وبخاصة كونها في مدح " الشيخ البكرى " وما له من مكانة اجتماعية وروحانية عند كثير من طبقات

----

(١) مقدمة محقق ريحانة الألبا جـ١ ص ٢٧ .

الشعب في عصره نظرا لسيطرة الصوفية وشيوعها في ذلك العصر حتى عند من لا ينتسب لطريقة معينة كالشهاب الخفاجي - كما بينت ذلك في الباب الأول -

ثم إني تتبعت كل قصائد الشهاب في ديوانه ولم أجد ذكرا او إشارةالى شيخ الإسلام هذا في أى قصيدة أو مقطوعة مما يدل دلالة قاطعة على أن ديوان الشهاب لمّا يجمع بعد كاملا .

ثم أني وجدت في الريحانة مقطوعات لم أعثر عليها في الديوان المجموع كقوله :

ذَهَبَ الكرامُ وجاءني الجرب الذى
من قبل عهد القارظَيْنِ تغبَّرا
فإذا دعا داعي الغرام لقُربهمْ
في ظلّ أُنْسٍ بالسرور تأزَّرا
أرْضَى تلاقي ذكرنا مع ذكرِهمٌ
في روضِ طِرْسٍ بالمعاني أثْمَرا (١)

وكقوله :

بَعَثْتُ كُتْبِي إلى الأَحبابِ نائبةً
عن العيونِ إذا اشْتاقتْ إلى النَّظر
فالخطُّ في الطِّرسِ والأَلحاظُ ناظرةٌ
صِنْوانِ في شَبهِ المعنى وفي الصُّوَر

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٦٩ .

فإنَّ هذا سوادٌ في البياضِ له ٭ شكلٌ كأهدابِ أجفانٍ من الشَعَرِ (١)

وكقوله :

إذا نكباتُ الدهر وافتكَ فاصطبرْ ٭ تراها تجلت فالزمان أبو العبر

إذا مزّق الوردَ النسيمُ سُحَيْرةً ٭ ترى في أيادي القُضْبِ من شوكهِ إبَرْ (٢)

وهناك منظومة إلشهاب المسماة " ريحانة الند " لم أجدها في الديوان علما أنها منظومة طويلة تحوى من المعاني والحكم الجيدة ما يجعلها جديرة بالتسجيل ،لأنها تنبيء عن ذوق أدبي رفيع ،وإيقاع جميل ، إلى غير ذلك من الأمثلة (٣).

والشيء الذى استطيع أن اقوله الآن وباطمئنان أن الشهاب الخفاجي شاعر مكثر في نتاجه الشعري ،إلى درجة كبيرة ، ولا يساورني أدنى شك أنه شاعر من كبار شعراء عصره ،وعلى كل حال فهذا النتاج له قيمته الأدبية ،والتاريخيه فهو يصور لنا أن الشعر ما زال له رواده ،ورجاله ،وأنَّ ماقيل عن جمود القرائح في هذا العصر قول فيه كثير من التجني ،وأنه مبني على نظرة جزيئة ضيقة .

---

(١) و (٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٤٨٥ .

(٣) هنالك كثير من شعر الشهاب لم يسجل في هذا الديوان المذكور ، مما لا يدخل تحت حصر وسيتضح من الأمثلة التي سترد من شعره في الفصلين القادمين ،وذلك فيما لم أشر إلى الديوان كمصدر من مصادره .

مطالع قصائده وخواتيمها

لقد عني كثير من الشعراء بمطالع قصائدهم عناية فائقة ، ومن حقهم فعل ذلك ، لأنّ المطلع هو الديباجة التي تطرق أذن السامع ، وفكر القارئ من أول وهلة ، فإذا ما كانت براقة مشرقة فإنها ما من شك ستدفع القارئ أو السامع إلى الإنصات والمتابعة ، وترقب ما سيأتي بعدها بلهفة وشوق ، وإذا ما انتقل الشاعر من جمال التقديم إلى جمال الموضوع فسيحوز إعجاب السامع أو القارئ ، " ويعكس المطلع الردئ فإنه يصك الآذان ، ويصرف السامعين ، وقد يجر إلى الحكم على شعر الشاعر بالرفض والاستهجان ".(١)

ونحن إذا ما طالعنا مطالع شاعرنا ، وعلمنا سلفا أنه أنشأ قصائد في أغراض شتى عرفنا مقدرته على صياغة مقدمات كثير من قصائده ، نحو قوله :

أتظنُّ وَجْدي للسلوِّ يجيب ... وعلى فُؤادي مِنْ هَواكِ رقيبُ
كيف السبيلُ إلى العيون بأنْ ترى ... طَيْفاً يمرُّ وسَيْلُها مَسْكوبُ
ما لي وحقِّ هواك ذنبٌ عِنْدهُ ... إلا الغرامُ ولستُ منه أتوبُ (٢)

وكقوله في مدح أحد معاصريه :

أثارك قلبي في لظى الوَجْدِ مُجْمرا
وطيبَ ثناءٍ فوْقهُ فاح عنْبرا

---

(١) دكتور محمد بن سعد بن حسين ، الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهيد وآثاره الأدبية ، مطابع اليمامة الرياض الطبعة الاولى السنة ١٣٩٩هـ جـ٢ ص ٢٧١ .

(٢) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٧١ .

تَرَقَّقْ فما ابْيَضَّتْ دموعيَ بَعْدَكم ... ولكنّها شابتْ وصَبْري تعــذرا

وغُصْنُ قوامٍ كلُّ غُصْنٍ لِحُسْنِهِ ... بأوْراقِهِ مِنْ خَجْلةٍ قَدْ تَسَتَّرا

وعينٌ لهُ قدْ أهْدَتِ السُّقْمَ والهوى ... فأهْدى إلى أجْفانِها طَرْفيَ الكرى

ثم بعد ذلك شرع في المدح حين قال : (١)

وما كانَ لونُ التبْرِ أصْفَرَ إنّما ... لخوفِ نَواهُ بالنَّدى صارَ أصْفرا

فلا شك أن الناظر لهذين المطلعين لا يسعه إلا الاعجاب بهما أسلوبا وصياغة وفكرة وجمالا ، ذلك أن لصيغة الاستفهام أثرا واضحا على ذهن المتلقي واسترعاء انتباهه والشهاب يفعل ذلك كثيرا في عدد من قصائده ،وأجده تارة يبدأ بعض قصائده بصيغة النداء كقوله .

يامَنْ يلومُ بُعَيْدَ ما بــي ... الأمْرُ جلَّ عن العِتابِ (٢)

إلى غير ذلك من الأمثلة الدالة على حسن اعتنائه بمطالع قصائده مما يكون له عظيم الأثر في ذهن القارئ.

فإذا ما تركنا المطالع إلى الخواتيم فإنني لم أجده يهتم بتنسيقها ، وتزيينها ، كما فعل في المطالع ، بل يتركها تنتهي في كثير من الأحيان نهاية طبيعية ،دونما معاناة في سبكها أو عناية واهتمام باجادتها كقوله :

رَوْضٌ يروقُكَ عاقــدا ... من نورِهِ ثمراً دلـــولا

ويرى النَّسيمَ بجـــوِّهِ ... نَشْوانَ قدْ جرَّ الذيــولا

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣٨ - ٣٩ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٧١ .

والنورُ يغمرُهُ علـــــى ظلٍّ بـهِ حَمِدَ النَّـــزولا

وكذاكَ قَدْ حَمِدَ السُّـــرى في الصبحِ مَنْ عَرَفَ المقيـلا (١)

فهذه الخاتمة تركت على حالها دونما اهتمام ،فالقصيدة في أصلها ، نصيحة مهداة إلى أحد أصدقائه - كما يفهم من معناها - ولكنه استرسل في وصف الروض فختم به موضوع قصيدته ،وهذه الطريقة هي الغالبة على منهج الشهاب في خواتيم قصائده ، على أنني أجده في بعض قصائده وبخاصة ما يمكن أن نعده من المطارحات الإخوانية يختتمها بالدعاء لصديقه بطول البقاء ،والدوام مع ازجاء التحية كقولـــه في قصيدة أرسلها لأبي المعالي الطالوى (*) :

فإليكها مني قوافي دَوْحُهـا زاهٍ بغيريد النُّهي لم يُغْرَسِ

بكراً إلى كفءٍ تُزَفُّ وَمَهْرُهـا نَقْدُ الجوابِ براحةِ المُستأنِسِ

لا زِلتَ في حُللِ المَسَرَّةِ رافلاً ما حدَّقَتْ ليلاً عيونُ الخُنَّسِ (٢)

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٥ .

(*) هو درويش محمد بن احمد وقيل محمد أبوالمعالي الطالوى الأرتقي الحنفي ولد سنة ٩٥٠ هـ كان ماهرا في كثير من الفنون جمع أشعاره ومراسلاته في كتاب سماه "سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر ، حققه الدكتور محمد مرسى الخولي في مجلدين ، توفي سنة ١٠١٤ هـ ، الريحانة جـ٢ ص ٥٣ ، وسانحات دمى العصر ..." طبعة عالم الكتب سنة ١٤٠٣هـ جـ١ ص ١٦ ومابعدها .

(٢) نفس المصدر ورقة ٣٢ ، وريحانة الألبا جـ١ ص ٥٣ ، وسانحات دمى القصر جـ٢ ص ٣٠٤ .

وكقوله من قصيدة أرسلها إلى " المولى عبد الرحمن بن عماد الدين الشامي الحنفي " :

وحديثُ فضلِكمُ المُعَنْعَنُ مَجْدُه
أَضْحى بأصْلِكَ عالِيَ الإِسْنادِ

يُثْني عليه رائحٌ أوْ غادِي
أَبَداً بِرغْمِ عَشيرةٍ أوْ غادِ

واسْلَمْ ودُمْ في عزَّةٍ أيّامُها
لِلقائِهِ لبِسَتْ حُلَى الأعْيادِ (١)

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٦٨ ، وريحانة الألبا جـ ١ ص ٢٢٢ .

شعره بين الطول والقصر

تتفاوت قصائده ،ومقطعاته من حيث الطول والقصر ، فأجده في قصائد كثيرة ذا نفس طويل ، وبخاصة عندما يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ،ويعارض فحول الشعراء في قصائدهم ، فمثلا قصيدته التي مطلعها :

ما سُلَيْمى ما هِندُ ما أَسْماءُ   أَنْتَ معنىً وكلُّها أَسْماءُ
أيُّ معنىً بهِ العباراتُ ولْهى   حين حارَ المديح والإِطراءُ
وقفَ الفكرُ عن بلوغِ مَداهُ   كيْفَ يَمْشي مَنْ قَيْدُه الإِعياءُ (١)

أجد عدد أبياتها نحو ثلاثمائة بيت ،وهي أطول قصيدة له فيما عثرت عليه من شعره . ولم تكن هذه القصيدة وحدها ذات طول ، فلها مثيلات في شعر الشهاب ،فقصيدته التي عارض بها مقصورة ابن دريد عدد أبياتها ثلاثة وخمسون ومائة بيت ، وقصيدته الأخرى التي عارض بها معلقة زهير بن أبي سلمى عدد أبياتها أربعة وعشرون ومائة بيت وقد ذكرت مقدمات وخواتيم هذه القصائد فيما سبق .

إلى غير ذلك من القصائد الطوال والتي تدل على النفس الشعرى الطويل و على المقدرة الكبيرة على النظم .

وإذا ما نظرنا إلى المقطعات القصيرة في شعره ،فانني ألاحظ أنها تشكل حجما كبيرا بالنسبة لديوانه الذى بين أيدينا فهي حوالي ثلاثة أخماس الديوان ، وكثير من هذه المقطعات ـ وبخاصة ما جاء منها في الحكم والأمثال والنصائح والألغاز أو معنى راقه فنظم حوله

---

(١) ديوان الشهاب الخفاجي نسخة الأزهر ورقة ١٠ .

ونحو ذلك - يأتي في أبيات قليلة تتراوح ما بين بيتين إلى خمسة أبيات ، إلا أن ما ورد منها على بيتين هو الغالب ، والأمثلة على ذلك تتضح لكل ناظر في ديوانه . كقوله :

وَنَقِيرٍ مُعَمَّرٍ في ثيابٍ ... دارساتٍ للقطِّ فيه بيوتُ
فكأنَّ الأيامَ إذْ نسيتْهُ ... نَسَجَتْ فَوْقَ شَخْصِهِ العَنْكَبُوتُ (١)

وكقوله على ثلاثة أبيات :

اصْبِرْ ففي الصَّبْرِ إعزازٌ ومَكْرُمةٌ ... بهِ يَنَالُ الفتى ما كانَ مُمْتَنِعا
ودَرِّجِ الوقتَ تلقَ الضِّيقَ في سعةٍ ... كَمْ من سَمُومٍ بتدريجٍ لها انْتَفعا
ولا تَكُنْ تابعاً للناسِ إمَّعةً ... كم تابعٍ بانقطاعٍ عاد مُرْتفعا (٢)

ومثال الذى على أربعة أبيات : قوله :

لحا اللّهُ أقواماً سواءٌ لديْهِمُ ... أصاحَ غرابٌ أمْ تغَنَّتْ حمائمُ
أقاموا بشِعْبٍ دارسٍ فيه يَسْتَوي ... نسيمُ صَبا أسْحارِهِ والسمائمُ
أفي الحقِّ أنْ يغدو نِظَامي كغيرِهِ ... وذلك في جيدِ الزمانِ تمائمُ
يسرُّ طفيليُّ إذا نالَ مَطْعَماً ... سواءٌ لديْهِ عرسه والمآتمُ (٣)

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٠٧ .
(٢) نفس المصدر ورقة ١١٣ .
(٣) نفس المصدر ورقة ١٦٢ .

ومن مقطعاته التي نظمها على خمسة أبيات ،قوله :

أقولُ وعِنْدي زَفْرةٌ لَمْ تَزَلْ تَرْقا ... ويتبعُها لي دَمْعَةٌ لم تَكُنْ تَرْقا

ألا هَلْ سَبيلٌ ليْ إلى الرَّوْضةِ التي ... بها جَنَّةُ المأْوى وَقَدْ فُتِنتْ عِشْقَا

وَهَلْ أرِدَنْ زَرْقا عيسا تَحفُّها ... ورودٌ كأهدابٍ على مُقْلةٍ زُرْقَا

وهل أَقِفَنْ تِلْقاءَ أكرمَ مُرْسَلٍ ... وأشكو لهُ ما قَدْ لقيتُ وما أَلْقى

أُعانق آمالاً حِسَاناً حُرِمْتُها ... كأنّيَ عِنّينٌ تَزَوَّجَها رتْقا (١)

ولعل طول النفس في قصائده التي أشرنا إليها ،وانطلاق عواطفه وانفعالاته ، ذلك لأنَّ التيار التاريخي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يمده بكثير من المعاني والصور ،وأن مجال القول متسع في صفاته عليه السلام ، ولا ننسى أن مديحه صلى الله عليه وسلم كان موضوعا مفضلا عند كثير من الشعراء في تلك الأزمان المتأخرة ،وكثيرا ما يكون في هذا المدح تغن وذكر لأمجاد سلفت يبكي عليها الشعراء ،ويتمنون عودتها للأمة الاسلامية ، واستمر هذا الغرض إلى عصرنا الحاضر .

---

(١) المصدر السابق ،ورقة ١٦٦ .

زرف في المشي زرفا : أسرع .

شـــاعريتـــه

لقد كان اهتمام الشهاب الخفاجي بقول الشعر يأتي في درجة أولى تضاهي اهتمامه بالدروس الدينية والعربية والأدبية ، التـــي كان يلقيها ويؤلف فيها ،وعلى أية حال كان يقول الشعر لأسباب كثيرة تدعوه إلى قوله ،وأجد أن شعره كثيرا ما يصطبغ بالجانـــب العلمي كقصيدته الهمزية التي في مدح النبي صلى الله عليه وســـلم وبعض مقطعاته القصار ، وما ذلك إلا نتيجة لثقافته الضاربة في كل فن من فنون المعرفة ، فاذا ما أردت أن أحدد الفترة الزمنية التـــي تفتقت فيها شاعريته فأستطيع أن أقول : إن فترة طلبه العلم التـــي مرّ بها في أول حياتـــه جعلتـــه يقف على جوانب علمية وأدبية واسعـة ، مما لا يدع مجالا للشك أنها أذكت في نفسه هذه الروح الشاعـــرة ، وشدته إلى أن يخوض في لجة الأدب الفسيح ، بصورة أستطيـــع أن أقول عنها مطمئنا إنها بلغت حدا جيدا في الجمال الفني ، والإبداع في التصوير وأنها بلغت من النضج الأدبي - حسب ما أرى - والإجادة في التعبير عما يدور في خلده ،وتحس به نفسه ،وإليك ما قاله عن نفسه إبان طلبه العلم مبكرا فإنه يدل دلالة قاطعـة أنه بدأ الشعـــر في وقت مبكر جدا حيث قال : "ومما مدحته به - أي ابراهيــــم العلقمي وقد ترجمت له ضمن مشائخه - لما حضرت عنده وهو يفتـــي :

أَبَادِرةَ الزَّمانِ بقيتَ أَنْعِـــمْ بإِصْغَاءٍ إلى العبدِ الضَّعيفِ
زَمانُك كلُّه أَمسى ربيعـــاً خَصِيبَ الفَضْل ذا ظلٍّ وريْـفِ
فما بالُ الفتاوى في انتشـارٍ ببابكَ نَثْرَ أَوْراقِ الخريـــفِ (١)

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٧٨ .

وإذا ما طالعنا وفاة ذلك الرجل وجدناها سنة ٩٩٤هـ/ فمعنى ذلك أن الشهاب وعمره السابعة عشرة تقريبا أصبح متمكنـــا من قول الشعر ، وهي مرحلة مبكرة /وهنالك دليل آخر على تمكنه ـــن قرض الشعر مبكرا هو ما أورده في الريحانة حين قال : . . . . . وأتا أجتني باكورة التحصيل فكتبت له -لعلي بن غانم المقدسي ، تقدمت ترجمته - عند ورود البشائر بوفاء النيل بيتين هما :

قسماً ليْسَ نَيْلُ كَفِّكَ كالنِّيلِ م إذا رايةُ المكارمِ تُنْشَـــرْ
أَنْتَ عِنْدَ الوفاءِ طَلْقُ المُحَيَّا وأَرى النِّيلَ في الوفا يتكَدَّرْ

فنثر عليهما نثار الاستحسان ،وقال : هكذا ينبغي أن تنظم عقـــود الجمان "(١) وهذا يدل على أنه قرض الشعر مبكرا ،وذلك أيام طلبـــه العلم على يد العلماء .

أما عوامل هذه المقدرة الشاعرية فإنني أستطيع رجعهـــا بإيجاز إلى الأمور التالية :

الثقافة الشخصية:

فقد عرفنا في حياة الشهاب العلمية أنه درس العربية وآدابها لذلك فلا يساورني أدنى شك أنه حفظ الكثير من الأشعار العربيـــة قديمها وحديثها وتأثر بها ، فقال شعرا كثيرا على منوال ما قرأ أو حفظ من باب المعارضة والمضاهاة وإظهار المقدرة على النظم على منوال الشعر الجيد ، مع التعبير عن مشاعره وأحاسيسه متأثرا بثقافته الأساسيـــة ،

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٤ وخلاصة الأثر جـ٣ ص ١٨٢ .

ولا أدل على ذلك من كثرة معارضاته لفحول الشعراء كقوله في مطلع قصيدته التى عارض بها معلقة زهير بن أبي سلمى وهي في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أَبَدْراً أضاء الأرضَ للعُرف تَمِّم   وبلِّغْ أخاك الشوقَ عنِّي وسلِّم
تَلَطَّفْ بابلاغِ التَّحيةِ سُحْرةً   فربَّ رسولٍ حائزٍ أجرَ مُنْعِم (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تدل على قدرة الشهاب في النسج على منوال الآخرين مما سأعرض له في غير هذا الموضع بإذن الله .

ومن الأدلة على أن للثقافة الشخصية لديه دورها الفعال في نظم الشعر ، وإذكاء روحه الشعرية ، أننا نجده في كثير من الأحيان يعجب بقول مأثور سواء أكان آية قرآنية أم حديثا نبويا أم حكمة أم مثلا ونحو ذلك فسرعان ما ينظم حول ذلك المعنى ويكفي هذان المثالان لتوضيح ما ذكر :

دَهْرٌ يَجودُ بِمِثْلِهِ   أَنْعِمْ بِهِ دَهْراً وفي
روِّى بكأسٍ عَلومِهِ   وختامُهُ مِسْكٌ وَفي (٢)

وقوله :

حُبِّي لمحمدٍ حَبيبِ البارى   في طِيْنةِ خِلْقَتي ورُوحي سار
والمَرْءُ ومَنْ أَحبَّ في الخُلْدِ معاً   طُوْبى لي إنْ غَدَوْتُ عبدَ الدَّار (٣)

وهو مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : " المرء مع من أحب " .

---

(١) ديوان الشهاب ، نسخة الأزهر ورقة ١٩ و مجموعة قصائد الشهاب ورقة ٣٠ .

(٢) نفحة الريحانة جـ٤ ص ٤٠٣ .

(٣) ريحانة الألبا جـ١ ص ١٤٤ .

البيئة العلمية والأدبية من حوله يكثر فيها الشعراء الذين يباهون بهذه الموهبة التي حباهم الله إياها ، فيتبادلون مع بعضهم بنات أفكارهم ، فيجد دافعا قويا إلى أن يخوض معهم فيما خاضوا فيه ، خاصة إذا كان المجال مساعدا له في ذلك ، فكثيرا ما أجده يقف معهم موقف النّد للنّد غير قاصر عنهم أو دونهم في المستوى ، هذا إنْ لم أجده يحاول أن يبزهم ويتفوق عليهم ، ولا يساورني أدنى شك أنه كان في أول أمره أحد من خاضوا غمار هذا الميدان ، وفي منافسته لهاتين الثلتين دفعٌ قوي له على قول الشعر والتفنن فيه ، وإذا ما ألقيت نظرة لكي أتبين من خلالها صدق قولي وجدته واضحا كل الوضوح ، ويكفي المثال التالي للدلالة على ذلك - على أني سأعرض بإذن الله لمطارحاته في حينها -

قال الشهاب عند ترجمته لعبد الرحمن بن عماد الدين الحنفي :

"وقد دارت بيني وبينه كئوس محاورات لها ثغر الحباب باسم ، تنظم منها في جيد الاداب عقود لها بنان البيان ناظم ، ولما قوضت خيام المقام ، وزفت مطايا العزائم ، كتبت له مودعا وشاكرا لما أفاضه علي من سوابغ المكارم قولي :

قَسَماً بِلُطفٍ مالكٍ لفُؤادي   وبِرَوضِ أُنْسٍ مُثْمرٍ لِودادي

وبِطَلْعةٍ نزلَتْ لدى حَرَمِ العُلا   وبِسُدَّةٍ هي قِبْلةُ القُصَّادِ

إنّي ارتَحَلْتُ وذكرُكم أبداً على   طُولِ المَدى ماءٍ يِ النَّيرُوزادي

يا واحدَ الدُّنيا وبيتَ قَصيدِها الزّاهي م

لدَى الإنشاءِ والإنشادِ

يا بنَ العِمادِ لأنْتَ عُمْدةُ سادَةٍ تُمْتَا حُ في الإصدارِ والإيرادِ (١)

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٢٢٢ ، والديوان نسخة الأزهر ورقة ٦٨ .

الى آخر تلك القصيدة التي تبلغ عشرة أبيات .

ولقد أجابه ابن العماد بقصيدة على نفس الوزن والقافية تبلغ أحد عشر بيتا منها :

هذي دِيارٍ نورُها ليَ هادي ... وشِهابُها رُجُمٌ على الأضداد

أم رَوْضةٌ بسَمَتْ ثغورُ زهورِها ... أم حِلةٌ وُشِيتْ من الأبرار

بُنِيَتْ بأيْدِي مَلِكٍ رقَّصَ خفاجةٍ ... تَبَّتْ أيادى فكرِ قصَّ إِياد

مولايَ يا فرْدَ الوجودِ فضائلاً ... وشمائلاً يا أوْحد الآحاد (١)

بهذا قد اتضح إذاً أن للبيئة العلمية التي عاش فيها الشهاب الخفاجي دورا كبيرا جدا في إذكاء وصقل موهبته الشعرية .

أما الدافع الثالث الذى رأيته كثيرا ما يدفع الشهاب إلى قول كثير من شعره فهو :

الحالة النفسية التي مر بها .

فإنني أجد هذه الحالة التي يمر بها الإنسان وهو يخوض غمار الحياة يواجه في ثنايا الطريق حزنا وفرحا ، غضبا ورضا ، لابد وأن يكون لها الأثر الفعال في نفسه ، فيحاول التعبير عنها بقدر ما يستطيع ،ليروح عن نفسه ،أوليصور مدى اغتباطه بهذا الأمر الحادث ، فما بالك بشاعر أوتى من أزمّة البيان ما أوتي فأجده يعبر عن نفسه أصدق تعبير في شعره عامة ،وفي أثناء حديثه عن خصومه ، وما أحدثه عزله عن وظيفته القضائية من رد فعل عنيف ، وأجد

---

(١) المصدر السابق الأول جـ١ ص ٢٢٢ .

كثيرا من شعره في هذا الغرض من النيل من قيمة بعض معاصريه الذين تصدروا الوظائف العليا في الدولة ،وأجده كثير الحديث عن تصدر الجهلة ،وعما آل إليه حال الدولة - كما يراه - من فساد وتسلط أهل الطمع . على أن الشيء الذى استرعى انتباهي هو أن شعر الشهاب في المعنى السابق ،عبارة عن مقطوعات ليست بذات طول .

الفصل الثاني

- أغراضه الشعرية .

الفصل الثاني

أغراض شعره

إن الناظر لما خلفه الشهاب الخفاجي من تراث شعري يجد أنه ، عرف و نظم في جميع الأغراض الشعرية التقليدية التي توارثها الشعراء على مر العصور من مدح،وغزل ، ووصف، ورثاء واعتذار وهجاء ،و نحو ذلك ، على تفاوت بينها من حيث القلة والكثرة ، على أنه كان له باع طويل لا ينكر في بعض هذه الأغراض .

والشيء الذي استرعى انتباهي من خلال مطالعتي لديوانه ،أنني لم أجد عند هذا الشاعر شيئا مما وجد عند بعض شعراء عصره ،أو ما قبل عصره من موضوعات فيها نوع من الابتكار إلى حد ما كالتخميس والتشطير ونحو ذلك ،وهذا إنما يدل على شغف الشهاب بالموروث ومحاولة عدم الخروج على ما أثر عن عمالقة الشعر العربي ممن سبقوه ، حيث يعتبرون حتى اليوم مثالا يحاول كل الشعراء أن يبلغوا منزلتهم الشعرية ، فمن هذا الباب أظن أن هذا الشاعر ضرب صفحا عما استحدث في عصره أو ما قبل عصره .

ولا يظن ظان أنه لم يك مجاريا لعصره وما فيه من أحداث ،فذلك ظن مجانب للصواب إذا ما عرفنا أنه نظم في بعض أحداث جرت له وعبرت عن نفسه وخواطره أتم تعبير إلى جانب ورود أبيات له في ظواهر اجتماعية حدثت في عصره أو قبله بقليل ، كشرب الدخان مثلا ، قال الشهاب في الريحانة : ومن صحبته بالروم السيد محمد بن برهان الحميدي (*)

(*) هو محمد بن محمد بن برهان الدين الحسيني تولى نقابة الأشراف بالروم ،كان عالما بارعا ذا معرفة بلسان العرب ، عزل عن نقابة

===

كان أخي وصنو روحي ورفيقي ... وكان يوما بمنزلي مع الإخوان ، فأرادوا الجرى على العادة في الدخان ،فأبى ذلك لأنه يراه من منكرات الزمان ، فقلت له بديها :

فديتك جُدْ بإذنٍ للنَّدامى ليأتوا بالدخَان بلا تواني

تُريدُ مهذَّباً لا عيبَ فيه وهلْ عُودٌ يفوحُ بلا دخانِ (١)

والمهم أن أقول في هذه المقدمة إن الشهاب لم يكن بمعزل عن مجتمعه بل أجده مشاركا في أحداث عصره ،كما عرفنا ذلك في ثنايا حياته وكتاباته الإنشائية ،فكذلك شعره يعطينا صورة واضحة عن ذلك على أنه " لم تكن وظيفة الشعر لديه هي التعبير عن العاطفة والوجدان ،وأن الشاعر لا يريد من وراء إلا التنفيس عن عواطفه بالتعبير عنها مكتفيا بما يجده من راحة في هذا التعبير" (٢) بل أجده إلى جانب ذلك يهدف إلى " التأثير في غيره وأن له وظيفة اجتماعية يقصد إليها ... قصدا " (٣) .

فهو يجمع بين الأمرين ويتضح ذلك من خلال أهم أغراضه الشعرية وإليك بيانها .

=== الأشراف آخر عمره ،وولي قضاء مكة فسافر إليها عن طريق البحر ، فمات قبل أن يصل اليها سنة ١٠٤٣هـ . خلاصة الأثر جـ٤ ص١٧٧ ومابعدها ،والريحانة جـ٢ ص ٢٧٩ .

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص٢٧٩ - ٢٨٠ .

(٢) محمد ابراهيم نصر ،ابن سناء الملك حياته وشعره طبعة دار الكاتب العربي بالقاهرة سنة ١٣٨٨هـ جـ١ص ٥٧ .

(٣) زكي مبارك المدائح النبوية طبعة دار الكتاب العربي القاهرة سنة ١٣٨٧هـ ص١٧ ومابعدها .

المـــــــــدح

إن الناظر لديوان الشهاب يخرج بنتيجة مفادها : أن فن المدح يعتبر من أهم الأغراض عنده وأشدها وضوحا ،ويمكن لي أن أقسمه إلى ثلاثة أقسام.

المدح النبوي:

استأثر هذا النوع من المدح بالقسط الأكبر من شعره بل ويستغرق قصائده الطوال وقد عرف هذا اللون منذ فجر الدعوة الاسلامية ،إلى أن أصبح فنا قائما بذاته من فنون الشعر المختلفة ،ولاقى عناية خاصة من بعض الشعراء ،وفي الحق أنه لون من العواطف الدينية ،وباب من الأدب الجميل ،يصدر عن قلوب مفعمة بالإعجاب والحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،على الرغم من الانحرافات والتجاوزات العقدية الكثيرة.(١)

ولا أريد أن أبحث التطور التاريخي لهذا الفن لئلا أخرج عن موضوع البحث ،ولكنني أقول : إن الشهاب الخفاجي كان من اولئك الذين طرقوا هذا اللون من المديح ، حيث أجد له ثلاث قصائد في مقدمة الديوان تعتبر من أطول قصائده إلي جانب قصيدة أخرى أشرت اليها فيما سبق قرابة ستة عشر بيتا ، أضف إلى ذلك أن له كثيرا من المقطعات المتناثرة في ثنايا الديوان هنا وهناك ،وبذلك أستطيع أن أخرج بحقيقة مفادها أن هذا اللون من المديح أولاه الشهاب عناية فائقة ،وأول تلك القصائد الطوال المشار إليها قصيدته التي صدر بها ديوانه ،والتي عارض بها مقصورة ابن دريد ،لكنه يرى أن مقصورته أفضل من مقصورة

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ ومابعدها .

ابن دريد وذلك حين قال في وصفها :

بَيْنَ يَدَيْها ابنُ دريدَ حاجبٌ ... وأَلِفاتُ شعْرِه مثلُ العَصَا

ومطلع قصيدة الشهاب قوله :

أَيا شقيق الروض حيّاه الحَيَا ... فاحمرَّ وردُ خدِّهِ من الحيا

ومنها في الغزل قوله :

شِفَاءُ وَجْدِي لثْمُ خالِ خَدِّهِ ... والحبّةُ السوداءُ للداءِ شِفَا

يتركني تُرْكُ الظّلِيمِ ظُلْمُه ... وهذِهِ شِيمةُ آرامِ الفلا

تَعَلّمتْ منهُ الليالي غَدْرَها ... فأنْجَزَتْ باليأسِ مِيعادَ الرَّجا

ومنها في وصف السحاب :

غَمَائِمُ لُعْسُ الشّفاه ابْتَسَمَتْ ... عن ثَغْرِ بارقٍ إذا الثّغْرُ بكى

تَفُكّ مِنْ مَحْلٍ وجَدْبٍ أَسْرَهُ ... وتنثرُ الدُّرَّ على هامِ الرُّبى

يسوقها الرعْدُ بصَوْتٍ مُذْهِبٍ ... من بَرْقِهِ وهي بطيئاتُ الخُطا

ومنها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

فوقفَ الحُسْنُ عليه حائراً ... متيماً وَلْهانَ في ذاك البَهَا

سرى إلى السّبعِ الطباق جسمُهُ ... في صُحْبةِ الروح الأمينِ ورقى

يُغْني عن المدحِ رفيعُ قَدْرِهِ ... فيُمْدَحُ المدحُ به وما درى

كلُّ لباسٍ للمديحِ قاصرٌ ... عنه يَحُلُّ رَحْلَهُ دون المدى (1)

---

(١) الديوان نسخة الأزهر ورقة ٤ -٨ .

ومن قصائد الشهاب في مدح النبي صلى الله عليه وسلم " الهمزية "

يبدأها الشاعر باستفهام ،يخيل إليّ أنه أراد به الإعراض عن ذكر النسيب ، بدليل دخوله مباشرة في موضوعه :

ما سُليمى ما هِنْدُ ما أسماءُ   أنْتَ معنىً وكلُّها أسماءُ

ذِكرُ طلْه ووصْفُ يمٍن فيه   قَصَصٌ هام عندهُ الشعراءُ

كَمْ جَرَى خَلْفَهُ كُمَيْتٌ يراعٍ   فبكى إذْ ثَناهُ عنه الحفاءُ

ويستطرد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يشرع في سيرته ، ثم يذكر أحداث السيرة ، يبدأ بمولده ،ويذكر كنيته عليه الصلاة والسلام في الصغر بالأمين ،ونشأته يتيما :

قدْ دعوهُ الأمينَ وهو صغيرٌ   دعْوةً أذْعَنَتْ لها الكُبَراءُ

وَجَدُوهُ دراً يتيماً تَرَبَّى   لم يُدَنِّسْهُ عنصرٌ وهباءُ

ويذكر علة يتمه :

ذاكَ كَيْلا يكونَ مَنٌّ عليهِ   لأُصولٍ له إليها اعْتِزاءُ

ثم يذكر شيئا من معجزاته وخصائصه صلى الله عليه وسلم :

وعليهِ إذْ غارَ من عَيْنِ شَمْسٍ   ظَلَّلَتْهُ سحابةٌ وطُفَاءُ

وله الأرْضُ مَسْجدٌ فجميعٌ   مَنْ عليها لَهُ بِهِ الاقْتداءُ

وله الضَّبُّ ناطقٌ باعْترافٍ   ومن السَّعدِ تَنْطِقُ العجماءُ

ثم يتكلم عن جهاد النبي صلى الله عليه وسلم:

كَمْ وطيسٍ حماهُ في الدينِ حرباً   فاسْتَقَامتْ قَنَاتُه العَوْجاءُ

ونخيلٍ من العِدا انْقَعَرتْ   من رَشْقِ نَبْلٍ كأنَّهُ السلاَّءُ

الى أن يقول :

ومراضُ القلوبِ قَدْ قَصَدَتْهُم ... سُمْرهُ حِيْنَ حُمَّت الهيْجَاءُ

ما سَقَاهمْ إلا كئوسَ المنايا ... رُبَّ داءٍ له الممات دَوَاءُ

قَدْ مَحاهُمْ وطَهَّرَ الأرْضَ منهم ... ومع السيلِ لا يقرُّ الغُثَاءُ

وبطونُ الطيرِ أمْسَتْ قبوراً ... للعدى إذْ تمزّق الأشلاءُ

ما سَمِعْنا بالقبر سار اشْتياقاً ... ليُوارى سَوْآتِ مَنْ قد أساءُوا

ومن أهم أحداث السيرة التي تعرض لها في أثناء هذه القصيدة : الإسراء والمعراج حيث قال :

إذْ سَرَى جسْمُه مع الروح ليلاً ... قَبْلَ صبحٍ فأحمد الإسراءُ

ومن العالمِ المُقَدَّسِ وافى ... مَفْرِسَ العزِّ طيبة الفيْحاءُ

ثم يتحدث عن تآمر أهل الشرك بمكة ، والسبل المؤدية إلى الخلاص من قائد هذه الدعوة الجديدة عليهم :

صمَّمُوا رأيهم على الفتكِ فيه ... فتوارتْ لخوفِهِ الآراءُ

ورأوا نَفْيَهُ لقومٍ سواهم ... ولكم أثبتَ المرامُ انتفاءُ

لم يُصب نَصْبُهم مكائِدَ شرٍ ... بل تساوى التحذيرُ والإغراءُ

فسرى قاطعاً لشُقَّةِ سَهْلٍ ... وعليْهِ تُرَحِّبُ البيداءُ

فارقَ الرَّكْبَ والحطيمَ فَحَنَّتْ ... لنواهُ الجبالُ والبَطْحاءُ

ثم يصور أحداثا أخرى كنسج العنكبوت خيوطها على بوابة الغار ، وكذا وضع الحمامة بيضها عليه ، ومحاولة سراقة رضي الله عنه اللحاق بالنبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه رضي الله عنه إلى غير ذلك من الأحداث المهمة

التي حصلت بعد مهاجر النبي صلى الله عليه وسلم.

وقبل أن يختم القصيدة بأبيات عدة يستغيث بالنبي عليه الصلاة والسلام ويتوسل به كما هي عادة بعض الشعراء دون نظر وروية لما يجره ذلك العمل من التجاوزات العقدية التي عدها علماء السلف الأثبات من أمثال ابن تيمية وابن عبد الوهاب وغيرهما من الشرك حيث لا يجوز الغوث والدعاء والالتجاء إلا بالله وإليه وذلك عبادة لا يجوز صرفها إلا الى الله.(١)

ومن تلك الاستغاثات قوله :

يا رسولَ الإلهِ خُذْ بيدي مِنْ ... عَثْرةٍ للزمانِ فيها عَنَاءُ

صيَّرَتْني ما بَيْنَ خَفْضٍ ورَفْعٍ ... كقوافٍ أَقْوَتْ بها أَكْفَاءُ

يا مَلاذَ استغاثتي ونِدائي ... حِيْنَ خانَ الزمانُ والأَولياءُ(٢)

ويختم القصيدة بعد ذلك بذكر الخلفاء الراشدين ومدحهم بعدة أبيات .

ومن مدائح الشهاب في النبي عليه الصلاة والسلام قصيدته التي عارض بها معلقة زهير بن أبي سلمى والتي مطلعها :

أَبدْراً أَضاءَ الأَرْضَ للعُرفِ تَمِّمِ ... وبلِّغْ أخاك الشوقَ عنِّي وسلِّمِ

وهذه القصيدة لم يكن وجه المعارضة فيها كونها على قافية وبحر معلقة زهير فحسب بل تحوى قدرا لا بأس به من شعر الحكمة على غرار معلقة زهير كقوله :

وَمَنْ يكُ فَرْعاً للمكارمِ مُثْمِراً ... رفيعاً بأَحْجارِ المَلامة يُرْجَمِ

وَمَنْ يَزْرعِ المعروفَ يُسْقِ غِراسَهُ ... وما كُلُّ بانٍ للعُلا بمُتَمِّمِ

---

(١) ابن تيمية وابن عبد الوهاب ونخبة من علماء المسلمين ،مجموعة التوحيد ، المكتبة السلفية الطبعة الخامسة بدون تاريخ ص ٣٠٧ الى آخر الرسالة.

(٢) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ١٠-١٨ .

ومنها :

وَمَنْ يَكُ معوجّاً عن الحقّ والتّقى ... فليس له غيرُ اللّظا من مُقَــوّم

وَمَنْ فرَّ منْ جُند المنايا أَسَرْنَـــه ... بقيدِ قضاءٍ مُوثقِ الفتْلِ مُبْــرَم

ومنها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

تملّكَ حبّاتِ القلوبِ لأَجْــلِ ذا ... دعاهُ حبيباً كلُّ صبٍّ مُتيَّـــمِ

ويوسفُ لم يَظفَرْ بمسحةِ حُسْنِـهِ ... على أنه ربُّ الجمالِ المُكـــرَّم

ودرٌّ يتيمٍ لمْ يُهذّبْهُ كافـــلٌ ... وآدابُه ليْسَتْ إلى الناسِ تنتمي

يقولُ أنا الأُميُّ في اللّوحِ ناظـرٌ ... وفي مَكْتبِ الأَرْواحِ ربّي مُعَلِّمـي

أَفَاضَ الهُدى في أرضِ مكةَ فَتْحُه ... فطهّرَها من راغبٍ ليلَمْلَـــم

ودارتْ على أَهْلِ العَروضِ دوائرٌ ... بتجديدِ عهْدٍ للخليلِ ومُوسَـــم

الى آخر تلك القصيدة الطويلة .(١)

والقصائد المتقدمة هي أطول قصائد الشهاب في شعره عامة ومدائحه بخاصة على أنها لم تكن وحدها في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم اذ نجد له قصائد ومقطعات أخرى مثل قصيدته التي منها :

يا ليْتَنيْ ثانٍ لحارٍ حَـــدَاك ... أو رابعُ الكَهْفِ بكَهْفِ حِـــواك

يا ابنَ الذَّبيْحَينِ وقَدْ فُدّيــا ... ليْتَ جَميْعَ الخَلْقِ كانوا فِـــداك

يا أَكْرَمَ الرُّسْلِ وذُخرُ المنــا ... جدْ لي بما أَرْجو فمنْ لي سواك

حاشاك أنْ تشمتَ دهراً بغــي ... على كرامِ النّاسِ فيمَن رجـــاك

وجودُك الفيّاضُ عمَّ الــورى ... وجـل قصدى قطرة من نداك(٢)

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٩ - ٢٢ .
(٢) نفس المصدر ورقة ٢٣ .

ومن أخرى قوله :

لرسولِ الإلهِ أَطْلِي مقـــام   ليْسَ يدْرِي به جميعُ الكـــلامِ
ولهُ هِمّةٌ وعَزْمٌ رفيـــعٌ   جَلَّ أن يرْتضى بمُلْك الحُطامِ (١)

إلى غير ذلك من القصائد والمقطعات التي حواها الديوان متناثرة في ثنايا ورقاته دونما ترتيب أو تنسيق .

أما اللون الثاني من ألوان المدح عند الشهاب فهو مدح السلاطين والولاة .

وإنْ كنت لم أجد فيما عثرت عليه من شعر سوى قصيدتين إحداهما في مدح السلطان "مراد" والأُخرى في مدح الشريف "مسعود" أحد أشراف مكة المكرمة ،ولعل في هاتين القصيدتين تفسيرا عاما لاتجاه الشهاب في بداية حياته واشتهاره عالماً شاعراً وذلك إبان تولي السلطان "مراد" الخلافة ،وهو أنه كان محبا للدولة وسلاطينها وولاتها ،وإنْ كنت لا أجد في قصيدتيه تملقا ظاهرا كما هو معهود عند كثير من شعراء الملوك على مر العصور .

وأظن ظنا أن لهاتين القصيدتين أخوات ،وأن ما جرى من جفوة وعداوة بينه وبين المولى "يحيى بن زكريا" جعلته يحذف من شعره كل ما له صلة بالدولة وولاتها ،وأستطيع أن أفسر بقاء هاتين القصيدتين في ديوانه بمايلي :

أولا : قصيدته التي في مدح السلطان "مراد" المسوغ لوجودها يتضح من قول الشهاب "وقلت : وكتبت بها مع سيف مجوهر وكتاب أرسلته لخزانة المرحوم السلطان مراد" (٢) ،فنظرا لحبه بقاء هذه المأثرة لـــه

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٣٣ .



خالدة لزم أن تبقى هذه القصيدة موجودة في ديوانه .

أما القصيدة التي مدح بها الشريف سعود :

فهو وإنْ كان تابعا للدولة العثمانية فإنه من المؤكد أن الشهاب مدحه أيام شبابه إذ إن وفاة الشريف سعود كانت بعد سنة ١٠٠١هـ (١)، ثم أنه لا دخل للأشراف فيما حصل للشهاب من عزل عن القضاء ، لذلك كله وُجِدتْ هاتان القصيدتان في ديوانه .

ومن قصيدته التي في مدح السلطان مراد قوله :

فَمَنْ شامَ منهُ الجودَ لم يَرْجُ غيْرَه ولو كانَ من زهْرِ النّجومِ دراهمُه

وكيف ومِنْ إنعامِه مُلْك تُبَّعٍ ومن لَبَنِ الأنعامِ يَنْعمُ حاتمُه

أيادٍ لهُ لو نقطةٌ منهُ صادَفتْ من النيلِ قطراً لم تُشرِّقْ معالمُه

ولو نالَ كسْرى من جلالته لمـا م انْكسر الإيوانُ وانْهدَّ هادمُه (٢)

ومن قصيدته التي في مدح الشريف سعود بن حسن بن أبي نمي قوله :

طَرِبَ الأنامُ بما يُخَطُّ لمدحِهِ من كاتبٍ أو قارئٍ مُتَرنِّم

فتخالُ كلَّ صحيفةٍ في وَصْفِه صفحاتِ عُودٍ بالصَّديمِ مُهَيْنِم

والأسْطرُ الأوتارُ والمضرابُ مِنْ قلمٍ شبا أظفارِه لم يقْلم

ومنها :

قومٌ غزوتهم فكلُّ جسومهم مُقَلٌ لهنَّ إشارةُ المتكلِّم

من كلِّ طعْنةٍ مُقلةٍ نجْلاءَ مُذْ نظرتْ فِراقَ الروحِ تَبْكي بالدَّم

رَمَدتْ فكحّلها بمِرْوَدٍ سُمْـرةٍ من إثمدِ النَّقْعِ المُثار المظْلم (٣)

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٩٥ .
(٢) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٣٢ .
(٣) نفس المصدر ورقة ٧٢ .

أما الضرب الثالث من أنواع المدح لدى الشهاب الخفاجي فهو : مدح العلماء حيث مدح كثيرا من مشائخه الذين تخرج عليهم ،ولا يتعدى في وصف ممدوحه بكونه غزير العلم ،واسع الأفق جم المعرفة وغير ذلك من الأوصاف .

وأود أن أنبه إلى أن هذا الضرب قد يدخل فيه ما يسمى بالمطارحات الشعرية وسأعرض له فيما بعد بإذن الله ،وهذان المثالان من مدائح الشهاب قال : " وقلت لعلامة عصره علي المقدسي وقد جاء في زمن الورد "

أَنَشْرُ الصَّبا قَدْ تمَّ بالعَنْبرِ الورد ... وإلا رَبيعُ الجُودِ في زمنِ الورد

إذا اسْتَنْشَقَتْ أنفاسَه الأُذْنُ أَنْشَدَتْ ... ألا ياصَبا نَجْدٍ متى زُرْتَ من نَجْدِ

سَقَتْ سُحُبُ العلياءِ والمَجْدُ قادماً ... قُدُومَ حبيبٍ زارَ صَبّاً بلا وَعْدِ

فردَّ لنا شَمْسَ المآثرِ مِثْلَما ... لأجْلِ علي رُدَّت الشمسُ في الجند

أيا بحرَ جُودٍ قد تيمَّمتُ تُرْبَه ... لأنِّيَ عليل من غرامي و من وَجْدِي

قَدِمْتَ فزارَ العيدُ قبلَ أوانِهِ ... فصحْتَ وجيشُ الوَصْلِ في طلب الضِّدّ(١)

وقد أحسن الشهاب في استغلال تلك المناسبة ،فوقت ظهور الورد يعتبر أجمل الأوقات ، فقرن بين ظهوره و مجيء شيخه ،وكل من الورد وقدوم الشيخ يدخل على نفس الشاعر ضروبا من السرور والفرح ،ويخفف مما يعاني من سأم وهم . ويقول من أخرى لبعض الأصدقاء :

وأخٍ أهْدَى نَسيمَ الحسَبِ ... منهُ عَرْفاً من رياضِ العَجَبِ

كلُّ قُطْرٍ هو مشتاقٌ لَهُ ... والليالي خَلْفَهُ في الطَّلَبِ

ونسيمُ الفَقْرِ رَمَّالٌ لَهُ ... خطَّ خَطاً في رمالِ الكُتُبِ

---

(١) المصدر السابق ورقة ٦٩ .

رَكِبَ العَزْمَ بِحَزْمٍ مُسْرَجٍ ... ودنا وَهوَ رخيٌّ اللَّبَبِ
رَوْضَةٌ أَغْصانُها أَقْلامُها ... لم تُبِتْ حمَّالةً للحَطَبِ
وهو حسّانُ إذا أَنْشَدَنا ... وهو قسٌّ في ارْتجالِ الخُطَبِ (١)

---

(١) المصدر السابق ورقة ٧٠ .

الوصـــــف

هو أحد الفنون الشعرية التي لا يكاد يخلو منه نتاج شاعر ،وربما لا ينظم الشاعر قصيدة في الوصف ،ولكنه يأتي به في ثنايا أغراضه الأخـرى كالمديح والرثاء .. الخ

ونبه ابن رشيق الى أن الشعر يرجع معظمه إلى هذا الباب حيـن قال : " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف ،ولا سبيل إلى حصـره واستقصاءه ".(١)

وإذا ما نظرنا إلى الشهاب الخفاجي وما قدم في هذا الباب فإننا نجد له نصيبا وافرا .فلم تخل مدائحه وقصائده الغزلية من ذلك ،على أنه لم يكن كذلك فحسب بل أفرد عدة قصائد في هذا الغرض ، فهذه قصيدة نحو أربعين بيتا قال عنها المحبي :" وكل شعره مفروغ في قالب الإجادة ومن أجوده قصيدته الدالية"(٢) ، وحقا أنها جيدة " فلقد امتـزج الشاعر بالطبيعة وتفاعل معها فجاءت قصيدته صدى لما انطوت عليـه جوانحه ".(٣) امتازت برقة أسلوبها وسهولته ،وجودة معناها ،وصـدق عاطفتناظمها وبراعته الفنية في رسم تلك الصورة الجميلة ،والتشبيهـات اللطيفة الممتازة ، إلى جانب ما حوته من حيوية وشعور فياض متدفق ، ونكتفي منها بمايلي حيث سترد كاملة بإذن الله في آخر هذا الباب :

قَدَحَتْ رعودُ البَرْقِ زَنْـــدا أضْرَمْنَ أشجاناً وَوَجْـــدا
في فَحْمةِ الظَّلْمــــاءِ إذْ مَدَّتْ على الخَضْراءِ بُــرْدا

---

(١) ابن رشيق ،العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده ،يظن انها طبعة دار الفكر . سنة ١٣٥٢هـ جـ٢ ص ٢٩٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
(٢) خلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٦ .
(٣) الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ص ٢١٣ .

حتّى تَشَاءَبَ نُورُهُ ... وتمطّت الأَغْصانُ قَدّا
وأَتى الرّبيعُ بِمُجْمَرٍ ... للرّوضِ أَوْقَدَ فيهِ نَدّا
وطوى الغَديرِ مُفَاضَةً ... سَرَدَتْ لَهُ النَّسماتُ سَرْدا
وحُبَابُه من فَوْقِهِ ... قَدْ باتَ يَلْعبُ فيهِ نَرْدا
نَسَقَى معاهدَ بالحِمَى ... قَدْ أَنْبَتَتْ حُبّاً وودّا
تَذُرُ الليالي فِيْ ثَرَى ... مِنْ عَنْبَرٍ للمِسْكِ أَهْدَى
عَجَباً لِدُرِّ ناصِعٍ ... أُوْدِعْنَ في مِسْكٍ مُنَدّى
في ظلِّ عَيْشٍ ناعِمٍ ... بِنَسيمِ أَسْحارٍ تَرَدّى (١)

فهذا وصف جميل صوّر فيه ليلة من الليالي ،تراكم سحابها ،واشتد ظلامها ،وصوت الرعد يزمجر من عل ،ويليه برق خاطف كأنه أشعل نيران الحب والغرام" أضد من أشجاناً ووجدا " ،ومر النسيم العليل يداعب الأغصان فما ادركت تلك المداعبة الرقيقة حتى تمطّت من آثار نوم عميق كان بها ، ولم يكن ذلك المنظر فحسب بل أتى الربيع لينشر روائحه العطرية الفواحة التي تفوق رائحة المسك والند والعنبر ،ومدت مياه الجداول كأنها دروع نسجها النسيم العليل ،وهكذا يصور الشهاب تلك الليلة الجميلة بعبارة رقيقة تدل على المقدرة الفنية والبراعة في التصوير وبث الروح والحياة في الجماد والنبات حتى يكاد ينطقه .

ومن قصائد الشهاب التي تدل على ولعه بالوصف عامة و بالمناظر

---

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٦- ٣٣٨ .

الجميلة بخاصة قوله في قصيدة ذكر فيها ثلاثة فصول من فصول السنة ، الربيع بجماله ،والخريف بسيوله ،والشتاء ببرده :

خَدُّ الرَّبيعِ من الحياءِ تَـــوَرَّدا　　خَجَلاً لِمَا أُهْدى إليه من النَّدى
وبَنَفْسجُ الكُثْبانِ أطْرَقَ رأْسَــهُ　　لمَّا رأى صِدْغَ الحبيب تَجَعَّــدَا
وأَرى الخَرِيفَ اشْتَمَّ أنْفاسَ الشتا　　فاصْفَرَّ منه خِيفَةً لمَّا بـــــدا
وأَرى جيوشَ سُيولِهِ قد أقْبلَـتْ　　وعليْهِ حُلَّةُ سُنْدُسٍ فتجــرَّدا
والسُّحْبَ تَنْثرُ لؤلؤاً وفصونَهُ　　بأكُفِّ أوْراقٍ تَفَرَّقَ عَسْجَـــدا
والنَّجمُ كَحَّلَهُ الظلامُ بإثْمـدٍ　　مُذْ خالَهُ في الجوِّ طَرْفاً أرْمَــدا
رَوْضٌ تَبَسَّمَ للوفودِ بمبســـم　　للرَّوضِ عَذْبَ المجتنى والمُجتدا
ما ذاقَ فيه السُّهدَ إلا ناظـــر　　للنَّرْجسِ الغضِّ الشهيِّ تسهَّدا (١)

ومن الأشياء التي وصفها الشهاب الخط حين قال :

بَعَثْتُ كُتْبي إلى الأحبابِ نائبــةً　　عن العيونِ إذا اشْتاقَتْ إلى النَّظر
فالخَطُّ في الطِّرْسِ والألحاظُ ناظِرةٌ　　صِنوانِ في شَبَهِ المَعْنى وفي الصُّور
فإنَّ هذا سَوادٌ في البياضِ لَــهُ　　شكلٌ كأهْدابِ أجْفانٍ من الشَّعَر (٢)

فالخط بلونه الأسود على الورق بلونه الأبيض ، هو بمشابة العيون في احتوائه اللونين الأبيض والاسود ،وهذا الوصف وإنْ لم يكن راقيا إلى درجة كبيـــرة إلا أنه ينبئنا عن شدة غرام الشهاب بالوصف الحسي .

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٣٧ .
(٢) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٤٨٥ .

ومن شعر الوصف الذى يدخل في ثنايا قصائده الأخرى قوله في مقصورته التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم حين وصف فيها السّحاب في الروض بقوله :

غمائمُ لُعسُ الشفاهِ ابتسمتْ عنْ ثغرِ بارقٍ إذا الثّغرُ بكا
تفكُّ من مَحْلٍ وجدْبٍ أسْرهُ وتنثرُ الدرَّ على هامِ الرّبى
يسوقُها الرّعدُ بصوتٍ مذهبٍ مِنْ برْقهِ وهي بطيّاتُ الخُطا

ومنها أيضا في وصف المجرة :

مَجرةٌ في شفقٍ كأنّها والزّهرُ فيها ذاتُ منظرٍ زها
تَهزُّ بهِ كفُّ الشّمال نثرتْ ورْداً ونِسْريناً جنيّاً قطفا (٢)

اذا فالشهاب الخفاجي له باع طويل لا ينكر في هذا الغرض ، وإنَّ قراءة مثل هذه القصائد الجميلة تعطينا دلالة واضحة على مكانة الخفاجي الشعرية ، وأن الشعر في هذا العصر ما زال له رواده و محبوه ، وأن لهم من الأشعار ما يمكن أن يضاهوا به أزهى عصور العربية .

----

(١) ديوانه ، نسخة الأزهر ورقة ٥ .

الهجـــــــاء

يعد فن الهجاء من الفنون التي حدث فيها شيء من التطور في هذا العصر وما قبله بقليل لتغير الأسباب الدافعة إليه ، ومن الطبيعي أن يوجد مع وجود المديح ، فحيثما وجد من يستحق المديح والإطراء ، وجد آخرون يستحقون الهجاء والتهكم .

على أن أهم ما حدث من تطور فيه في هذا العصر هو اتجاهه إلى تناول الفرد باعتباره فردا في مجتمع ولا دخل للقبيلة به .(١)

والشهاب الخفاجي باعتباره من كبار شعراء عصره ، وحصلت له من المضايقات في أثناء حياته ما عرفناه لذا كان لا بد أن يتعرض في شعره لهذا المجتمع بشيء من الهجاء ، ونحن وإن كنا نلاحظ طابع الجماعية في هذا الهجاء أكثر من طابع الفردية وبخاصة في مقطعاته الشعرية ، إلا أننا نلاحظ اختصاصه في طبقة معينة ألا وهي طبقة العلماء الأقران ، حيث يعدهم جهلة لا علم لهم كقوله معرضا بعلماء الروم :

فَهُوَ في الفِقهِ شاعِرٌ لا يُبارَى ... وهو في الشعرِ أَوْحدُ الفُقَهاءِ

لا إلى هؤلاءِ إنْ نَسَبُوهُ ... وَجَدُوهُ ولا إلى هؤلاءِ (٢)

وكقوله - معرضا بالحكام راسماً صورة الحاكم الظالم ومدى ابتزازه لأموال الناس ، وقال بأنه لا فرق بينه وبين طالب الكدية فكلاهما همه جمع المال لكن الحاكم وراءه القوة والجبروت أما ذاك فاظهار الفاقة والضعف :-

قَالَ الحكيمُ في قَديمِ العَهْدِ ... سواءٌ السلطانُ ثُمَّ المُكْدِي

كلاهما يَطْلبُ أَمْوالَ الوَرَى ... لكنَّ ذا بِقَهْرِهِ والجُنْدِ

وذا بألْطافِ الدُّعاءِ ضارِعاً ... لما يُرَجِّيه بِمَحْضِ الزَّبدِ (٣)

---

(١) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص ١٣٧ .

(٢) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٣٥٠ . (٣) نفس المصدر والجزء ص ٣٩٠ .

وكقوله في هجاء الذى خص به أهل مصر من قصيدة منها :

عَنْ مِثْلِكم تابَ قَلْبُ خَصْمُه الحَكَمُ ... فإنّما التوبةُ الإقلاعُ والنَّدَمُ

ياأَهْلَ مِصْرَ أَمَا يَكْفي لكمْ مَلَقٌ ... وَما وَفَى النّيلُ حتى خانَه الدِّيَمُ

جاءَ الوفاءُ وما فيهِ سوى كدرٍ ... منه تَنَجَّسَت الخُلجانُ والشِّيَمُ

ولو أتى الغَيْثُ يَسْقي جَدْبَ ساحَتِكم ... خاضَتْ بأَوْحالِهِ الأَوغادُ والرِّمَمُ

والغَيْمُ كَمْ غَمَّ منه البَدْرُ إذْ صَدَحَتْ ... مرآتُه وعَتَتْ من فَوْقِهِ الظُّلَمُ

والشَّمسُ يَحْجُبُها غَيْمٌ وليْسَ بِهِ ... غَيْثٌ لو انْجابَ عَنْ آفاقِها الغَمَمُ (١)

على أنها وإن كان فيها شيء من الهجاء إلا أنها تحمل معنى العتاب .

ومن هجائه أيضا قصيدة في هجاء شخص لم يذكر اسمه ، تحمل معنى التهكم والسخرية وهي أقرب إلى الشعبية منها إلى أى شيء آخر تقع في حوالي عشرين بيتا منها قوله :

يا سُخْرةَ الشيخِ بلا أُجْرَه ... وقَسْوةَ البطونِ في السُّحره

ومنها :

وَنَظْرةَ المَخْمورِ عَبْداً لَهُ ... قَدْ كَسَّرَ الأَقْداحَ والجَرَّه

ويا قفا المَهْزوم من فارسٍ ... أدْرَكَهُ في ساحةٍ قَفْره

وَبَهْتة السكران من هاجمٍ ... في لَيْلةٍ مُظْلمةٍ قَرَّه

ويا نعِيًّا جاءَ من واحدٍ ... إلى عجوزٍ مالَها أُسْره

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٩٦ .

ومنها :

وحُجَّةَ المُعتزلي الذي ... يَسْمَعُ نَصّاً ناقِضاً أَمْرَه

وَطَلْعَةَ الزنديق في مَسْجِدٍ ... يَخافُ من جيرانِهِ هَجْرَه

ومنها :

كَمْ تَدّعي الفَضْلَ ولا تَرْعَوي ... تُعيدُ ما قالَ ذو الخِبْرَه

يا حامِلَ الجَهْلِ إلى كَمْ تُرى ... مُدَحْرَجاً في طُرُقنا البَعْرَه (١)

و من هجاءه الذى يحمل طابع الجماعية ويسخر فيه من بلاد تصدر فيها طماء السوء والجهلة ،مع التعريض بنوع من المفاسد الاجتماعية التي كانت ظاهرة في عصره ألا وهي الرشوة ،قوله :

لَعَمْرُكَ قَدْ عَمَّ الحَريقُ بِبَلْدَةٍ ... بها طماءُ السّوءِ والجَهْلِ أَظْلَما

وَمَنْ صالأَوانى رسولُ حَريقِهِمْ ... دَعاهم إلى نارِ الجَحيمِ جَهَنَّما

فَقالَ اتْفِلوها واقبضوا أُجْرَةً لها ... فإنْ هُدِمَتْ يَبْنى الذى قَدْ تَهَدَّما

فَطالَبَهُمْ خُزّانُها بوقودِها ... وما صَرَفوهُ في زمانٍ تَقَدَّما

فَقالَ لَهُمْ رأْسُ الضلالِ ضمانُهُ ... عليهم وأَنَّ الغُرْمَ قد صارَ مَغْنَما

ومن كَثْرةِ الدَّينِ المُحيطِ بمالِهِمْ ... أَباحَ رِشاً قَدْ كانَ رَبّيَ حَرَّما (٢)

وكقوله :

يا أَقْبَحَ الثَّقَلَيْنِ في ... خَلْقٍ وأَخْلاقٍ ودِين

جُرْبُ الكلابِ لِحُسْنِها ... في جَنْبِ قُبْحِكَ حُورُ عِين (٣)

وهكذا يتضح أن الشهاب له قصائد ومقطعات في هذا الغرض لا تقل قيمة عن غيرها من قصائده في الأغراض الأخرى التي تناولها في شعره .

---

(١) المصدر السابق ورقة ٩٦ .

(٢) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٢٩٣ .

(٣) ديوان الشهاب ورقة ١٣٦ .

الفخـــــــر

نحن نعلم أن بعض الشعراء القدامى كان منبع فخرهم اعتزازهم بعراقة أنسابهم ،ولكن هذه الظاهرة تلاشت في العصور المتأخرة نظرا لتطـــور المجتمع العربي ،واختلاطه مع غيره ،ولم يعد الشعراء يحرصون كثيرا علـى التماس النسب الصحيح ،والشهاب الخفاجي وإنّ كنا عرفنا أنه من قبيلـة عريقة هي قبيلة "خفاجة" إلا أنني لم أعثر إلا على بيت واحد في مقدمـة الريحانة يعتز فيه بنسبته الى العرب ، ولا أجد نصا شعريا غير ما ذكـــر يفتخر بنسبته إلى العرب عامة وإلى قبيلةخفاجة بخاصة - وذلك البيت هو:

فاني من العرب الأكرميـــــن   وفي أول الدهر ضاع الكرم (١)

ولكن شعره قد خلا من كل فخر يتصل بالاعتزاز بقومه ، وسراة قبيلته كما خلا من الاعتزازبالشجاعة والكرم اللذين هما من مصادر الفخـــر عند العرب الأقدمين ، فيا ترى ماذا بقي من مصادر فخرلديه ؟ ، وما العناصر التي كان يتخذها مادة يستمد منها فخره ؟

والجواب عنْ ذلك يتأتى من خلال القيم التي مدح بها أعيـــــان بلده وبخاصة العلماء ممن هم في طبقته ، فهو يفتخر بغزارة وسعة علمـه ، وحذق الشعر والتفوق في النثر ونحو ذلك من القيم التي تعارف عليهاشعراء عصره ،واستطيع أن أبين ذلك من خلال النماذج التالية :

من أشعاره التي يفتخر فيها بنفسه قوله :

ولَيْسَ بعارٍ أَنْ أُهانَ وإنَّمـــا   على الدَّهْرِ عارٌ والعُلا والمَناصِب
ولا خَيْرَ في دارٍ يُهانُ كَريمُهـــا   ولم يَرْعَوْنا من خَليلٍ وصاحـــب

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص٤ .

بها الأسدُ الضرغامُ في غابهِ اختشى
كلابا قد اعتادت بصيد الثعالبِ (١)

فلا لوم عليه فيما جرى له من انتقاص له ولحقوقه ومكانته ،انما يرجع السبب الى الدهر وهو يعني أعداءه المعاصرين له ،ولا ضير عليه من اولئك لانه أسد وأعداوءه كلاب لم تكن عادتها إلا صيد الثعالب لا صيد الاسود وهذه المقطوعة قسمة ما وجدت له من الفخر ، تحمل في طياتها عبارات الثورة على المجتمع الذى عاداه وهضم حقوقه .

ومن شعره الذى يفخر فيه بشاعريته قوله في إحدى قصائده :

في غيرِ مدحِ يوسفٍ — طبعي لا يُشبَّبُ
فلي معانٍ أطربت — من غابَ عنهُ المطربُ
عذراءُ من خجلتِها — بطِرسِها تنتقبُ
عادت له بكراً ستَّ — وهي العجوزُ الثيِّبُ
مِثلُ زليخا يوسفٍ — فالناسُ منها تعجبُ
مقعدُ أفكاري طَسْ — موثقِ عزمي يثبُ
والشعرُ قد تشعبت — أوتارُهُ والسببُ (٢)

وكثيرا ما أجده يثني على قصائده عندما يمدح أحد العلماء وذلك واضح في كثير من مطارحاته الشعرية التي سيأتي الحديث عنها ،ومن أمثلة ذلك قوله :

فإليكها يثني قوافي دوحها — زاهٍ بغيرِ يدِ النهى لم يُمسَسِ
بكراً إلى كفءٍ تزفُ ومهرُها — نقدُ الجوابِ براحةِ المستأنسِ (٣)

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٣٩ .
(٢) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٧٨ .
(٣) نفس المصدر ورقة ٣٢ وريحانة الالبا جـ١ ص ٥٦ .

وهذا المعنى كثيرا ما أجده مكررا في مطارحاته الشعرية ، فهذه البكر تزف إلى أناس عديدين ،ومهرها دائما عنده أمرهين ، فهو يريد من صاحبه أن يرد عليه في هذه العروس بمثلها ليس إلا كما في قوله :

فإليكها عِقداً بجيد م الشّعْر زَيّنَهُ نَضيدُه
بكرٌ تَرُومُ جوابها مَهْراً تَروقُ لها نقودُه (١)

إذا فنغمة الافتخار بشعره واضحة لا شك في ذلك .

ولم يكن الشهاب ليقف عند ذلك الحد ،إذ نراه تارة يشعر بأنه فريد عصره وأنه أشبه بنوء "السماك" والأصل ألا يخفى على الناس مثله ،ولكن زمانه زمان سوء لا يعترف بالأخيار حيث قال :

أنا واللهِ ضائعٌ في زَمَاني ضَيْعَةَ الوَرْدِ زَارَ في رمضانِ
فَوقَ هام السِّماك عِزَّةُ نَفْسي كَيْفَ يَخْفَى على الزمانِ مَكَاني
ومكاني منهُ مكانُ عُقُودٍ زاهياتِ النِّظام عِنْدَ الغَواني
كُتِبَتْ في صَحيفةِ المَجْدِ رَسْمي شِيْمةٌ تَجْعَلُ النَّدا عُنواني
أَدَبٌ في شَمَائِلٍ هي شُهْدٌ بُقَعُ اللّون فيه كالذبانِ (٢)

وقوله أيضا من قصيدة مطلعها :

بِيَدَيَّ البدرُ المُنير هاتِ مِرآةَ سُروري

---

(١) المصدرين السابقين ورقة ٥٩ ،وجـ١ ص ٨١ .
(٢) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٥٨ .

منها مفتخرا :

فَعَلى كَيْدِ الأَعَادِي وعلى رَغْمِ الدُّهُورِ
رَاقَ عِنْدِي كُلُّ وِرْدٍ وانْجلى غيمُ بدورِ
فكأنَّ الشَّمْسَ لاحَتْ «لِيَ في اليومِ المَطِيرِ»[1]

ونحو ذلك من المقطوعات الشعرية التي يفتخرفيها الشهاب، وهي متناثرة في ديوانه وبعض كتبه تارة ترد مستقلة، وأخرى في ثنايا بعض قصائده، ومعظم فخره لا يخرج عن نطاق ما ذكرهنا. فإن أكثر فخره بنفسه، وبعلمه وفنه وعزة نفسه وعفته وتساميه وتفوقه، فكأنه يقول بنفسي فخرت لا بجدودي، وما أشبه حاله هذه بحال المتنبي ولعله متأثربه في هذا، على الرغم من أن للخفاجي من الجدود - كما قلنا - ربما لو فاخربهم وتحدث عنهم لما كان ذلك غريبا ولكنه آثر أن يكون كعامربن الطفيل الذى فخر بنفسه وهو من سُرَّة القبائل العربية ذات المجد العريق، ولا بد أن الشهاب قد اطلع على شعر السابقين وعرف كيف يأخذ منه ما يناسب مواقفه.

(١) المصدر السابق ورقة ٢٨

الرثـــــاء

إن الرثاء عند الشهاب الخفاجي قليل جدا ،حتى أن مجموع أبياتـــه فيه لا يصل إلى عشرين بيتا ،ولا أدرى ما هي الأسباب التي حدت بـــه لأنْ يكون نسَّاءً للفضل منكرا للعرفان ، فحق كل ممدوحيه وأصدقائه وأهلـــه وذويه ،أن يرثيهم ،وإنما لتعلونا الدهشة ، كيف أن والده وخالـــــه ينبَّوء بموتهما في وقت متقارب ،ولا نجده يرثيهما إلا بأبيـــات قليلـــة لا تتناسب مع منزلتهما وحبهما في قلبه .

فهل السبب في قلة شعر الرثاء لديه يرجع الى قلـــة الاخلاص للأصدقاء ،أوإنه كان يتطير من شعر الرثاء ، أو أن قريحتـه لم تكن تسعفه في ذلك الميدان وتنضب بمجرد التفكير فيـه ، أوأنـه كان لا يحسن في الرثاء ، أوأنـه قـال رثاء ولكنه ضاع فلم يصلنا منه إلا ما وصل ، كل هذا ممكن ،والسبب الأخير أقرب إلينا من غيره بأدلة منها : .

١ : أن ديوان الشهاب من المرجح لدينا أنه جمع مبكرا بدليل أنـــه ذكره في خبايا الزوايا الذى هو أصل ريحانة الألبا ،وهذا الكتاب ألفـه مبكرا ، ثم عاد فنقحه وأخرجه في ثوبه الجديد كما عرفنا باسم ريحانة الألبـــا .

٢ : أننا عرفنا أن ديوانه لم يكن كاملا فهنالك قصائد أشار إليها في الريحانـة ولم نجدها في الديوان ثم أن جامع ديوانه -أى صاحب النسخة الأزهريه- نجده عندما وصل إلى مرثيته في خاله قال : "ومنها " ثم ذكر أربعـــة أبيات ،ثم أخذ يقول بعد كل بيت وبيت "ومنها " فهذا يدل على أنـــه يختار منها ولم يسجلها كاملة ومن ذا نأخذ دليلا آخر على أن شعره عامة

ورثاءه بخاصة لم يسجل كاملا وعلى أقل تقدير فهذه القصيدة لم تسجل كاملة ، وهي :

تَبًّا لقلبٍ عليكَ اليومَ ما احْترقا ... وناظرٍ دمعُه في ذا المُصابِ رقا

وغُصةٍ وشجاً في الصَّدرِ سوَّغها ... دَمْعٌ به ناظري المحزونِ قد شرقا

وفُرقةٍ أَنْتَتْنا كلَّ حادثةٍ ... من الزمانِ ولمْ تتركْ لنا فرقا

رضيعُ ثَدْي النَّدا خِدنُ العلا حَسَبا ... من مهدِه لمقرّ المجد ما افترقا

ومنها :

جاءوا به فوق أعناقٍ مُطوَّقةٍ ... نداهُ قد حلَّلت من دوحِه ورقا

ومنها :

قومٌ بنارِ الجَوى تشوي قلوبَهمُ ... قد صيَّروها قِرى هم لهم طرقا

فطيَّبوهُ بطيبِ المدحِ مؤتزراً ... رداءَ حمدٍ على الأيامِ ما خلقا

والدَّمعُ بحرٌ عليه قد طغى وطفا ... لولا سفينةُ تابوتٍ لهُ غرقا

مهابةٌ فوقَ ذا التَّابوتِ تحسبُه ... لأجلها في سريرِ الفلك ما طفقا (١)

ومن مراثيه قصيدته التي قال في سببها : " ولما نعي الخال ، أخبرت بموت الوالد ايضا فقلت في مرثية له " :

كأنَّ الليالي غالطتني ولمْ أكنْ ... أقدِّرُ أنْ اغترَّ بالمكرِ والحِيَلْ

فقالتْ إذا أعطيتُكَ الآنَ عاجلاً ... من الرزْءِ هلْ ترضى فقلتُ لها أجلْ

فجاءتْ بفقدي للذينَ أحبُّهم ... وقالتْ لهذا كنتُ أعنى فلا تَسَلْ

---

(١) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ٤١ .

لأنّيَ لا أخْشَى مُصاباً بُعَيْدَ ذا　　فللّهِ رَيْبُ الحَدَثانِ وما فعل (١)

والقصيدة وإن كانت واضحة سهلة العبارة إلا أنها في نظري لم تكن على مستوى الحدث ، وكان باستطاعته استغلال ما بدأه من أسلوب حواري في تسجيل فداحة ووقع المصيبة على نفسه .

وله في شيخه أبي الإسعاد الوفائي لما توفى في عوده من الحج ، قوله :

قَضَى نَحْبَهُ والحجَّ قطبٌ لرُوحِه　　دعا ربُّه نحو الجِنانِ فلبَّت

فمن حَجَّ للبيت العَتيق على تُقًى　　فرُوحُ أبي الإسْعادِ للّهِ حجَّت

وَمَنْ حَجَّ للرحمن إحرامُ حِجَّةٍ　　مجرَّدةً من جسْمِهِ دون مُوْقت

فلا بَرِحَتْ سُحْبُ الرِّضَا فوقَ قبْرِهِ　　تظل له هطالة سحب رحمة (٢)

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٠٦ .

(٢) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ١٠٠ ، وريحانة الألبا جـ٢ ص ٢١٢ على اختلاف في بعض الألفاظ .

الغـــزل

يشغل فن الغزل من نتاج الشهاب الخفاجي حيزا واسعا ،حيث أجد في ديوانه قصائد كثيرة خاصة بفن الغزل ، وهو في شعره الغزلي لا يخرج عما أُلف عند الشعراء القدامى من وصف محاسن المحبوبة من رقة الخصر وسحر العيون واحمرار الخدود ونحو ذلك من الأوصاف .

وهنالك ظاهرة مهمة في شعره الغزلي وهي ربطه محاسن حبيبته بما يراه في الطبيعة من مظاهر الجمال كالغصن الميال ،والنرجس الغض ونحو ذلك وهي ظاهرة تتكرر كثيرا في شعره وإليك هذه النماذج التالية لتوضيح ما سبق ، قال الشهاب :

أَنْعِمُوا ليْ بجُرْعةٍ من طَلا الوَصْلِ م ... أُدَاوِيْ بها خُمارَ الفِـــرَاقِ
وغُصوناً ما عندهنَّ انعِطَـــافٌ ... أَنا راضٍ مِنْكُــنَّ بالأَوْراق

ومنها :

مُذْ سباني بَدْرٌ بِقَلْبي مُقيـمٌ ... صارَ جِسْمي كَخَصْرِهِ في المُحَاقِ

المحاق : "ما يرى في القمر من نقص في جرمه وضوئه بعد انتهاء ليالي اكتماله ".(١)

حَاكِمٌ جُنْدُهُ المِلاحُ جميعــاً ... ذولواءٍ من شَعْـرِهِ الخَفَّـاقِ
جامِعٌ رِقَّةَ الحجازِ وسِحْرَالشـامِ ... حُسْناً في سِلْكِ لُطْفِ العــراق
قَامَ في جَنَّةِ الرِّياضِ بكـأسٍ ... فأَباحَ المُدامَ بين الرِّفــاق

---

(١) المعجم الوسيط جـ٢ ص ٨٦٢ .

وهنا اختلط الغزل بالمدام حيث قام المحبوب في وسط الروضة الغناء يحمل كأساً مبيحا حرمتها لأولئك الرفاق ،فارتوى منها ثلاثا حتى ذهب همه وغمه ،ولماذا لا يذهب ،وقد شاركه في الاعجاب بحامل الكأس حتى النرجس، فقد تلون حتى صار من جملة العشاق .

بِثَلاثٍ منهنَّ طَلَّقَ همِّي ... دُونَها رجعةٍ لذاكَ الطَّلاقِ
في مَجَالٍ كالخَصْرِ فيه اخْتصارٌ ... دار فيه النُّدمانُ مثل النِّطاق
ذو عيونٍ لأجْلِها النَّرجِسُ الغضُّ ... اصفرَّ وأَمْسى مِنْ جُمْلةِ العشَّاق
مارَثَتْ في الهوى لسائِلِ دَمْعي ... تَحْسبُ الدَّمعَ خِلْقَةً في المآق (١)

وقال من قصيدة أخرى يصف فيها وصل وهجر محبوبه ،ومدى تأثره بذلك مازجا غزله بأوصاف الطبيعة :

حتَّامَ تَغْزوني صُدُودُهُ ... والصَّبرُ قَدْ كُسِرَتْ جُنُودُه
سَكْرانُ مِنْ الحاظِهِ ... قَامَتْ على قلْبي حُدودُه

والمحبوب مريض مما أصابه ،بحاجة إلى من يعوده ،وكيف لا وقد لاح أمل وصله ولم يعد للهجر من أثر :

وَسَقيم طَرْفٍ لَمْ يَزَلْ ... أبداً لواحِظُنا تَعودُه
بَرَقَتْ بوارقُ وَصْلِهِ ... والهَجْرُ قَدْ خَرِسَتْ رُعودُه
غُصْنٌ تَميلُ بِهِ الصَّبا ... في كُثْبِ أرْدافٍ تَؤودُه
لَمْ أَدْرِ فاتِرَ جَفْنِهِ ... والخَصْرُ أَضْعفُ أَمْ عُهودُه
نَشْوانُ يَعْبَثُ بي كَمَا ... عَبِثَتْ بآمالي وعودُه (٢)

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٣٤ والشطر الاخير من بيت للمتنبي .
(٢) نفس المصدرين ورقة ٢٩ والريحانة جـ١ ص٧٩ .

ثم يصور محبوبه بأنه يحاول أن يخفي غرامه وهواه وأنّى له ذلك ، وعيونه شاهدة عليه شهادة لا يمكن له أن يردها أبدا .

وهو في هذا يقترب من غزل عمر بن أبي ربيعة في جعل نفسه مطلوبا لا طالبا :

يُخفي الهوى وعيونُه بغرامِهِ المُضْني شهودُه
بشهادةٍ ليستْ تُرَدُّ فليس ينفعُه جحودُه

ثم يعود للحديث عن السكر، ولكن سكر المدام لا سكر الألحاظ وهو بهذا يجمع - في داخل القصيدة إلى جانب الأوصاف الطبيعية بين غزله ووصف الخمر حين قال :

زمنٌ بجيدِ اللهوِ قدْ نُظِمَتْ على نَسَقٍ عقودُه
إذْ دَوحُ أُنْسي يانعٌ بكؤوسٍ انفتحتْ ورودُه
والكأسُ نَجْمٌ لاحَ في فَلَكِ المسرَّةِ لي سُعُودُه
يصفُو فيحكي فِكْرَ مَنْ قدْ زيَّنَ الدنيا وجودُه (١)

وللشهاب غزل كثير من هذا النوع ، كله سليم اللغة والأسلوب ، سهل العبارة ، وإنْ كانت بعض العبارات متداولة ومعروفة إلا أنه استطاع بما أوتي من براعة، صياغتها في أسلوب موسيقي مرقص كما في القصيدة السالفة .

وأود أن أشير وأنا بصدد الكلام عن غزل الشهاب ، أنّ له بعض أبيات في التغزل بالمذكر ، ولا يمكن أن يكون قصده استعمال ضمير المذكر مكان المؤنث لأنّ كثيرا من الدلائل في غزله ذاك تؤيد أن المراد هو المذكر

---

(١) نفس المصدر السابق ورقة ٢٩ .

من ذلك ما رواه المحبي قال : " .... فمر الشهاب وصحبته العمادى وابن شاهين على الجسر الأبيض فنظر إلى غلام واقف نظرة ميل ،ووقف يتأمله فانتقد العمادي وابن شاهين عليه ذلك فأنشد بديهة قوله :

قِيلَ لا تَنْظُرَنْ لوجهِ مَليـــحٍ   إنَّ هذا مُبَدِّدُ الحَسَنـــاتِ
قُلْتُ هذا الجمالُ لَمَّا تَبَـدَّى   أَشْغَلَ الكاتبين عن سيئاتـــي (١)

ومن ذلك قوله :

على خَدِّهِ مُذْ لاحَ نَبْتُ عِـذارِهِ   جَرَتْ أَدْمُعِي في الخَدِّ ذاتَ صَبيبِ
إذا ما اسْتَدارتْ دارةُ البَدْرِ حَوْلَهُ   فإنَّ وقوعَ القَطْرِ غيرُ عَجيـــبِ (٢)

الى غير ذلك من الأبيات المبثوثة في ثنايا ديوانه وفي بعض كتبه التـــي اطلعت عليها .

على أن هذا الاتجاه كانت بذوره من أيام شعراء الدولة العباسيـــة ،ولكنه استفحل أمره فيما بعد ذلك حتى عُدَّ عند بعض المتوصفة جزءاً لا يتجزأ من أشعارهم بل أن مصاحبة المردان جزء من تدينهم (٣) والعياذ بالله فلعل تلك الموجة أثرت على الخفاجي .

---

(١) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٤ .   (٢) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٢٣٧ .
(٣) ابن الجوزى تلبيس ابليس ص ٢٦٤ .

الشكوى

إن لحياة الشهاب الخفاجي التي عاشها وذاق فيها مرارة الألم مما جرى له من حُسّاده وبعض معاصريه ، اكبر الأثر في هذا الغرض ، وما قيمة الفنون عموما والشعر خاصة إذا لم تكن معبرة عن نفسية صاحبها ، مصورة لها في حالة الفرح والسرور ، والحزن والألم .

وإذا ما طالعنا شعر الشهاب وجدناه يكثر من هذا النوع لأنه تعبير صادق عن خلجات نفسه وموقفه من مجتمعه الذى يعيش فيه ، ونستطيع أن نضع شعر الشكوى ضده من الشعر السياسي ، لأن فيه تقدا لاذعا للمجتمع على اختلاف طبقاته ، وقد شكا من الزمان كثيرا - أى أهل الزمان - نتيجة لما حصل له ، وتظهر في شكواه مرارة الأسى والحرمان والتحسر ، لأنه ضعيف لا قوة له تسانده ، ولأن المكانة لمن غلب ، ولا يغلب إلا صاحب القوة ، انظره عندما قال :

إنَّ الزمانَ مُقامِرٌ لَعِبـــا ... ما فازَ فيه غيرُ مَنْ غَلَبــا
والدَّهْرُ ذُو وَجْهٍ بَدَا وَقِحـاً ... ماءُ البَشَاشةِ عَنْهُ قَدْ نَضَبـا
كَمْ قُمْتُ فيهِ نادِباً حَزَنـي ... ماذا يُفيدُ مَقَالُ واحَرَبـا

ثم يصف حاله بقوله :

لمَّا جفاهُ ودادُ أُسْـرَتِـهِ ... نَزَلَ القِفَارَ وحالَفَ الوَصَبـا
تَرَكَ المَهادِ لِقُنْفُذٍ نَـذِلٍ ... لا يَعْـرِفُ الهيجاءَ والَيلَبـا
بُرْدُ الظَّلام غِطَاؤُه وطـى ... مُهْرِ النَّجائِبِ وسَّدَ القَتَبا

ثم بعد أبيات عدة يوجه الدعوة إلى الحرص على السير في كيد الزمان ،

وارتداء ثوب المكر والخديعة ،وما كانت لتصدر منه لولا ما ذاقه من البؤس والشقاء ،ورأى ثوب الفضيلة والصدق والصراحة لم يعد يجدي لذا صدر منه قوله :

فاحْرِصْ على كَيْدِ الزَّمانِ وكُنْ ... بالمَكْرِ مُرْتَدِياً ومُنْتَقِبا

ومنها قوله :

لا تَغْتَرِرْ بمودَّةٍ وهَوىً ... والْعَيْنُ حقٌ فاحْذَرِ الرُّقَبا (١)

وزمانُ سُوءٍ ما نَظَرْتُ لَهُ ... إلا لَعَنْتُ الشِّعْرَ والأدَبا

ومن شعره الذى يدل على الشكوى والتحسر ،ومدى تذمره من مجتمعه قوله :

هَنْكَ فُؤادِيْ وحقِّك ارْتَحلا ... وكانَ بالقَصْرِ قَبْلَ ذا نَزَلا

يا عادِلاً عن رِضا خالِقِهِ ... صَدَقْتَ إنْ قُلْتَ إنّه عَدَلا

ومنها :

مَاتَ مُرادُ الوَرَى ومالُكُهُم ... تَبّاً لدَهْرٍ بمِثْلِهِ بَخِلا

أَبَعْدَهُ زهْرةُ الحياةِ زَهَتْ ... أوْ أثْمَرَتْ في رياضِها أَمَلا

قالوا اللّيالي حُبْلى فقلْتُ لهم ... قَدْ وَضَعَتْ بُومَةً ببيْتٍ خَلا

ما بالُ مَوْلايَ في وزارتِهِ ... يُرْفَعُ فَوْقَ الأفاضِلِ السَّفلا

يَأْذَنُ لي حاجِبٌ بسُدَّتِهِ ... وهو لبابِ الدخُولِ قَدْ قَفَلا (٢)

---

(١) ديوان الشهاب ،نسخة الازهر ورقة ٧ .

(٢) نفس المصدر ورقة ١٠١ - ١٠٢ ،وريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٠١-٢٠٢ .

ومن الملاحظ أن النغمة التي يرددها الشهاب ،أنه من بعد موت السلطان مراد قد تفشى الظلم والفساد ، وانتزعت العدالة الاجتماعية ، والسبب في ذلك ما عرفناه في الحديث عن حياته من أنه " في عهد السلطان مراد توصل حتى اشتهر بالفضل الباهر ، فولاه السلطان قضاء سلانيك فحصل بها مالا كثيرا " ،وكل قصائده في هذا الغرض تدور حول الشكوى من الدهر وتألمه وتحسره ،وما وصل إليه حال الدولة من الفساد ، وتصدر الجهلة ،ونبذ جهابذة العلماء ونحو ذلك من المفاسد التي أرقت الشهاب فأطلق فكره وقلمه للحديث عنها ،وعن خطرها كلما سنحت له فرصة وكانت هذه القصائد وغيرها مشهورة بين الناس والحكام نظرا لوجود بعضها في كتبه المشهورة كالريحانة ،وديوانه ايضا متداول بينهم ، ولكن هذه الجرأة والصرامة في النقد جرت عليه ما جرت من النفي والعزل .

ونراه مرة يضع قصيدة على لسان شهرشوال يشكو فيها قاضيا من القضاة . إذ يبدو من مفهوم الأبيات أن قاضيا أمر بإتمام شهر رمضان وهو ناقص ، فكتب الشهاب هذه القصيدة التي منها قوله :

قِصَّتِيْ قَدْ أَتَتْ إماماً هُماماً   تَشْتَكِي الظُّلْمَ حِيْنَ صِرْتُ مُضاما
رُقْعَةٌ في يَدِ الهلالِ طَوَاها   لِيَراها الْمَلِيْكُ في العِزِّ دَاما
أَنا شَوَّالُ الفَقيرُ الذي قَدْ   خُصَّ بالعيدِ والصَّلاةِ مُداما
بَعْدَ شهرِ الصيامِ قَدْ زُرْتُ قوماً   جائِعاً أَبْتَغِيْ لهم إكْراما

ومنها قوله :

رَمَضانُ اعْتَدَى عليَّ وأَمْسَى   سارقاً ذاكَ لا يَخافُ مَلاما
أَتَقاضَى ما كانَ شَعْبانُ منه   سارقاً فاعْتَدَى عليَّ انْتِقاما

ومنها :

لا تُضَيِّعْ حَقِّي بشاهدِ زُورٍ هو أعمى بصيرةٍ أو تَعامى

جَبْهةُ الشاهدِ اكْوِها فهو وَسْمٌ لكذوبٍ عن زُورِه ما تَحامى

إنَّ كيَّ الخسوف للشمس ظُلْمٌ وكذا الدَّهرُ لم يَزَلْ ظَلّاما

دُمْتَ في مطلَعِ السعادةِ بَدْراً يَمْحَقُ الظُّلْمَ نورُه والظَّلاما (١)

وكأني به في هذه الأبيات أراد أن يتخذ ذلك الشعر أداة رمزية للحديث عن نفسه ،وبخاصة بعد أن عرفنا في الباب الأول مدى ما واجهه من خصومه من متاعب ومضايقات ، فقد بدأها بالحديث عن الظلم والضيم والتعسف ، وختمها بالحديث عنه كذلك ، وأن ذلك الإمام المرسلة إليه هذه القضية هو الجدير بمحق الظلم والظلام .

وما هذه القصيدة إلا صيحة من صيحات الشهاب للحديث عن المظالم الاجتماعية ـ التي كانت سائدة في عصره ـ وبيانها تارة تصريحا و تارة تلميحا كما عرفنا ذلك في حديثنا عن كتاباته الإنشائية ،والمهم أنه لم يكن يترك فرصة من الفرص أوحادثة تمر إلا ويحتشق حسامه لبيان المفاسد والمظالم المنتشرة في عصره .

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ ،وديوانه ورقة ٥ ل

الشوق والحنين

مما لا شك فيه أن لحياة الشهاب التي قضى بعضها جوابا للافاق ،كلما حل بمكان انتقل منه الى آخر ، طلبا للعلم ولحياة كريمة ، وذاق في سبيل ذلك مرارة الفراق عن أهله ووطنه وأحبائه أكبر الأثر في أن يطلق العنان لفكره وبيانه ليعبر عن مدى شوقه وحنينه لأهله ووطنه ،وأن شعره مرآة صادقة عن ذلك ،ولكننا لم نجده يخص الحنين والشوق بقصائد مطولة ،الا أن ما وجد من مقطعات شعرية مستقلة أو في ثنايا قصائد أخرى تعبر بشكل واضح عن حبه و حنينه . وقد صدق حينما قال :

قُلْ للأحبَّةِ أنْتمُ مُذْ غِبْتُمُ ... لَمْ أَلْقَ وَجْهاً للسلوِّ جَميلا
فَخَلَقْتُ أيامَ الوِصَالِ قَصيرةً ... ولَبِسْتُ لَيْلاً لِلْهموم طَوِيلا (١)

وصور حاله بعيدا عن ديار الأحبة بقوله :

شُتِّتَ النَّومُ والأحِبَّةُ عنـي ... مَعَ تأليفِ أدْمعي وولُوعـي
أنَا في بَلْدةٍ وأهْلي بأخْـري ... وحَبيبي بغَيرِ تلك الرَّبُـوع
فكأنَّ الزمانَ مِنِّي اشْتَرى الصَّفْوَ ... وبنَقْدٍ أسَالهُ مِنْ دُمُوعـي (٢)

ويقول في أخرى مبينا مدى شوقه لمصر وأهلها ،وأن البعد عنها جعل صبره ينفذ ،ومدامعه تفنى :

يَزيْدُ اشْتياقي نَحْوَ مِصْرَ وأهْلِها ... كما زَادَ مدُّ النيل حتَّى تَفَجَّـرا

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣٠٢ .
(٢) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ٢٠٥ .

أَذَابَ النَّوى صَبْرِي وأَفْنى مُدامعي   فقالوا سَلا عن حبِّنا وتَسَتَّرا

ولَمْ يَبْقَ لي إلا تَفَكرُ نيلها   ولوشئتُ أَنْ أَبْكي بَكَيْتُ تُفكَّرا (١)

ويقول واصفا حبه لمصر :

إنَّ وَجْدي بمصرَ وَجْدٌ قَديمٌ   وحَنيني كما تَرونَ حَنيني

لَمْ يَزَلْ في خيالي النِّيلُ حتَّى   زَادَ عن فكري فَفَاضَتْ عيوني (٢)

ويقول في بيتين آخرين رداً على من استغرب كثرة دموعه نظرا لشوقه لموطنه :

وقائلةٍ ما هٰذهِ الأَبْحرُ التي   جَرَتْ من ماقيهِ ولَمْ تَلْكَ غائضه

فَقَالوا لها أَنَّها رُمِصرَ التي ثَوَتْ   بخاطِرِهِ أَمْسَتْ من العَيْنِ فائضة (٣)

كان هذا عن أهله ووطنه وأحبابه ،ولكن ماذا عن أيام الصبا والحنين والاشتياق إلى أيامها الجميلة ؟

إنها لم تكن بأقل حظا مما سبق فلقد ظفرت بنصيب من شعرالشهاب ، وإنْ كنا لم نجده يفرد لها قصائد طوالا ومقطعات خاصة،إلا أن ما وجد في ثنايا بعض قصائده كاف في نظري لاعطائنا تصورا عن موقفه من تلك الأيام ومدى تمنيه لعودتها ،من ذلك قوله من قصيدة كتبها إلى محمد القشتالي :

سَلا بَانةَ الواديْ لَدَى المَنْزِلِ الرَّحْبِ

مَتَى فَقَدَتْ غُرَّ المناقبِ من صَحْبي

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٩٢ .

(٢) نفس المصدر و نفس الجزء والصفحة .

(٣) نفس المصدر ونفس الجزء والصفحة .

فهل في حماها نفحةٌ عنبريـــةٌ قد استودعتها الريحُ من نفس الرَّكبِ
وهل مِنْ عهودٍ قد تقضّت بقيةٌ يُوفّى بها حقّي ويُقضى بها نحبي
سقى اللهُ عهدَ اللأحبّةِ صيّبـا من الطرفِ تُغنيهِ عن الوابلِ السَّكْبِ (١)

ومن شعره الذى عبر فيه عن شوقه لأصدقائه قوله من قصيدة كتبهـا إلى صديقه محمد الدمياطي الحنفي (*) :

أيا روضَ مجدٍ مُنبتاً زهرَ الحمْـدِ ومَنْ ذكرُهُ أزكى من العنبرِ الورْدِ
ومعْدنَ فضلٍ منهُ تبدو جواهرٌ نفائسُ عزّتْ أنْ تقابلَ بالنَّقـــد
أحبُّكَ حُبّاً لو تقسّمَ في الورى غدوْا في أمانٍ من عدوٍّ ومن ضِـدِّ
وفي القلبِ جمْرٌ من بعادِك فوقَهُ يفوحُ ثنائي فيكَ كالعُودِ والنَّـدِّ
ومَنْ كانَ في القلبِ المتيّمِ حاضراً يجاورُ فيهِ خالصَ الحُبِّ والـــودِّ
فسيّان منه القُرْبُ والنَّـــوى على أنَّ قُرْبَ الدار خيْرٌ من البُعْدِ (٢)

وبذلك يتضح أن للشهاب أشعارا في هذا الغرض وإن لم تكن قصائد مستقلة وذات طول إلا أنها تعطينا صورة عن مدى تشوقه وحنينه أيام الغربة لأهله وأصدقائه وأيام شبابه .

---

(١) المصدر السابق ونفس الجزء ص ٣٣٤ .
(*) هو محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي المصرى الحنفي لازم شيوخ الحنفية بمصر وأجازوه توفي بمصر سنة ١٠١٤هـ ، خلاصة الأثر جـ٤ ص ٢٧٠ ، والريحانة جـ٢ ص ٥٦ .
(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٥٧ ، وديوانه ، نسخة الازهر ورقة ٦٩ .

العتـــــاب

ينشد الانسان في حياته صداقة الناس ،ويصطفي من بعضهم أناسا يجعلهم موطن سره ،ومشاركيه في الأتراح والأفراح ،وتستمر تلك الصداقة وقد يطرأ عليها طارئ في زحمة الحياة الواسعة ،وقبل أن تعود المياه إلى مجاريها تسبقها مرة يحاول كل صديق أن يمحو ما علق في نفس صديقه من كدر وكآبة وتلك مرة من مرر العتاب عند الأصدقاء.

وقد عرفنا أن للشهاب الخفاجي علاقة صداقة ومودة مع عدد كثير من معاصريه ،ومن البدهي أن شعره الموجود في العتاب لم يكن إلا نتيجة أمر ما حصل بينه وبين بعض أصدقائه ،دونما تحديد لصديق معين أو إيضاح لمكانته الاجتماعية ،والمهم أن ذلك الشعر الموجود يصور لنا فترة من حياة الشهاب.

ومن شعره في عتاب بعض أصدقائه :

لَوْ قُلْتُ قَدْرِيَ مِن عُلا الطَّوْدِ أَجَلّ ... نَادَى الصَّدا من شامِخَاتِه أَجَـلْ

يا مَنْ أَرَى في قُرْبِهِ لِي راحـــةً ... أَلَذُّ من شَرْخِ الشبابِ المُقْتَبَـلِ

أَعْذَبُ من وَصْلِ حبيبٍ هاجِـرٍ ... يُسَرِّحُ الأفواهَ في رَوْضِ القُبَـلِ

يَشِيبُ رأسُ الشمسِ لانْتِظـارِهِ ... وتُصْبِحُ الشهبُ جميعُها زُحَـل

فيا أَمَلَّ الناسِ من إخوانِـــه ... أَنْتَ نتيجةُ الأماني والأَمَـل

أَبْرِقْ وأَرْعِدْ يا سَما للمُنــا ... مَنْ جَاوَرَ السَّحابَ لا يَخْشَى البَلَل

واقْبَلْ فُكاهةً تَزُورُ هاجِــراً ... ساحِبَةً ذَيْلَ حَياءٍ وخَجَـلِ (١)

---

(١) الديوان نسخة الأزهر ورقة ٤٦ .

فمن الملاحظ أنه بدأ هذا العتاب بالفخر ،فقدره أكثر علوا من الجبل الشامخ، ثم يتجه بعد ذلك إلى صاحبه مناديا إياه بدون أن يصرح باسمه قائلا : يا من قربه لي راحة لدرجة أنها ألذ وأفضل من أيام شاب في مقتبل عمره ، ثم يزيد الأمر توضيحا بتشبيهٍ آخر إذ يقول : إنَّ قربك مني أيها الصديق "أعذب من وصل حبيب هاجر" وهكذا إلى أن تنتهي هذه القصيدة .

وأرى أنه ناقض البيت الأول بما بعده حيث افتخر كما قلت: بأن قدره أشد علوا من الطود الشامخ بينما في الأبيات الأخرى نزل عن ذلك وأخذ يدغدغ حواس صديقه - علّه يرجع إلى ما كان عليه من محبة وإخاء - بكلمات تدل على تذلل وخضوع لذلك الصديق مما يتنافى مع حاله في البيت الأول .

ويقول في مقطوعة من العتاب :

يا واصلينَ حبـالاً	كانَتْ تَشدُّ المودَّه
لا تَقْطَعُوها بِبُعْدٍ	قد غيَّرَ النَّأْيُ عَهْدَه
فإنْ تقولوا وَصلْنا	مِنْ بَعْدِ ذا القَطْعِ شَدَّه
يَبْقى وحقِّك فيها	من ذلك القَطْعِ عُقْده (١)

فهذه الأبيات جيدة التركيب سهلة العبارة ذات إيقاعٍ خفيف ،وهي تعبر إلى جانب ذلك عن قدرة الشاعر على استلهام عبارة مشهورة في كتب السيرة وهي استعارة جميلة في موضعها : " إن بيننا وبين الرجال

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص١٨٣ .

حبالا وإنا قاطعوها ". ويقول في أخرى :

طالَتْ مواعيدُكَ يا سيِّدي والعُمْرُ قد يقْصُر عن ذا المِطَال

فَخِلْتُ آمالي لها دُرْبةٌ قد عَلَّمتْها المشْيَ فوق الحِبال

ولوْ تَرى مِثْلاً لها رتَّبة جَرَتْ على فُرْجَتِها بالنَّوال (١)

وهكذا يتبين أن للشهاب في هذا الغرض قصائد ومقطوعات لا تقل عن مستوى بقية شعره في الأغراض الأخرى .

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٣٢٩ .

مطارحاته الشعرية

المطارحة هي " التحاور والمناظرة ".

والمقصود بها هنا أن يرسل أديب ما إلى آخر قد يكون موازيا له في الدرجة وقد يكون أكبر أو اصغر ، يفيض طبه فيها بألوان من المدح والثناء ،طالبا منه الرد طيها فيكون قد عرض نفسه عليه .(١)

و "هذه المطارحات من سنن الأدباء في هذا العصر وما سبقته من عصور قريبة منه - وهي - تمثل ضرورة لهم في ذلك الوقت فليس هناك من وسيلة للتعريف بهم أجدى من هذه الوسيلة - لأنه بها - سوف يجد طريقه إلى وظيفة في التدريس أوالفتوى أو غيرهما من وظائف الدولة في ذلك العصر".(٢)

والسؤال الذى يمكن أن يوجه الآن : " هل تعد هذه المطارحات من الإخوانيات المعروفة " ؟ وقد أجاب على ذلك الدكتور محمد مرسي الخولي بقوله : " إنه يعد هذا النوع من الإخوانيات إلى حد ما ،وذلك إذا اعتبرناه علاقة محدودة بين شخصين يحمل كل منهما قدرا من المعرفة أو الود للاخر ،ولكن المستقرىء له يدرك أنه غرض مستقل تماما ، تختلف أهدافه عن أهداف الإخوانيات المعروفة من مودة وشوق ".(٣)

ولكنني أرى أن الصواب عدها من الإخوانيات لأن كثيرا من المطارحات تحمل المودة والشوق وهما من الزم ما يلزم لعد الشعر إخوانيا .

---

(١) و(٢) درويش محمد الطالوى : سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر ، طبعة عالم الكتب ببيروت سنة ١٤٠٣هـ جـ١ ص ١٠ تحقيق محمد مرسي الخولي .

(٣) نفس المصدر جـ١ ص ١٢ .

ثم أن الدكتور الخولي ناقض نفسه في صفحات تالية بنفس الكتاب حين قال : " ثمة سؤال أخير يمكن أن يثار بشأن هذه المطارحات وما موقعها من فنون الشعر؟ "

وأجاب بقوله : " يمكننا أن نقول : إن المطارحات هي نوع من الإخوانيات ، وهو فن إنساني جميل لا غنى عنه في التعبير عن عواطف الانسان وأحاسيسه نحو اخوانه ".(١)

أما الفائدة من هذا اللون الشعرى فزيادة على تقوية الروابط الشخصية بين الأدباء فهي مادة جيدة لاثراء اللغة وفن القول بألفاظ ومعان جديدة إلى جانب ما تحويه من أخبار أدبية شائقة يتناقلها الأدباء فيما بينهم ، لذلك كانوا يعتنون بتأليفها وإظهار البراعة فيها.(٢)

وشعر المطارحات عند الشهاب الخفاجي كثير جدا ، ويرجع السبب في تلك الكثرة إلى العلاقات الشخصية التي كانت تربطه مع أكثر أدباء عصره ، فلا يكاد يوجد أديب لامع معاصر له إلا وله به صلة ، وإنَّ نظرة عجلى لكتابه " ريحانة الألبا " تصدق ذلك ، فلقد طوف بالآفاق كما علمنا وكون له علاقات كثيرة سواء أكانت عن طريق التتلمذ على عدد موفور من العلماء والأدباء أم علاقات الأستاذية ، كل هذا وغيره جعله يتبادل مع غيره المطارحات.

ومن الأمثلة الدالة على اعتناء وحب الشهاب لهذا اللون الشعرى قوله من قصيدة على قافية السين المكسورة نحو ثلاثين بيتا أرسلها إلى " أبي المعالي درويش محمد الطالوى " وقال في مقدمتها : " فمما كتبته إليه لأستمطر سحائب طبعه النَّضِر ، وأستجدى كرما من رقيق خلقه

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٦٤.

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٦٥ - ٦٦.

الحر ، وأستمري منها ماء الحياة طى غلة ،قطرات لو وقعت في بحور الأشعار لم يكن بها علة، قولي :ـ منها في الطبيعة ـــ

قَبَّلْتُ مُصْطَبِحاً شِفاهَ الأكْؤسِ ... والصبحُ يَبْسَمُ لي بِثَغْرِ ألْعَسِ

حتَّى غَدَتْ منهُ الغزالةُ واخْتَفَى ... مِسْكُ الدُّجَى عِنْدَ الجوارِي الكُنَّسِ

والنَّهرُ سَيْفٌ والنَّسيمُ فِرِنْدُهُ ... ولَهُ حَمَائِلُ من خَمَائِلِ سُنْدُسِ

أوْ صَدْرُ خُودٍ فَتَّحتْ أطْواقَها ... أو شَقَّقَتْ للوَجْدِ حلَّةَ أطْلَسِ

والطَّيْرُ تَشْدُو والغصونُ رَوَاقِصٌ ... في وَشْيِ دِيْبَاجِ الرَّبيعِ السُّنْدُسي (*)

ثم بعد ذلك يذكر عددا من الأبيات في الغزل منها قوله :

ولواحظٍ مَرْضَى بها اعْتَلَّ الصَّبَا ... والصَّبُّ بالسُّقْمِ المُبرِّحِ مُكْتَسِ

فتنَسَّمتْ بأنفُسِها ففيها عِلَّةٌ ... من وَجْدِها وفتورُ مَهْجورٍ نَسِي

فَلَكَمْ قَطَفْتُ ثِمارَ لَهْوٍ أينَعَتْ ... وغَفَلْتُ عَمَّا قَدْ جَنَى الدَّهرُ النَّسي

ثم يمدح مطارحه الطالوى بأحد عشر بيتا منها قوله :

يا عِقْدَ جِيدِ الدَّهرِ غُرَّةَ فَجرِه ... وطِرازَ ما حاكَ العُلَا من مَلْبَسِ

بَلْ كَعْبَةً حَجَّتْ لها آمالُنا ... فَدَنَتْ إلى حَرَمِ الكَمَالِ الأقْدَسِ

مِنْ آلِ طَالُو فِتْيَةً طالُوا الوَرَى ... بذُرَى أشَمَّ مِنَ المَعالي أقْعَسِ

(*) تختلف رواية الديوان في كثير من الألفاظ عن الرواية المثبتة وآثرت هذه الرواية لورودها هكذا في اكثر من مصدر لذا لم أعول على رواية الديوان .

بِمَناقِبٍ تُلِيَتْ لنا آياتُهـــا عنْها يكادُ يُبيِّنُ نُطْقُ الأخْرسِ

ورياضِ فِكْرٍ بالفضائلِ أثْمَــرتْ فغدَتْ تُحدِّثنا بطِيْبِ المَغْرَسِ

أسْكَرْتَنا بِسُلافِ شِعْرٍ لفظُـهُ كأسٌ لهُ فِكري بسمعي مُحْتَسى

وسَرَتْ نُسَيماتٌ سُحَيْراً أرْقَصَتْ طَرَباً بها عقلَ اللبيبِ الأكْيَسِ

ثم بعد ذلك يهديه هذه القصيدة ويدعو له بقوله :

فإليكها منّي قوافي دَوْحُهــا زاهٍ بمُثْمِرِ يدِ النُّهى لم يُغْرَسِ

بِكْراً إلى كفءٍ تُزَفُّ ومَهْرُها نَقْدُ الجوابِ براحةِ المُسْتأنِسِ

لا زِلْتَ في حُلَلِ المسَرَّةِ رافـلاً ما حدَّقَتْ ليلاً عيونُ الخُنَّــسِ (١)

وواضح أنه بدأها بوصف الطبيعة جزء١ جزء١ ، بعد أن شرب من الكأس ما شرب ، ثم صور انتشار الصباح ببياضه المبدد لكل ظلمة إلا ظلمة شبيهة بسواد الشفة السفلى من جارية حسناء .

ثم ما أن جاءت الشمس حتى فر الظلام من أمامها - ولكنه ظلام يحمل في طياته ريحا طيبة - ذاهبا طالبا النجاة عند الجوارى الكنس.

أما النهر فهو أشبه بقراب سيف ينسل النسيم العليل من خلالـه ، وخمائله من الزرع الأخضر الجميل الزاهي الذى يشبه خمائل السندس (٢)، وهكذا تسير القصيدة على وتيرة واحدة من التشبيهات البليغة والاستعارات الجميلة ،وتمتاز بسهولة الألفاظ وحلاوتها وجودة سبكها وجمال موسيقاهـا ،

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٥٥ ومابعدها ، وديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٣١ - ٣٢ وسانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر جـ٢ ص ٣٠٢ ، وديوان الأدب ورقة ٤٢٠ .

(٢) سانحات دمى القصر ... جـ١ ص ٦٣ .

بحيث لا يحس القارئ لها أن هنالك لفظا قلقا في موضعه .

وهكذا يتبين لنا من خلال هذه القصيدة مدى المقدرة الشعرية التي أوتيها الشهاب وخاصة إذا ما عرفنا أنه قال هذه القصيدة إبّان الشباب ، عندما سافر الطالوى إلى مصر وكان ذلك في ولاية ابراهيم الطالوى على نابلس [*].

أما قصيدة الطالوى التي قال في مقدمتها : " ولما أبت أنوار ذلك الشهاب إلا استدعاء رفع الحجاب ، عن وجه الجواب ، على حين خط الشيب ، وتزرّى رداء الشباب القشيب ، لم أجد من الإجابة بدّا ، فنظمت بهذه اللالئ عقدا "[1] ، فمنها قوله :

خَدٌّ تَوَرَّدَ من لَهِيْبِ تَنَفُّسِي ... أم قَدٌّ مَعْسُولِ الْمَرَاشِفِ أَلْعَسِ

من ريم وجْرة أو جآذرِ جاسم ... لَبِسَ الشَّبابَ الرَّوقَ أَحْسَنَ مَلْبَسِ

وإذا رنا فاللَّحْظُ منه بابلٌ ... هاروتُ فيه ونُطْقُهُ كالأَخْرَسِ

ومن مديحها :

وأتتْ وفيَّ بَقِيَّةُ الْلَهْوِ بها ... من شَرْخِيَ الماضي تَعِلَّةَ مُفْلِسِ

من ماجد وشهاب فضل ثاقب ... حلو الشمائل بالفضائل مكتسي

فَظَنَنْتُ رَيْعانَ الشبابِ أُعيدَ لي ... حتى الوصالُ من الحبيبِ المؤْنِسِ

(*) هو ابراهيم بن حسن بن ابراهيم الدمشقي الطالوى ابن خالة ابوالمعالي درويش الطالوى تولى امارة نابلس سنة سبع وتسعين وتسعمائة وبعض وظائف هامة في الدولة مات سنة ١٠١٤هـ . خلاصة الاثر جـ١ ص ١٨ .

(١) سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر جـ٢ ص ٢٠٤ .

ثم يأخذ في مدح الشهاب والإعلاء من مكانته بقوله :

لِمَ لا وناظِمُها الشِّهابُ من اعْتَلَى ... شُهُبَ العُلَا بكَمالِ فَضْلٍ أقْعَسِ

فَرْعٌ نَماهُ إلى خَفَاجةَ مُحْتِدٌ ... والفَرْعُ يُنْبِئُ عنه طِيبُ المَغْرِسِ

وافَتْ لنا منهُ حديقةُ روضةٍ ... خَجِلَتْ لبهْجَتِها عيونُ النَّرْجِسِ

إني لا عَجَبٌ من شِهابٍ قَدْ سَما ... مُتَبَوَّأَ العلياءِ أَرْفعَ مَجلسِ (١)

ومن مطارحات الشهاب الخفاجي أيضا ما كتبه الى محمد بن أحمد الحلبي (*) وهذه القصيدة على قافية الدال بعدها هاء ساكنة ذات موسيقى مطربة وعدد أبياتها ثلاثون بيتا بدأها بغزل استغرق منه نصف القصيدة منها قوله :

حتَّامَ يَغْزوني صُدُودُه ... والصَّبرُ قَدْ كُسِرَتْ جنودُه

سَكْرانُ من ألحاظِهِ ... قامَتْ على قَلْبي حُدودُه

وسَقيمِ طَرْفٍ لَمْ تَزَلْ ... أبداً لواحظُنا تَعُودُه

بَرَقَتْ بَوارِقُ وَصْلِهِ ... والهَجْرُ قَدْ خَرِسَتْ رعودُه

غُصْنٌ تَميلُ به الصَّبا ... في كُثْبِ أرْدافٍ تَئُودُه

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ وريحانة الألبا جـ١ ص ٥٧-٥٨ .

(*) هو محمد بن أحمد بن قاسم الشهير بالقاسمي الحلبي ولد بحلب ورحل إلى الروم وصار من كبار المدرسين بها ، كف بصره فأحيل إلى التقاعد براتب عين له من قبل السلطان . مات سنة ١٠٥٤هـ .
حاشية الريحانة جـ١ ص ٧٨ عن اعلام النبلاء ٦/ ٢٧٥ .

ثم يمضي في غزله ذاك إلى أن يصل إلى مديحه لصاحبه بتخلص جميل حين قال :

وَالكَأسُ نَجْمٌ لاحَ في ... فَلَكِ المَسَرَّةِ لي سُعُودُه
يَصْفُو فَيَحْكي ذِكْرَ مَنْ ... قَدْ زَيَّنَ الدُّنيا وجُودُه
ذَاكَ ابنُ قاسمٍ الذي ... ما زالَ في تَعَبٍ حَسُودُه
رُقِيَتْ بِهِ حُلَلُ العُلا ... وزهَتْ بطَلْعَتِهِ بُرُودُه
ما زالَ يُسْقَى مِنْ مِيَا ... هِ الفضلِ حتَّى أخْضَرَّ عودُه

إلى أن يقول في خاتمتها :

قَدْ كانَ فكْري صائماً ... حتَّى طَلَعْتَ وأنْتَ عِيدُه
فإليكَها عِقْداً لجيـ ... ـدِ الدَّهر زيَّنَهُ نَضِيدُه
بِكْراً يَرُومُ جَوابَها ... مَهْراً تروقُ لها نقُودُه
ولئن تكُنْ قيدَ النُّهى ... فالحبُّ تُسْتَحْلَى قيودُه
فالْبَسْ لِباسَ مَسَرَّةٍ ... في الدهرِ لا يَبْلَى جديدُه (١)

أما جواب محمد الحلبي فمن نفس البحر والقافية وكذا عدد الأبيات موازٍ لقصيدة الشهاب ، بدأها بالغزل كذلك :

للظَّبْيِ لَفْتَتُهُ وجِيدُه ... والوَرْدِ ما أبْدَتْ خُدودُه
والدُّرُّ يَزْهُو بالذي ... في ثَغْرِهِ منه نَضِيدُه

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٢٩ وريحانة الألبا ج١ ، ص ٨٠ - ٨١ .

وبِوَجْهِهِ شَرَكُ العُقـــو ... لِ فأيُّ عَقْلٍ لا يُصِيـــدُه

في كلِّ يومٍ للهـــوى ... من حسنه معنى يزيـــده

روض سقاهُ اللّـــهُ مـــا ... ءَ الحُسْنِ فاحْمَرَّتْ خدُودُه

ثم يمدح مطارحه الشهاب بقوله :

وَهُو النَّهارُ إذا بَـــدَا ... مِنْ نَفْسِهِ قامَتْ شُهُـــودُه

كضِيَاءِ مَوْلانـــا شِهـــا ... بِ الفَضْلِ إذْ طَلَعَتْ سُعُودُه

ما زالَ يَسْمو في سَمـــا ... ءِ المَجْدِ زيَّنَها وُجـــودُه

حتَّى تَقَطَّعَتِ المطـــا ... معُ عَنْه واسْتَعْفى حَسـودُه

وَقَّادُ فِكْرٍ أيُّ خَطْـــ ... ـبٍ ليس يُطْفِئُه وَقـــودُهْ

ثم يخاطب الشهاب طالبا منه أن يعذره في قصيدته هذه لأنها من خاطر قد جف عوده حين قال :

مَوْلايَ عُذْراً إنَّهـــا ... من خاطرٍ قدْ جَفَّ عُـــودُه

بعُدَتْ بقَوْلِ الشِّعرِ فـــي ... عهدِ الصِّبا حِيْناً عُهـــودُه

لبَّى دُعاكَ وأيُّ مـــو ... لًى لا تُلَبِّيهِ عَبيـــدُه

ما ضَرَّه عِيدٌ نَـــأى ... ما دامَ من لُقْيَاكَ عِيـــدُه (١)

---

(١) ريحانة الألبا جـ ١ ص ٨١ - ٨٢ .

ونكتفي بهاتين القصيدتين للدلالة على أن الشهاب كانت له مشاركة فعالة في هذا الموضوع ،وأظهر براعة في ذلك مما حدا بمطارحيه الاستجابة لمطارحته ويلتمسان منه العذر إن قصرا عنه ، وواضح أن هذه المطارحات قريبة جدا من الشعر الإخواني لأنها تحمل عاطفة الشوق والمودة بين الصديقين المتطارحين كما قلنا ذلك سابقا .

الحكمــــــة

إن مزاج شاعرنا من خلال تتبعنا لبعض شعره أميل إلى العاطفة منها إلى غيرها ، ولكننا مع ذلك وجدناه يسطر في ديوانه عددا لا بأس به من أبيات الحكمة التي هي نتيجة التفكر والأناة والتعقل .

وربّما أنّ الحياة الشهاب الصعبة والتجربة الواسعة ولطول عمره من ناحية أكبر الأثر في صقل موهبته الشعرية ، ومجيء تلك الأبيات على لسانه نابضة بالحيوية إلى حد ما ، على أن شعره الحكمي وإنْ كان كذلك إلا أن فيه تأملاً ساذجاً عفوياً وفيه حكمة واقعية محسوسة .

ومن الملاحظ أنه لم يفرد قصيدة كاملة في هذا الغرض بل جاء بها في ثنايا قصائد أخرى ،وقد يفردها ببيت مستقل وهو اكثر ورودا من الأول . فمن الأول قوله :

من قصيدته التي عارض بها معلقة زهير بن أبي سلمى ،ومعلوم أن قصيدة زهير اشتهرت بحكمها ،ونحن إذا نظرنا إلى مقدار الحكم في قصيدة الشهاب لوجدناها تزيد على عشرين بيتا ،منها :

وما كلُّ غُرْسٍ للنَّصيحةِ مُثْمِـرٍ ... ولا كلُّ تالٍ مُنْتجٍ للقَـدَّم
تَذَلَّلْتُ في حُبّي لهم فتَمَنّعوا ... وَمنْ لا يُكرِّم نَفْسَهُ لا تُكَرّم
وَمنْ يكُ فَرْعاً للمكارمِ مُثْمِراً ... رفيعاً بأحْجَارِ الملامة يُرْجَمِ
وَمَنْ يزْرعِ المعروفَ يَسْقِ غِراسَه ... وما كلُّ بانٍ للعُلا بِمُتَمِّم

وَمَنْ يَشْتَرِكْ في عَرْفِهِ سائرُ الوَرَى   تَفَرَّدَ بالعليا تفرُّدَ أعْصَمِ
وَمَنْ بَاتَ فيما في يَدِ الْغَيْرِ راغباً   يُضِلَّ الأماني في فَيَافي التَوَهُّمِ
وَمَنْ يَكُ مِعْوَجّاً عَنِ الْحَقِّ والتُّقى   فَلَيْسَ لَهُ غَيْرُ اللَّظَا من مُقَوِّمِ
وَمَنْ يُحْتَضَرْ يَسْلَمْ من السُّقْمِ والضَّنا   وَمَنْ يَنْجُ من داءِ السلامةِ يَهْرَمِ
وَمَنْ فَرَّ من جُنْدِ المنايا أَسَرْنَهُ   بقَيْدِ قضاءٍ مُوثَقِ الفَتْلِ مُبْرَمِ (١)

وواضح أن الشهاب تأثر بما في معلقة زهير بن أبي سلمى من حكم ، فالبيت الثالث مأخوذ من قول زهير :

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرافَ الزِّجاجِ يُطِعْنَهُ   ولو رامَ أَنْ يَرْقَى السماءَ بِسُلَّمِ (٢)

والبيت الثامن مأخوذٌ من قول زهير كذلك :

رأيْتُ المنايا خَبْطَ عَشواءَ مَنْ تُصِبْ   تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ (٣)

ومن الثاني :

أَرْسِلْ إذا أرْسَلْتَ خِلاً حاذِقاً   إِنَّ الرسولَ تُرجمانُ العَقْلِ (٤)

وقوله :

كَمْ ناصحٍ وَصَفَ الطَّرِيقَ لمُدْلجٍ   وَيَنامُ عن سَنَنِ الطَّريقِ الواضِحِ (٤)

وقوله :

إنْ نَصَحْتَ الصَّديقَ فانْصَحْهُ سِرّاً   كُلُّ نُصحٍ بَيْنَ الملا تَقْرِيعُ (٤)

---

(١) ديوانه نسخة الازهر ورقة ٢٠ .
(٢) أبو بكر محمد بن القاسم الانبارى شرح القصائد السبع الطوال طبعة دار المعارف سنة ١٤٠٠ هـ ط ٣ ص ٢٨ تحقيق عبد السلام محمد هارون .
(٣) شعر زهير بن ابي سلمى صنعة الاعلم الشنتمرى ص ٢٥ .
(٤) نفحة الريحانة جـ ٤ ص ٤٧٢ .

النصح والوعـظ والزهـــد

للشهاب الخفاجي أبيات سطرها في ديوانه بدا من خلالها ناصحا واعظا زاهدا وما ذلك إلا نتيجة للحياة المرة التي كابدها ،وكأني به انما عنى نفسه فهو يدعوها مرة إلى اغتنام فرصة الحياة في العمل الصالح ، ثم يسدي عدة أبيات متوجها إلى مخاطبه داعيا إياه أن ينصت إليه فانه لم يدخر في نصائحه هذه قالا وقيلا وذلك حينما قال :

اشْرَبْ هنيئاً سَلْسَبيـْــلا ولخَيْرِ وِرْدٍ سَــلْ سَبِيــْــلا
ولصالحِ الأَعْمــالِ كُــنْ ما عِشْــتَ مُتَّخذاً خَليــْــلا
وارْبَحْ حياتَك وادَّخِــر فـي كَنْزِها ذِكْـراً جَميــْــلا
لم يـأْتِ أَمْـراً سَــيِّئــاً إلا امْرءاً جَهِــلَ الجَميــْــلا
فاسْــمَعْ نصيحـةَ ســابـقٍ لَمْ يَدَّخِـرْ قــالاً و قِيــْــلا
مَنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ مُنْصِفــاً في الودِّ فابْـغِ بِــهِ بَديــْــلا
وأَعِــزَّ نَفْسَــك إنَّ مـــن يَرْجُ الأَنـامَ يَعِـشْ ذليــْــلا
والحِرصُ كَمْ حَرَمَ الْفَتَــى لمَّا رَجا دَهْـراً بَخِيــْــلا
والعِزُّ خَيْرُ نتيجـــــةٍ في العُسْرِ لَمْ يَحْتَجْ دليـلا (١)

ومن نصائحه ووعظه قوله من قصيدة أخرى و فيها معنى الزهد :

فاهْجُرِ الغَـمَّ وصِلْ صَفْوَ الـُمنى وَكِلِ الأَمْرَ لتَدْبيـرِ القَــدَر
والْهُ عَنْ أكْدارِ دنْياكَ بِمَــا قَرَّطَ الأَسْماعَ مِنْ رُطَبِ الـدُّرر

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٤ .

الْزَمِ القَنْعُ ففي القَنْعِ لِمَنْ يَطْلبُ الرَّاحةَ مأوى ومَقَر
وأرى الرزقَ كعِلْمٍ خَيْرُه مثل ما قالوهُ ما قلَّ وقَرّْ (١)

فهذه الأبيات ترجمة ذاتية لحياة الشهاب وكأني به إنما عنى نفسه بذلك بعد أن عاش في ضنك من العيش بعد حياة رغيدة .

ثم أننا وجدنا للشهاب في ديوانه قصيدة يدعو فيها إلى عدم الركون إلى الدنيا والاغترار بها ، ويذمها ويزهد فيها ، ويدعو إلى الخوف من الله وهجر الذنوب والمعاصي ، وأن اللبيب من إذا حصل منه شيء من ذلك بادر بالتوبة إلى الله وذلك حين قال :

قَدْ فَطِنَّا لِمَا تُريدُ الليالي وَعَرَفْنَا الكتابَ بالعُنوان
كَيْفَ يَغترُّ بالحياةِ لَبِيبٌ ما احْتياجُ العيانِ للبُرْهانِ

ومنها قوله :

وَضَحَ الصّبحُ عَنْ سِرَاجٍ غَنِيٍّ فهو بادٍ لِمَنْ لهُ عَيْنَان
واللبيبُ اللبيبُ مَنْ لَمْ يبارِزْ خالِقَ الخَلْقِ بالعِصْيانِ
فإذا ما بَدَتْ له فرطاتٌ فلْيَتُبْ عاجلاً بغَيْرِ تَوانِ
ولرَبّي أَسْلَمتُ أَمْري ارْتقاباً لكمينٍ عاجلاً مِنْ بُقْعةِ الإمكانِ (٢)

وهذه الدعوة إلى الزهد وعدم الركون إلى الدنيا قد تكون صادرة من صميم فؤاده لأنه بعد أن عانى ما عانى في حياته في سبيل طلبها

----

(١) المصدر السابق ورقة ٧٩ .
(٢) نفس المصدر ورقة ٧٧ .

لم يخرج منها بشيء . فكأنه عندما رأى الحال كذلك وأن لا خير في الدنيا يرجى ، أخذ في الدعوة إلى هجرها ونبذها وغالب الظن أنه إنما فعل ذلك في آخر حياته لأنّ من المعلوم لدينا أنه في بداية حياته بذل في سبيلها كل ما في وسعه وانقادت له أياما ثم أعرضت عنه كل ذلك بتدبير من الله سبحانه وتعالى .

النظم العلمـــي

هو فن عظيم الفائدة " درج عليه العلماء المسلمون منذ زمن بعيد ليسهل على المتعلمين حفظ قواعد العلوم على اختلافها "[(١)] وقد كان للشهاب الخفاجي مشاركة في ذلك إلا أننا لم نجد له إلا مقطوعتين فـي ذلك الاولى تتكون من ستة أبيات ،والثانية تتكون من ثلاثة أبيات .

أما الأولى فهي جواب لسؤال أرسله القاضي أحمد المحلي[(*)] المالكي قائلا : " لم منع صرف أشياء مع صرف أسماء " فأجابه الشهاب بقوله :

أُشْياءُ لفْعَاءُ في وَزْنٍ وَقَدْ قُلِبوا ... لا مُألـها وهي قبلُ القَلْبِ شيـآءُ
وقيل أَفْعَالٌ لَمْ تُصْرَفْ بلا سَبَبٍ ... منهم وهذا لوجْهِ الضَّعْفِ إيماءُ
أوْ أُشَيْئاءُ وَحذْفُ اللامِ عَنْ ثِقَلٍ ... وَشَيْئِيُ أَصْلُ شيءٍ وهـي آراءُ
وأَصْلُ أسماءَ أَسْما وَكباب كَسَـا ... فاصْرِفْه حَتْماً ولا يَغْرُرْكَ أَسْمَـاءُ
وَمَنْعُ صَرْفٍ إِذا ما كان في عَلَمٍ ... لأجْلِ تأنِيْثِهِ والأَصْلُ وَسْمَـاءُ
فَقُلْ لمن يَدّعي في العِلْمِ تَوْسِعةً ... حَفِظْتَ شيئاً وغابَتْ عَنْك أشْيـاءُ[(٢)]

فهذه الأبيات تدل على مقدرة الشهاب على النظم كما أنها تدل على سعة علمه ومعرفة أسرار العربية.

وأما الثانية فقد قال الشهاب " ذكر لنا أن قالون[(**)] همز لفظ النبي

---

(١) الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر القسم الثاني ص ٦٧١ .

(*) هو احمد المحلي المالكي كان قاضيا ،وتولى التدريس والافادة كان من أصدقاء الشهاب وزميله في الطلب .

(٢) ريحانة الالبا ج٢ ص ١٤١ .

(**) هو أبو موسى عيسى بن ميناء بن وردان المدني انتهى اليه أمر العربية وقراءة القرآن في الحجاز توفي سنة ٢٢٠ هـ ، هامش الريحانة ج١ ص ١٤١ .

حيث وقع في موضعين من سورة الأحزاب في قوله عز وجل : " لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم "(١) وقوله : وامرأة مؤمنة إنْ وهبت نفسها للنبي (٢) ،فأبدلها ياء في الوصل وهمزها في الوقف . . . .
وقد نظمت ذلك ،فقلت :

هَمْزُ النبي لقالونٍ كما نُقِلا في غير موضِعَي الأحْزابِ إنْ وُصِلا
لا الوَقْفُ إذْ لم يكُنْ فيهِ لَهُ سَبَبٌ بجَمْعِ هَمْزَيْنِ حتى يُوجِبَ البَدَلا
مُوافِقاً لسواهُ فهو أرجحُ مِنْ تَسْهيلِها ولِهذا عَنْهُ قد عَدَلا

---

(١) الأحزاب آية ٥٣.
(٢) الأحزاب آية ٥٠.
(٣) ريحانة الألبا جـ ٢ ص ١٤٢.

الألغـــاز

من الأغراض التي نظم فيها الشهاب الألغاز ،ولكنه لم يكثر منها ، حيث لم أجد له سوى مقطوعتين تأخذ واحدة منها وذلك قوله :

أيُّها المُفردُ الذى صارَ جَمْعاً ... في المعالي ورَقَّ لفْظاً وطَبْعا
أيُّ شيءٍ لدى السمواتِ يُلفى ... وهو في الأرضِ بالجُراءةِ يَسْعى
ذو ثلاثٍ وأرْبعٍ إنْ عَدَدْنا ... وتراهُ إذا تَحَقَّقْتَ سبْعـــا
فأجِبْني بجَوْهرٍ من نظـــامٍ ... كيْ أُحَلِّي به لساناً وسَمْعـــا (١)

وهذا اللغز كتبه إلى محمد الفشتالي ،فأجابه بقولـــه قصيدة منها :

يا بَديعاً حازَ المَحاسنَ طَبْعا ... وكَرِيماً لهُ المحامِدُ تَسْعَـــى
ليَ لُغْزٌ أهْدَيْتَه في بـــرودٍ ... مِنْ مَعانٍ كأنَّها وشْيُ صَنْعَـــا
حاكَهُ فِكرُ ماهرٍ قَدْ تنَاهـــى ... في ضروبِ البَيانِ أصْلاً ونَزْعـــا
خامِسٌ من بروجِ الشَّمْـــسِ ... وفي الغابِ بالضُّبارِمِ يُدعَى (٢)

والمقصود باللغز وهو " الضُّبارم " - الأسد - وهو الخامس من بروج الشمس، ونستطيع تفسير قلة هذا النوع عند الشهاب بأحد أمرين .

أنه نظم في هـذا الميدان أكثر مما وجد ،ولكنه لم يصلنا بل ضـــاع ضمن ما ضاع من تراثـه .

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص ٣١٢ .
(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٣١٣ .

ان هذا الشعر منبعه الفراغ الموجود لدى كثير من الشعراء في هذا العصر وما قبله ،والذى يظهر لنا أن الشهاب لم يكن لديه الفراغ الكافي ، ليستكثر من هذا النوع ، وأن الموجود منه لم يكن الدافع إليه فيما نظن إلا حب المطارحة والتفكه ومجاراة المعاصرين .

تقريظ الكتب

وهو أن يطلع الشاعر على كتاب ما فيكتب على غلافه أو حاشيته شعرا ثناء على الكتاب وصاحبه ، ومعلوم أن الشهاب عالم من علماء عصره ،وكانت له مكتبة ضخمة لذا فقد قرّظ بعض الكتب التي اطلع عليها ومن أمثلة ذلك قوله : لما ختم قراءة شفاء القاضي عياض في وصفه :

يا رُوَاحَ المَعَاني والْمَعَالي	تُفَدِّي الغِيْدُ في حُلَلِ الجَمَال
عَنَيْتُ بهِنَّ أَبْكارَ المَعَاني	ولسْتُ أُرِيْدُ ربَّاتِ الحِجَال
فأيْنَ الحُورُ في عالي قصُوْرٍ	ولَفْظٌ قَصْرُه صَدْرُ الرِّجَال
كألْفاظِ الشِّفَا زَهَتْ بِمَعْنىً	يطرِّزُ حُسْنَه بُرْدَ المَقَال
رَقِيْقُ اللفْظِ حُرِّرَ حُرَّ معنىً	وَوَصْفُ المُصْطَفَى المختارِ حَالي
أرَقُّ من المدامِعِ في خُدُودٍ	وماءِ المُزْنِ في قُلَلِ الجِبَال
تَرَشَّفُهُ فَمُ الأَسْمَاعِ كَيْما	يَسِيْغُ بِلُطْفِهِ غُصَصَ المَلال
فَيَشْفِي غُلَّةَ الظمآن وَجْداً	ويَرْوِي السَّمْعَ بالعَذْبِ الزُّلال
ويَجْرِي في الصحائفِ سَلْسَبِيْلا	فَيَمْحو صَفْوُهُ دَنَسَ الجِدال
تَقِيْلُ به البلاغَةُ في رياضٍ	مِنَ الأَوْصافِ ضافيةِ الظِّلال
عُقودُ جَوَاهرٍ تَزْهُو بِنَظْمٍ	يُخَرِّقُ غَيْظُه كَبِدَ اللآلي (١)

الى آخر تلك القصيدة التي بلغت ثمانية عشر بيتا .

---

(١) ديوانه نسخة الازهر ورقة ٨٢ .

وقال مُقرِّظا لشعر بعض الفضلاء :

قَرَائحُ بِكْرٍ وَلَدَتْ بِنْتَ فِكْـرةٍ لِفَاضِلٍ ظَلَّ يَخْدُمُه الدَّهْـرُ
ولوْ لَمْ تَكُنْ أَنْفاسُهُ عِيْسَوِيَّـةً لَمَا وَلَدَتْها من قرِيْنَتِهِ بِكْـرُ (١)

وقال مقرِّظا كتاب الشَّمعة في أحكام الجمعة لشيخه علي ابن غانم المقدسي :

المُقْدسيُّ الحَبْرُ نُوْرُ الهُدَى قَدْ نَوَّرَ الشَّمْعَةَ في الجُمعـة
وَفَضْلُهُ يُغْنيْك عن مِثْلِها فالشَّمْسُ تُغْنيكَ عن الشَّمْعـة (٢)

*

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر ورقة ١٦٣ .

وبذلك يتضح أن الشهاب الخفاجي نظم في نحو خمسة عشر موضعا يأتي في مقدمتها المدح بأنواعه الثلاثة ، مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ،ومدح السلاطين والولاة ،ومدح العلماء والأقران ، وتبين لنا أن أكثر قصائده في هذا الفن وفي المدح النبوي بشكل أخص حيث استأثر بقصائده الطوال ، المقصورة التي عارض بها مقصورة ابن دريد ، والهمزية ،والميمية التي عارض بها معلقة زهير بن أبي سلمى إلى جانب بعض القصائد الأخرى والمقطعات التي لا تقل مكانة عن تلك القصائد الطوال لما تحويه من معان رائعة تدل على المكانة التي أولاها الشهاب شخصية النبي صلوات الله وسلامه عليه على الرغم من تطرقه أحيانا كاستغاثته وتوسله بالرسول الكريم مما يتنافى مع التوحيد الخالص من كل مخلوق كائنا من كان اتباعا وانقيادا لأوامر الله وسنة رسوله .

وظهر لنا أن مدح السلاطين والولاة لم يظفر بنصيب وافر نظرا لظروف الشهاب وانتقاداته الجريئة للدولة وولاتها مما جعله يعرض إلى حد ما عن مدح اولئك ، وأن ما وجد من مدح سجل في حينه رجعناه إلى أسباب بينتها فيما سبق •

وأما مدح الأقران من العلماء فقد أظهر فيه الشهاب براعة لا تنكر ، وأن عبارات المديح تلك لا تتعدى ما هو موجود عند كثير من معاصريه ، من وصف العالم بغزارة العلم واتساع أفقه فيه ونحو ذلك .

كما أظهر الشهاب مقدرته الشعرية في أغراض أخرى كالوصف الذى يدل على أنه كان يحسن الوصف الحسي جيدا فقد شغف بمظاهر الطبيعة وما فيها من جمال فسطر ذلك تسطيرا رائعا ،كما كان له دور فعّال

في الغزل إلا أنه كان يشط أحيانا فيتعدى إلى وصف الغلمان مما يعد إخلالا بمكانته الدينية ، ثم أننا لا نجده في تغزله يصف لواعج الحب وأثرها على النفس بل كان تغزله حسيا إلى درجة كبيرة ، أما الفخر فقد فخر وحق له أن يفخر بعلمه ومكانته بعدما واجه ماواجه من هضم لحقوقه ومكانته ،فما كان منه إلا أن جرقلمه يدافع عن ذلك وإظهار الحقيقة لمجتمعه وصحبه ،وما كان منه وهو في غمرة الدفاع إلا أن يتعرض لأولئك الذين كدّروا صفو عيشه بشيء من الهجاء ،وعاتب بعض محبيه ربّما لعدم وقوفهم بجانبه في تلك المحنة القاسية التي تعرض لها ، وشكا أيضا حاله وسوء أوضاع عصره ، ليبين للناس أنه إنما كان مصلحا لتلك المفاسد المنتشرة .

وتعرّف وهو يخوض غمار الحياة على عدد من الأدباء والعلماء وتبادل معهم المطارحات الشعرية والتي أظهر فيها جودة وبراعة ،ونافس وبزّ كثيرا من مطارحيه ،وجال في أقطار كثيرة عاش فيها بعيدا عن بلده وأهله وصحبه فحن واشتاق للقيا أهله ،فعبر عن ذلك بأبيات سطرت هنالك ولكنه لم يكن بذلك المستوى المعهود مثلا عند بعض شعراء الفتوح الاسلامية في الصدر الأول ،وفقد في حياته بعض أهله وأصدقائه فرثاهم ،ولكنه ما كان في مستوى مدحه النبوى ،أو مدح مشائخه ،إذ هو يعبر عن عاطفة خاملة أو بالأحرى ليست متأثرة ذلك التأثر الحاد الذى كان من المفروض أن يكون .

وعاش الشهاب حياة طويلة تبحر في كثير من العلوم واطلع على موء لغات عديدة فكان من نتيجة ذلك أن صدر منه ،بعض الحكم ونظم في بعض العلوم وقرظ كتبا اطلع عليها ،ولكنها جميعا لم تكن الا مجاراة للتراث

الشعرى الذى اطلع عليه فيما أرى .

ثم أن الشهاب نصح ووعظ نفسه أو بعض معاصريه وزهد في الدنيا ودعا إلى عدم الإكثار والسعى وراء بريقها ومتاعها الزائل ، وأجاد في ذلك إلى حد ما ولكنه لم يكن مكثرا في هذا الغرض ، وبذلك يتبين لنا مكانة الشهاب وأنه أظهر براعة في بعض الأغراض وتوسط حينا ، ولم يبدع أحيانا .

الفصل الثالث

- خصائص شعره .

الفصل الثالـــث

((خصـائص شـعـره))

الخيـــال

إن الخيال عند أى شاعر يمكن أن ينقسم قسمين : خيـــال تقليدى ، وخيال ابتكارى .

" فالتقليدى هو الذى يستحضر فيه الأديب صورة صورهـــا أديب غيره ... ثم يستعير تلك الصورة "(١).

وأما الابتكاري فهو " الذى يشعر الأديب بأن له غرضا مقصـودا يعمل على تحقيقه "(٢).

والشهاب الخفاجي ذو اطلاع واسع على التراث الثقافي لأمتـه بنوعيه الديني والأدبي ولا شك أن ذلك سيورث في ذهنه أخيلة من ذلك التراث ، وله الأثر الفعال في إذكاء روحه الشعرية ، وسيمده بصور تقليدية تناولها السابقون ، وهذا هو ما يمكن أن نسميه بالنوع الأول من الخيال ، أى التقليدي الموروث ، وأمثلة هذا النوع في شعره أكثر من أن تحصى من ذلك الوقوف على الاطلال ، ومساءلتها واستعادة ما مضى من أيام الشباب في تلك الديار البائدة واستيقاف الركب عندها ونحـو ذلك من الصور التقليدية التي جرى عليها الشعراء الأقدمون كقوله :

وَقَفْتُ على أَطْلالِ عَزَّةَ سائلا ... أُكَفكِفُ دَمْعاً كان في الخدِّ سائلا

وناديتُها يا جارَتا أَيْنَ عَهْدُنا ... أَواصِلَةٌ والبَيْنُ زَمَّ الزواملا (٣)

---

(١) و (٢) محمد ابراهيم نصر ، ابن سناء الملك حياته وشعره ، طبعة دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٨هـ جـ١ ص ١٣٠ .

(٣) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٨٣ .

وكقوله من أخرى :

أَقَامَ غَرَامي واسْتَراحَتْ عَواذِلُه ... وأَلْقى العصا لَمَّا تَقَضَّتْ مراحِلُه

وكَمْ قُمْتُ في رَسْمِ المَنَازِلِ سائلاً ... لها طَلَلاً مثلي جفاهُ مَزايلُه (١)

وكقوله :

خليليّ سَلْ رَبْعاً بِرَامةَ أَمْرعا ... أَضَيَّعَ عَهْدي في لياليه أَمْ رعا

فثَمَّ فؤادٌ خانَني يَوْمَ بَيْنِهم ... وثَمَّ بِسِرٍّ كانَ في الصَّدْرِ مُودعا (٢)

ونحو ذلك كثير جدا في شعره ، وعلى كل حال ، ففيها نوع من الخيال ، وما ذلك إلا نتيجة لثقافته الشعرية الموروثة .

أما النوع الثاني - أي الخيال الابتكاري - فكثير لدى الشهاب ، وقد أتى فيه بامثلة تدل على البراعة والقدرة على رسم صورة خيالية جميلة ، فها هو يقول في قصيدته الدالية :

قَدَحَتْ رعودُ البَرقِ زَنَدا ... أَضْرَمَ مِنْ أَشْجاناً ووجْدا

في فَحْمةِ الظلماءِ إِذْ ... مَدَّتْ على الخضراءِ بُرْدا

حتَّى تَشَاءَبَ نُورُه ... وتَمَطَّتِ الأَغْصانُ قَدَّا (٣)

.... الخ تلك القصيدة ، التي من الحق أن خياله فيها ابتكاري جميل ، فقد استطاع ببراعة الشاعر وبما أوتيه من خيال ، أن يصف لنا تلك الليلة التي تراكم السحاب بعضه فوق بعض ، واشتد ظلامها ، ففي تلك اللحظات

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣٦ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٨٦ .

(٣) خلاصة الأثر جـ١ ص ٣٣٧ .

سمع صوت زمجرة الرعد ، ثم يأتي البرق بلمعانه الخاطف ، كل ذلك حرك في نفسه أشجان الحب والغرام ، وكان بمثابة زند قادح أعاد له تلك الذكريات ، وبذلك امتزج الشاعر بالطبيعة فرسم تلك اللوحة الجميلة .

وكقوله من أخرى :

لَمْ أَنْسَ سَفْحاً واعِظاً بِطُلولِهِ ... يَحْكِيْ خُصُورَ الغِيدِ فَرْطُ نُحوْلِهِ

عَرَّسْتُ فيهِ وعِيسُنا قَدْ قُيِّدَتْ ... بِكلا لِيهِا لمَّا دَعَا لِنزولِهِ

إلى أن يقول وهو الهدف المقصود :

والرَّكْبُ أَسْكَرَهمْ بكأساتِ السُّرى ... عَزْمٌ لَقَدْ مَزَجَ المُنى بشمولِهِ

ونسيمُه قَدْ هبَّ عِنْدَ رقادِهِ ... مُتَكَسِّراً مُتَعثِّراً بذيولِهِ

ومَشَى على حَدَقِ الزهورِ فمادَرَتْ ... من لُطْفِهِ بِدَبيْبِهِ ووصُولِهِ

أَطْفالُها بِقِمَاطِ أَكْمامٍ لَها ... نامَتْ لِهزِّ مُهودِهَا بقَبولِهِ

لَمْ تَنْتَبِهْ أَجْفَانُها من نَوْمِها ... لَوْ لَمْ يُهَيْنِمْ طَيْرُهُ بفضولِهِ (١)

فمهما طال الزمان فلن ينسى ذلك السفح ومافيه من آثار ، وصفره ونحافته التي ذكّرته بخصور الغيد النحيلات . وهذا التشبيه المقلوب هو مكمن الروعة والجمال في البيت الأول .

وحط رحله بجواره ، لأن ما فيه من أطلال أجبرته على النزول ، وهنا تبدو قدرة الشهاب على التصوير وانطاق الجمادات .

والركب أسكرهم بكأسات من نهره الفياض ، ونسيم ذلك الجدول الرقراق هب متكسرا متعثرا بذيوله ، ثم انساب على حدق الزهور ، ولم تشعر بدبيبه

---

(١) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ٦٦ .

ووصوله ، ثم شبهه ثمر ذلك الزهر وما عليه من غشاء ،والريح تذهب بها شمالا وجنوبا بأطفال لفقوا بقماش ووضعوا في سرر وهزوا يمنة و يسرة . ونامت تلك الزهور مثلما نام اولئك الولدان ،ولولا رفرفت الطيور كناية عن انبلاج الصباح لغطّت في نوم عميق .

ومن الأمثلة الدالة على اتساع خيال الشهاب ،وقدرته على جمع صور شعرية جميلة قوله في الغزل :

رَهَنْتُ فؤادي على حبِّهِ ... فما باله لرهْني مُضيِّع

تَجَرَّد مِنْ لَحْظِهِ صارِمٌ ... لقَدْر اصْطِباري طَيِّهِ قطوع

ولَوْلَمْ يَكُنْ قاتِلاً لِلْكَرى ... لما سالَ من مُقْلَتيَّ النَّجيع (١)

فإن ذلك المحبوب أعطاه فؤاده رهانا وتدليلا على أنه سيفي بوعده ،وأنّى له عدم الوفاء ؟ وفؤاده مرهون لديه ،ولكن ذلك المحبوب غير مبال بذلك الشيء المرهون ،وكأنه ليس كافٍ لإيضاح تلك العلاقة ، فما كان منه بعد أن ظفر بغريمه حتى جرَّدَ من ألحاظه سهاما صارمة أصابت المقتل ،فلم يعد يستطيع حراكا ذلك المصاب ولا اصطبارا ،لأن ذلك تمامله وسجيته .

فروعة الشهاب تبدو في جعله الكرى شخصاً ،أو له صورة شخص ، فإذا ما قُتل سال دمه من المقلتين ،لأنهما موضع الكرى كما هما موضع الدمع .

ثم قال واصفا جمال محبوبه ليعذره من رأى حاله ،فالطبيعة وما فيها من مظاهر جمالية أُعجبت به ، :

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣٥ .

لهُ بسطَ الرّوضُ ديباجَـــهُ ... ومدَّ عليهِ الخيامُ الفــروع
وقدْ ردَّدَ الطَّيرُ آياتـــهُ ... وللقضْبِ في جانبيهِ رُكــوع
كأنَّ الشَّقيقَ خِلال الضَّبابِ ... نُجـومٌ تُبقَّى عليها هَزيــع
ومُجْمرُ تبْرٍ عَلاهُ الدخـانُ ... وَقدْ أُصْبحَ النَّدُّ فيهِ يضـوع (١)

وكان الوصف رائعا حقا فذلك التشبيه في قوله كأنَّ الشقيق : في حد ذاته دال على براعة الشاعر وقدرته على التصوير والابتكار ،فالشقائق بجمالها ولمعانها وقد غطَّى عليها الضباب صارت تتلألأ كالنجوم في جوف الظلام ،ولكنه لم يكن ليستر نورها وجمالها الوضاء ،وولَّد منـه صورة أخرى ،وذلك من رائحته الزكية فشبهها والضباب مخيم عليهـا بمجمر تبر وضع بداخله ند فعلا الدخان بكل مكان وانتشرت رائحـة الند وذهبت مع الدخان أنى ذهب .

فالأمثلة السابقة كافية للدلالة على حسن وجودة الخيال عند الشهاب ولكن هذا لا يعني أنه في كل أعماله الشعرية بذلك المستوى ،
لأننا وجدنا بعض قصائده تفتقر إلى الخيال . من ذلـك قوله في حدث الهجرة النبوية ،وما سبقه من ائتمار رءوس قريش بالرسول صلى الله عليه وسلم :

صَمّموا رأيَهم على الفَتْكِ فيـهِ ... فتوارَتْ لخوفِـــهِ الآراء
ورأوا نَفْيَهُ لحيٍ سواهـــم ... ولكم أثبتَ المراءُ انتفــاء
ولغيْظٍ على سُراقةَ عضَّـــتْ ... سُوقُ نَهْدٍ من تحْتِهِ الدَّهْناء

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣٥ .

وعلى أمِّ مَعْبدٍ نَالَ حتَّى بِمُلاها تَحدَّث الأحياءُ
وبيمْنٍ له الشاةُ دَرَّت وهي للّهِ دَرُّها عُجْفاءُ (١)

فمعلوم أن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كانت على مر العصور الاسلامية مصدر إلهام شعرى لكثير من الشعراء، والشهاب واحد منهم، ولكن هل وفق في تصوير ذلك الحدث العظيم ؟ إن الناظر لتلك الأبيات سيخرج بالنتيجة التالية : إن خيال الشهاب لم يكن يسعفه لتصوير ذلك تصويرا ابتكاريا، أو بالأحرى تصويرا تقليديا فيه نوع من الخيال، فهو لم يخرج عن نطاق كثير من الشعراء السابقين، في تسجيل الحدث تسجيلا هو أقرب إلى النثرية، وأبعد عن الخيال، وهو أقرب في عمله هذا من عمل المؤرخ السارد للأحداث، لا الشاعر صاحب الخيال المحلق الواسع، ولغته فيما أرى لغة علمية ذات مدلول واضح محدد، وليست لغةشعرية ذات إيحاءات وأخيلة .

وبذلك يتضح أن الشهاب كان تارة يأتي بصور جميلة تدل على أنه ذو مستوى شعرى جيد، وتارة يخفق في ذلك، مثله مثل كثير من الشعراء العظام.

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٥ .

لغة الشاعر

لقد درج كثير من الباحثين على القول بأن السبب في ضعف شعر القرون المتأخرة ،بما فيها عصر الشهاب الخفاجي هو ضعف اللغة ، بمعنى أن هؤلاء المتأخرين لم يكونوا ذوي مقدرة لغوية تمكنهم من صياغة الشعر الجيد ،ويضع بعضهم هذه المشكلة في مقدمة الأسباب التي أدت إلى ضعف شعر هذه الفترة (١) ، ولكن هذا القول وإن كان صحيحا إلا أنه حكم عام على شعراء العصر كله ،وهذا فيه من التجني على النخبة الممتازة من شعراء هذه الفترة ما فيه .

ونحن إذا ما تتبعنا شعر شعراء هذا العصر خرجنا بنتيجة مفادها ،أن ليس بامكان أي باحث أن ينصف هذا العصر لأن هنالك تفاوتاً بين كثير من شعراء هذه الفترة ، فلا بد إذاً من تناول كل شاعر على حدة ومن ثم الحكم عليه .

ونحن إذا نظرنا إلى شاعرنا على ضوء ما سبق لنا أن عرفناه من نماذج كثيرة من شعره التي شملت أغراضا كثيرة من مدح وهجاء وغزل ووصف . . . الخ لخرجنا بنتيجة مفادها ،أن الصفة الغالبة على ألفاظ شعره ومعانيه هي الوضوح ، والبعد عن التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوى ، فلقد هجر الألفاظ الغريبة فيما نرى في معظم شعره ،ومال في الغالب إلى التعبير عن معانيه بأقرب الألفاظ وأسهلها ، وليس من شك في تمكن الشهاب من ناصية اللغة باعتباره أحد علماء عصره ،وله باع طويل لا ينكر في هذا المجال من خلال كتابيه «شرح درة الغواص ،وشفاء الغليل»

---

(١) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص٣١٢ .

وبشهادة أكبر عالم لغة معاصر له الذى هو تلميذه عبد القادر البغدادى الذى قال في حقه كما مربنا "جميع ما حفظته قطرة من غدير الشهاب".(١)

لذلك كله أتت لغته سليمة بعيدة عن الركاكة ،والأخطاء اللغوية والنحوية التي كانت شائعة فيما قبل عصر الشهاب ،وعند بعض معاصريه . ومن الإنصاف له أن نقول : إنَّ من حقه أن يفخر بطول باعه ومقدرته اللغوية لأننا لم نجد في قصائده على الرغم من طول بعضها لفظا مستهجنا ، ولعل تمكنه من اللغة ،وطول باعه في معرفة الأساليب العربية المتينة القديمة واستظهاره لها ،من العوامل الحتمية التي أدت إلى متانة لغته الشعرية وظهورها بذلك المستوى الجزل الرفيع .

ومن الحق أن أقول : إنَّ هذا لا يعنى أن شعره كله في مستوى واحد من الإمتياز ، فإنَّ هنالك بعض الهنات ، ولعل أهم ما لاحظته أثناء قرآتي لديوانه أن هنالك بعض الألفاظ النابية أو بالأحرى بعض الألفاظ القبيحة من وجهة النظرة الأخلاقية ،والتي هي أقرب إلى اللغة السوقية منها إلى لغة العلماء الأجلاء ، مما يمجها الطبع السليم الذى ينأى عن التحدث والتلفظ بالألفاظ الدنيئة فضلا عن أن ينظم فيها شعرا ، بخاصة مثل شاعرنا صاحب المكانة الدينية الرفيعة ، ورغبتي عدم ذكر تلك الألفاظ فسأحيل إلى بعض صفحات وجودها لئلا أتهم بالتجني على هذا الشاعر.(٢)

---

(١) خلاصة الأثر جـ٢ ص ٤٥٢.

(٢) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ١٣١ ،١٣٢ .

ثم أن هنالك ملاحظة جديرة بالتأمل ألا وهي غرام الشهاب بتكرار كثير من الألفاظ وبخاصة في الوصف مثل الشقيق ، الربيع ، الريحان ، الند ، تبر ، مجمر ونحوذلك من الألفاظ الدالة على الجمال ، والرائحة العطرة ، كقوله :

وكُنْتُ إذا هَبَّ النَّسيمُ بنَفْحةٍ ... مِنَ المِسْكِ والريْحانِ والعودِ والنَّدِّ (١)

وقوله :

كأنَّ الشَّقيقَ خِلالَ الضَّبابِ ... نجومٌ تَبقَّى عليْها هَزِيعْ

ومُجْمرُ تِبْرٍ علاهُ الدُّخانُ ... وقَدْ أَصْبحَ النَّدُّ فيه يَضوعْ (٢)

وكقوله :

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ صَحِبْتُهُ ... والرِّيحُ تَعْبَثُ بالأزاهِرْ

لبِسَ الضبابُ على الشَّقيقِ م ... بل الدُّخانُ علَى المَجامِرْ (٣)

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة المتناثرة في ثنايا ديوانه ، والتي لا تكاد تخلو قصيدة في الوصف منها .

---

(١) المصدر السابق ورقة ٧٥ .

(٢) نفس المصدر ورقة ٣٥ .

(٣) نفس المصدر ورقة ٥٨ .

بناء القصيدة عند الشهاب الخفاجي

إن الشيء الذى استرعى انتباهي في بناء القصيدة عند الشهاب أنه تارة يضع مقدمة لقصائده وخاصة في بعض قصائده الطوال حيث يجرى مجرى الشعراء الجاهليين والإسلاميين في البدء بالتشبيب وذكر الديار والأطلال ونحو ذلك ،وهذا أمر طبيعي ما دام ملما بالشعر القديم ،ولكنه في بعض قصائد أخرى لا ينهج ذلك المنهج بل يبدأ بالحديث عن غرضه دونما مقدمات ،على أن مقدماته الطللية أو الغزلية ، تتفاوت في طولها وقصرها ، فأحيانا تصل إلى ربع القصيدة أو خمسها وفي أحيان أخرى لا تزيد عن أبيات معدودة ينتقل بعدها إلى غرضه دونما إطالة ،ثم أن تلك المقدمات تختلف ،فتارة تكون طللية وأحيانا غزلية وأحيانا خمرية ،ويتضح ذلك من خلال هذه الأمثلة : قوله :

يا سَائقَ الأظْعانِ أيْنَ تريـْدُ ... تَنَكَّبْ فمن خلْفِ الرِّكاب ذوود

وعُجْ بي على أرْضٍ لعيْني تُرابُها ... إذا رَمَدَتْ كحْلُ شِفاءٍ وبُرُودْ (١)

وَمَنْ كانَ مُعْتاداً ولوجَ بِحارِهـا ... فما لحياضِ الموتِ مَنْـه ورود

فلا تَخْشَ مَكْروهاً يدومُ فإنَّـه ... يَمُرُّ فما للنَّائباتِ خُلـودُ

تَرَفَّقْ بِعِيْسِ الحِرْصِ فيْ مَهْمَهِ العَنا ... فما هِيَ إلاَّ أعْظُمٌ وجلـودُ

ولا تَرْغَبَنْ فيما يَسرُّ فإنـهـا ... حظوظ يُقضِّيها الفتى وجُـدود (٢)

ومن الملاحظ أنه في هذه القصيدة بعد هذه المقدمة يسدى بعض النصائح كقوله :

على المرءِ أنْ يَسْعى ويركب عربـه ... ليبْلغه ما يَبْتَغيْ ويَريـدُ

---

(١) هكذا في الأصل .

(٢) ديوان الشهاب الخفاجي نسخة الأزهر ورقة ٩٧ .

. . . .

فلا تقلقن من ريب دهر به دعا   فرب نحوس خلفهن سعود (١)

ثم يعود إلى الأطلال ليخلص منها إلى غرضه المقصود إذ يقول :

سقى الله نصراً ذوب قبر صنؤدل   وحيّ حمىً فيه الظباء أسود

يمد عليه سندس النبت شقه   ويبسط للوفد الكرام بسرود (٢)

وبذلك يتضح أن الشهاب بدأ بوصف الظعينة والطلل، ثم انتقل الى اسداء النصيحة لمخاطبه، ثم انتقل إلى اسداء الثناء على ساكني تلك الديار ، وبدأ بأمواتهم قبل أحيائهم.

ففي هذه القصيدة لم يكن يلتزم وتيرة واحدة بل نهج نهج الشعراء القدامى، في عدم الالتزام بالوحدة الموضوعية، في داخل القصيدة الواحدة .

ومن قصائده التي بدأها بالتشبيب وانتقل فيها من موضوع الى موضوع قوله في مقصورته التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم:

أيا شقيق الروض حيّاه الحيا   فاحمرّ خدّ ورده من الحيا

لأنت يترب الغصن نشوانٌ إذا   أدارت المزن له خمر الندى

ومنها :

قد أسر القلب بجيش حسنه   وانتهب الألباب لمّا أن رنا

بصارم بالسحر يسقي غربه   سحرٌ به أوهى العقول والرقا (٣)

---

(١)و (٢) المصدر السابق ورقة ٩٧ .

(٣) نفس المصدر ورقة ١ - ٨ .

ثم يصف المهمة والهجرة، الى أن يصل إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

عَلى أَغَرَّ أَدْهم قَدْ طلعت ... مِنْ وجْهِهِ فِيْ ظُلْمَةِ اللَّيلِ ذُكا
غُرَّته من تحتِ هُدْبِ شَعْرِه ... طُرَّةُ صُبْحٍ تَحْتَ أَذْيالِ الدُّجى (١)

والمهم في الأمر كله أن الخفاجي يتدرج في قصائده إلى أن يصل إلى غرضه الأصلي. ومثال ما بدأ بالخمر فيه، شأنه في ذلك شأن الشعراء الأقدمين قوله :

كَمْ يُناجِيْ أَقْداحَنا الإِبريقُ ... بِوِصالِ السَّاقي ولا يَسْتَفيقُ
قَمْ فَهذي مُنى التَّنَعُّم واللَّهـو ... وأيامُنا بها تَشْرِيقُ
والنَّدامى عميٌ وصمٌّ بسكرٍ ... ورقيبي لم يَدْرِ أَيْنَ الطَّرِيقُ (٢)

ولعله في ذكر الأطلال والتشبيب، في مقدمة بعض قصائده متبع للجاهليين والاسلاميين ، ثم في المقدمات بذكر الخمر يحذو حذو أبي نواس وغيره من شعراء العصر العباسي ، فكل هذا التراث كان متاحا مبسوطا أمام الخفاجي يأخذ منه ما يريد.

ولا ننسى أن الخفاجي يريد أن يعرض ثقافته وعلمه بالشعر قديمه وحديثه ، على المطلعين على شعره ، واظهار المقدرة على مجارات الشعراء السابقين ، مما يكون له عظيم الأثر في الأوساط الأدبية فتتقبله بكل ارتياح ، لذلك قام بتنويع مقدمات قصائده ليخلص منها الى غرضه

---

(١) المصدر السابق ورقة ١-٨ .
(٢) نفس المصدر ورقة ٧٢ .

الذى من أجله نظم القصيدة، وذلك العمل ليس في كل قصائده، بل في بعضها إذ من الملاحظ أن كثيراً من قصائده الطوال يأتي إلى غرضه فيها بدون تلك المقدمات، وذلك في أغراض متنوعة كقوله من قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يا لَيْتَني ثانٍ لحادٍ حَدَاك ... أو رابع الكَهْفِ بكَهْفِ حَوَاك
ولَيْتَ نوا الطَّرف في رَوْضةٍ ... أنْتَ بها رَغْماً لنوِّ السِّماك
أسقي به مثواك يا مُنيتي ... هل تُسْكبُ العَبراتُ إلا هناك
يابْنَ الذَّبيحين وقد فُدِّيا ... ليْتَ جميعَ الخَلْقِ كانوا فِداك
فما اسْتَحقّ العَنْبرُ الرَّطبُ أن ... يُحْرَقَ إلا حين حاكى ثَراك (١)

وكقوله من أخرى وهي في الدعاء :

مَدافعُ بالنّجومِ وبالصَّواعق ... بروحٍ أُرْسِلَتْ منها شَواهق
مُصيْباتٌ تَخِرُّطى الأعادي ... تُزَمْجِرُ بالرعودِ وبالْبوارِق
ودارتْ دائِراتٌ قَدْ أحاطَتْ ... من الأفلاكِ ما عنْهنَّ عائق
ومن كلِّ الجَوانبِ رامِيَاتٌ ... قِسِيٌّ قَرْطَسَتْ هَدَفَ الخلائِق (٢)

وكقوله من قصيدة في الشكوى :

إنَّ الزمانَ مُقامِرٌ لَعِبَا ... ما فَازَ فيهِ غَيرُ مَنْ غَلَبا
والنَّاسُ سَقْيٌ لا مَفَرَّ لهم ... إلا بأرضٍ تنْبتُ النَّصَبا

---

(١) المصدر السابق ورقة ٢٣ .
(٢) نفس المصدر ورقة ١٠١ .

وَالدَّهرُ ذو وَجْهٍ بَدَا وَقِحاً ... ماءُ البشاشةِ عَنْهُ قَدْ نَضَبَا

كَمْ قُمْتُ فيه نادِباً حَزَنِي ... ماذا يُفيدُ مُقالُ واحربا (١)

وبذلك يتضح أن الشهاب يبدأ بعض قصائده بالنسيب، وبعضها الآخر يبدأ في موضوعه مباشرة، فهذا يدل على أن ليس لغرض أو موضوع القصيدة أثر في هذا، فربما نجد قصيدة في المدح بدأها بالنسيب، وأخرى يدخل في الموضوع مباشرة دونما مقدمات .

---

(١) المصدر السابق ورقة ٦٧ .

إختيار القافيـــــة

ما دمنا بصدد الحديث عن الخصائص العامة لشعر الشهاب ، فسنقف عند ظاهرة مهمة في شعره ألا وهي القافية .

فالناظم يتمتع بحريةفي اختيار القافية ، إلا أنه قد تطرأ بعـــــض الظروف تفرض على الشاعر أن يختار قافية معينة ،ويؤثرها على غيرهالحاجة في نفسه ، ومن خلال مطالعاتنا لشعر الشهاب نستطيع أن نرجع أسباب اختياره إلى مايلي :

على رأس هذه الأسباب سبب يفرض نفسه على الشاعر ، وهو جعل اسم الممدوح أو المهجو أو مذهبه أو قبيلته قافية من قوافي قصيدتـــــه ،وهذه الرغبة قد تلزمه أن يجعل جميع قوافي القصيدة على هذاالروي ، فتأتي القصيدة منسجمة مع اسم الممدوح أو كنيته و نحوذلك ، وهذا الصنيع صنعه شاعرنا في كثير من منظوماته بشكل عام و في بعض مقطعاته بشكـل أخص .

فمثال ما كان اسم الممدوح سببا في اختيار القافية ،قوله في مدح خضر ابن عطا الله الموصلي (*) :

وَصَباً مِنْ كئوسِ ذِكْرِكَ سَكْـرى　　　　لَكَ حُمِّلْتُها ثناءً و شُكْـــــرا

(*) هو خضر بن عطاء الله الموصلي كان إماما في العربية واللغة والأشعار ، هاجر إلى مكة وأجلاه عنها الشريف حسن بن أبي نمي ، فمات قبل وصوله الى المدينة سنة سبع بعد الألف ، له كتاب " الإسعاف بشرح أبيات القاضي والكشاف " ،ريحانة الألبا جـ١ ص ٢١٥ ، خلاصة الاثر جـ٢ ص ١٣٠

ولوَجْدي رقّتْ كطبعِكَ لُطْفا   واسْتعارتْ من طِيبِ ذِكْرِك نَشْرا
مَعَكَ القلبُ حَيْثُما سِرْتَ يَسْري   فاسأَلْنَهُ عَني فذلك أَدْرى
مِنْ أُولي العَزمِ لَيْ فؤادٌ كَليمٌ   في النَّوى لا يَزالُ يَتْبعُ خِضْرا (١)

ففي البيت الأخير إشارة الى موسى عليه السلام وقصته مع العبد الصالح - الخضر - كما أن اسم الممدوح هو "خضر" فآثر أن يجعل قافيته على "الراء" ليتسنى له إدخال اسم ممدوحه في داخل القصيدة وجعله جزءا من قوافي قصيدته .

ومثال ما كانت قبيلة الممدوح مضمَّنة في القصيدة ،وسببا في جعل القافية على رويٍ مناسب لآخر حرف في اسم القبيلة ،ذلك ما كتبه الشهاب مادحاً عبد القادر الطوري (*) :

أَياصَدِيقاً عَرْفُه نَدِّي   وكفُّه من النَّدى نَدِيٌّ
لَمْ يَحْلُ مِنْ بَعْدِكَ لي نَدِيٌّ   وبلدةٍ لَيْس بها طُورِيٌّ (٢)

ومثال ما كان دين أومذهب الرجل سببا في جعل القافية على الرويِ المناسب لمذهب الرجل قوله :

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص٢١٧ .

(*) هو عبد القادر بن عثمان الظاهري الحنفي الشهير بالطوري ، أحد علماء وأدباء زمانه وله المكانة العظمى بينهم ،لزم الافتاء والتدريس بالجامع الأزهر له مؤلفات منها شرح الكنز في الفقه ، تكلمة البحر الرائق ،وكتاب في نظمه ونثره أسماه " الفواكه الطورية " ، كان حياً في سنة ست وعشرين وألف . ريحانة الألبا جـ٢ ، ص ١٥٥ ، خلاصة الأثر ص ٤٤٢ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص١٥٨ .

أيُمرِضُني الدَّهرُ الخئونُ بما دَهَى   ويُخْلِفُ في وقتِ المَضيقِ وُعودي

فإنْ رُمتُ مَنْ يَشْفي الفؤادَ بطِبِّهِ   فيوْمِيَ سَبْتٌ والطَّبيبُ يهودِي (١)

فهو يريد أن يشير إلى مدى غش اليهود ، فضمن بيته كلمة يهودي ، وجعلها رويا للبيت الثاني ، ونحو ذلك كثير في قصائده ومقطعاته .

أما السبب الثاني الذى قد يفرض نفسه على الشاعر عندما يريد أن ينظم قصيدة أو مقطوعة ، ويضطر إلى اصطناع قافية بعينها ، ذلك هو سبب المعارضة ، فمعلوم أن الشاعر تقتضيه شروط المعارضة أن يتخذ بحر القصيدة المعارضة وقافيتها رسوما يهتدى بها ، ولا مفر له من اصطناع قافية القصيدة التي يريد أن يعارضها ، ونحن نعلم من دراستنا لشعر الشهاب الخفاجي أنه كثير المعارضة ، لذا كان لزاما أن تكون قوافي قصائده تشبه في قوافيها قصائد الشعراء الذين عارضهم ، وهذه الظاهرة واضحة لا مرية فيها ، فالشهاب عارض زهير بن أبي سلمى في ميميته - المعلقة - وابن دريد في مقصورته ، وعارض مطرود بن كعب (*) في تائيته ، وامرأ القيس في معلقته ، وغيرهم من الشعراء .

وإلى جانب ذلك فشعر المطارحات من هذا النوع وبخاصة إذا كان الشهاب هو الذى يرد على قصيدة مطارحة ، ويكفي هنا أن أذكر قصيدته التي عارض بها مطرود بن كعب والتي منها :

----

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ١٢٦ .

(*) هو مطرود بن كعب الخزاعي شاعر جاهلي فحل لجأ إلى عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف لجناية كانت منه ، فحماه وأحسن إليه فأكثر من مدحه ومدح أهله ، الأعلام جـ٧ ص ٢٥١ .

مَنْ لي بخِلٍ وفيٍّ في المُلمّاتِ ... حرٍّ مَكارِمُه أطواقُ لبّـــاتِ
إذا دَعوناهُ للجُلّى فَدَعوتُـه ... ميعادُ نُجْحٍ وميقاتُ المَسرّات
ما زِلتُ أندبُهُ والوُرقُ تُسعدُني ... إذْ جرّ من خلْفِه ذيْل المُصيبات
فالجودُ يَبْكي لدى أحْبابِه سَحَراً ... سَمْحُ السّجيةِ بَسّامُ العَشيّـــات
أقامَ حَوْلَ ثراهُ الباكياتُ لَـهُ ... وقُمْنَ إذْ ثَكِلته كالبليـــــات

ومنها :

باللهِ يا راكباً نحْو الغُوير سَرى ... اقرا على الجودِ ،والدّنيا تحيّاتي
واندبْ معالمَ قدْ غطّت ثرى رَمِمٍ ... مِنَ المعالي وآثارِ المُـــروّات
كانت معاهِدَ قَوْمٍ نازلينَ لدَى ... بحبوحةِ المَجْدِ والشمّ الرّفيعات
فإنْ تَكُنْ زهرةُ الدّنيا ذَوتْ ورَمتْ ... بها الرّياحُ السوافي وسْطَ مَرْمات
فربّ حسناءَ لمْ تعدَمْ على صَلَفٍ ... غوائلَ البَخْتِ أو كَيْدَ المَضَرّات (١)

أما السبب الثالث الذى نظن أنه أملى على الشاعر اختيار القافيـــة فهو تضمين بيت من شعر شاعر معين ،وهذا التضمين إذا كان بيتا أو عجز بيت اضطر الشاعر إلى اتخاذ قافية هذا العجز المضمن قافية لقصيدتـــه ، وأمثلة ذلك كثير في شعر الشهاب ويكفي على ذلك الأمثلة التالية :

قال الشهاب في قصيدة على قافية الميم المضمومة فيها هجاء وشكوى ، على وزن ميمية المتنبي المشهورة في عتاب سيف الدولة والتي مطلعها :

واحَرّ قلْباهُ مِمّنْ قلبُـه شَبِـــمُ ... وَمَنْ بجسْمي وحالي عِنْده سَقَمُ (٢)

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٧٩ .

(٢) أبو البقاء العكبرى ،ديوان ابي الطيب بشرح العكبرى طبعة دار المعرفة بيروت ١٢٩٧هـ جـ٣ ص ٣٦٢ .

فالشهاب عندما أراد أن ينظم قصيدته الآتية ، توخى فيما يظهر لنا أن تكون ضمن قوافي قصيدته بعض أبيات المتنبي من قصيدته المشار إليها ، لذلك كان من البدهي أن تكون قصيدته على هذه القافية والروي ، وأن يضمن بعض أبيات المتنبي قصيدته ، قال الشهاب :

أُيطْلَقُ الطائرُ المأسورُ في قَفَصٍ   " شُهْبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَم "

ومنها :

فَمَا لَنَا مُذْ نأَيْتُمْ والمُنا ارْتَحَلَتْ   " وِجْدانُنا كلَّ شيءٍ بَعْدَكم عدَمُ " (١)

وعدد أبيات هذه القصيدة نحو ثلاثين بيتا ، وقد مر بنا في الفصل السابق جزء منها .

ومن ذلك أيضا قصيدة للشهاب على قافية وروي الياء الممدودة ، على وزن وقافية قصيدة قيس بن الملوح الشهيرة التي مطلعها :

تَذَكَّرتُ لَيْلى والسنينَ الخَواليَا   وأَيامَ لا نَخْشى على اللَّهوِ ناهِيَا

فلقد ضمن قصيدته هذه بيتا كاملا من قصيدة قيس حين قال :

أَيَنْجزُ لي دَهْري وعُودي مَرَميا   فأَرْمي بسَهْم ليس يخطي المراميا

فقلْبي بأَرْضِ الشآم يَرْعى عِياضَها   وجسْمي بأَرضِ الرّوم أُصبح ثاويا

" وقد يَجْمعُ اللّهُ الشتيتينِ بَعْدَما   يظُنَّانِ كلَّ الظَّنِّ أَلاّ تَلاقيا "

ويكفي هذان المثالان على أن الشهاب كان يختار قافية قصيدته ، ولكي يجعل من القصيدة معرضا لبراعته في تضمين أبيات الآخرين بإحكام في

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٩٧ .

قصيدته ، بدون أن يكون ثمة تنافر في القافية ،ولقد صنع مثل هذا الصنيع في كثير من قصائده كما سيأتي .

ومن الإنصاف أن نقول إنّ في ديوانه قصائد كثيرة جدا لم يكن اختيار القافية فيها يخضع لأي عامل من تلك العوامل السابقة ، وإنما يختارها اختيارا حرا لا أثر للمستقيد فيه .

تأثر الشهاب الخفاجي بالآخرين

" إنَّ فكر الأديب خاضع لتأثيرات مختلفة، يكون الماضي جزءا كبيرا منها، وإنْ تفاوت حجم ذلك الماضي في العمل الأدبي الذي يقدمه فكر الأديب، تفاوتت قوة تأثيره، من هنا نجد أن ثقافة الأديب كثيرا ما سحبت ظلالها على أعماله، قد تكون ظاهرة يلحظها القارئ من أول نظرة، وقد تحتاج إلى وقفة وشيء من التفكير". (١)

وإذا ما ألقى القارئ نظرة متفحصة على شعر الشهاب الخفاجي فإنَّه سيلاحظ تأثره بكثير من الشعراء، بعضهم مشهور مشهود له بأنه من الشعراء الكبار، وبعضهم من الشعراء المغمورين، وتارة يصرح نفسه بالشاعر الذي تأثر به، وتارة يسكت عن ذكره، ولكن ما مدى ذلك التأثر هل هو في كل شعره أو في بعضه؟ وما الفائدة المرجوة من ذلك؟

إنَّ تأثره لم يكن في شعره كله بل في بعضه، حيث أنَّ كثيرا من قصائده الموجودة في ديوانه، وهي من عيون شعره لم يكن متأثرا فيها بشاعر معين بل كان ذلك من ابتكاره كقوله:

قَدْ فَطِنَّا لِمَا تُرِيدُ الليالي ... وعَرَفْنا الكِتابَ بالعُنوان
كيفَ يَغْتَرُّ بالحياةِ لبيبٌ ... ما احتياجُ العَيانِ للبُرْهان
وَضُح الصُّبحُ عن سراجٍ غنيٍّ ... فهو بادٍ لمن لهُ عينان
واللبيب اللبيب من لم يبارزْ ... خالقَ الخَلْقِ منهُ بالعصيان
فإذا ما بَدَتْ له فرطاتٌ ... فليتبْ عاجلاً بغير تَوانِ (٢)

---

(١) الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد وآثاره الأدبية جـ٢ ص ٦٤٧.
(٢) ديوانه نسخة الأزهر ورقة ٧٧.

وكقوله :

وظبيٍ تُرى في حجورِ القلوبِ   لهُ توأمُ الحسْنِ خِدْنٌ رضيع
فلولا نوءادي لهُ مسْكـــنٌ   لما كانَ تحْنو عليهِ الضلـوع
تقنَّعْتُ بالوصْلِ من طيْفِهِ   وكلُّ محبٍ لعمْري قنـوع
ولِيْ حاجةٌ عِنْدهُ للجـوى   وليْسَ لهُ غيرُ ذلّي شفيع
رهنْتُ نوءادي على حبـه   فما بالهُ لرهوني يُضيـع

ومنها :

لهُ بَسَطَ الرَّوضُ ديْباجَـهُ   ومدَّتْ عليهِ الخيامُ الفـروع
وقدْ ردَّدَ الطيرُ آياتَـهُ   ولِلقُضْبِ في جانِبَيه ركـوع
كأنَّ الشّقيقَ وسِتْرُ الضبـابِ   وزهراً تبقى عليها هزيـع
مجامرُ تِبْرٍ علاها الدخَـانُ   وقدْ أصبحَ النَّدُّ فيها يضوع (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تدل على أن الشهاب لم يكن متأثرا فيها بغيره من الشعراء .

أما الفائدة المرجوة من ذلك التأثر " فإن هذا الشاعر يعيد الى الأذهان المناسبة التي قيلت فيها القصيدة الأولى ، ويحاول جاهدا تجديد ذكرها . . . وهذا بدوره يبعث على الأمل والحيوية ، كما يجدد المفردات اللغوية والتعبيرات الأدبية لا سيما عندما يضمن الشاعر . . . . . شيئا من كلمات الشاعر - الآخر - بذلك يشد الحاضر بالماضي ويربط اللغة

---

(١) المصدر السابق ورقة ٣٥ ، وخلاصة الاثر جـ١ ص ٣٣٨ . وهذه رواية المحبي .

بعضها ببعض ... ... وفوق ذلك ... تنشط الحركة الأدبية نشاطا عظيما ".(١)

ولا شك أن الشهاب الخفاجي قد تأثر بشعراء كثر على مر العصور نظرا لتأخر العصر الذى عاش فيه ، فقد عارض -كما مر بنا- زهير بن أبي سلمى في ميمته المشهورة ،وعارض ابن دريد في مقصورته ،وأخذ عن المتنبي كثيرا من الفاظه ومعانيه ،وضمن شعره أبياتا لامرئ القيس ،وطعمه بأبيات لمجنون ليلى ،بل تأثر حتى ببعض معاصريه ،ولا يعد ذلك عيبا وانتقاصا من مكانته الشعرية ، فذا البارودي باعث الشعر العربي عارض وضمن أشعاره كثيرا من شعراء العربية الكبار ،وذا شوقي شاعر العصر الحديث عارض كثيرا من الشعراء ،ولم يعب عليه أحد ذلك .

وسأضرب أمثلة على تأثر الشهاب بالآخرين ليزداد الأمر وضوحا ولو أنه مر كثير من ذلك في ثنايا هذا البحث :

ويمكن أن أقسم تأثره أو أخذه من سابقيه إلى قسمين :

١ - "ما أخذ فيه بيتا أو شطرا ،أو بعض شطر بلفظه ومعناه ".(٢)

٢ - "ما لم يكن كذلك ".(٢)

فمن أمثلة النوع الأول قوله :

فَقَلْبي بأرْضِ الشامِ يُرْعى عِياضَها ... وجِسْمي بأرْضِ الرّومِ أصْبحَ ثاويا

وَقَدْ يَجْمعُ اللّهُ الشتيتين بعْدما ... يظنّانِ كلّ الظَنّ ألاّ تلاقيا

عسى نفحةٌ من لُطفِ ربي تمرُّبي ... فيُمسي عَسْرُهُا لي هاديا (٣)

---

(١) محمد محمود قاسم نوفل : تاريخ المعارضات في الشعر العربي ، طبعة مؤسسة الرسالة الطبعة الاولى ص ٣٢ .

(٢) الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد واثاره الادبية ج٤ ص ٦٥٠ .

(٣) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٩٤ .

فالبيت الثاني كما هو واضح لمجنون ليلى (١) .

وألاحظ انه في نفس هذه القصيدة ضمن بيتا للفرزدق وذلك حين قال :

وسَلَّطَ ربُّ العَرشِ بَعْضَ عبيدِه ... على هَدْوِه للومِ مساويا

وَلَوْ كانَ عبدُ اللهِ مولىً هَجَوْتُه ... ولكنَّ عبدَ اللهِ مولى مواليا

إذا ما دَعَوْني قاضياً ورضيتُ ذا ... فَقَدْ صِرتُ مَنْقوصاً وبالنَّقصِ راضيا (٢)

فالبيت الثاني كما هو معلوم للفرزدق (٣) .

أما مثال أخذه من السابقين شطرا فذلك كثير جدا من ذلك قوله :

وَمَشْرَبُه لَمْ يَخْشَ للومِ غُصَّةً ... بها شَرِقٌ مِنْ سَمْعِ الصَّبِّ ناهله

ووجْدي بهم من شدَّةِ السُّكرِ لم يَقُلْ ... "صحا القلبُ عن سلمى وأَقْصرَباطلُه" (٤)

فالشطر الثاني من البيت الثاني لزهير بن أبي سلمى من قوله :

صَحا القلبُ عن سَلْمى وأقصرَ باطلُه ... وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبا ورواحلُه (٥)

وكقوله :

تَسيرُ رُسْلُ الصَّبا ترتادُها سُحُرا ... في الحيِّ تَعْثُرُ بين البيضِ والأَسَلِ

صَبا على سُقْمِها يُشْفَى السَّقامُ بها ... "وربَّما صَحَّتِ الأَجسامُ بالعِلَلِ" (٦)

---

(١) ابن هشام أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك طبعة جامعة الامام سنة ١٣٩٤هـ تحقيق محي الدين عبد الحميد .

(٢) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٩٥ .

(٣) اوضح المسالك جـ٤ ص ١٤٠ .

(٤) ديوانه نسخة الازهر ورقة ٣٦ .

(٥) شعر زهير صنعة الاعلم ص ٤٥ .

(٦) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٣٨ .

فالشطر الثاني من قول المتنبي :

لعل عَتْبَكَ مَحْمودٌ عواقبُــــه   وربّما صَحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ (١)

وكقوله :

أَقولُ لشيْبي والهمومُ على بالي   " ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَلَلُ البالي "

مَسَحْتُ رَحيْبَ الأرضِ في طَلَبِ العُلا   " وقدْ يُدْرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي "

. . . .

عَبَرْتُ بها دوْراً مُحيلاً رسومُه   " ألحَّ عليه كلُّ أسْحَمَ هطّــالِ (٢)

فالأشطر الثلاثة الأخيرة من قصيدة امرئ القيس :

أَلا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَلَلُ البالي   وَهَلْ يعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخالي

. . . .

ولكِنَّما أَسْعى لمَجْدٍ مؤثَّلٍ   وقد يُدْرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

. . . .

ديارٌ لسلْمى عافياتٌ بذي الخال   ألحَّ عليْها كلُّ أَسْحَمَ هطّــالِ (٣)

ومثال أخذه بعض شطر بلفظه ومعناه قوله :

راقَ عندَى كلُّ وَرْدٍ   وانْجلى غيمُ بُدُورِ

فكأنَّ الشّمسَ لا حَتَّ   لِيَ " في اليومِ المَطيْرِ (٤)

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي " المسمى بالتبيان في شرح الديوان " جـ٣ ص ٨٦ .

(٢) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ٢٨ .

(٣) امرؤ القيس : ديوان امرئ القيس طبعة دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٤٠٤هـ ص ١٢٩ - ١٤٥ .

(٤) ديوان الشهاب الخفاجي نسخة الأزهر ورقة ٨٢ .

وكقوله أيضا من قصيدة أخرى على نفس الوزن والقافية :

أرْحمْ مُعنَّىً ناحـــــــلاً لم يَدْرِ ما طَعْمَ السـرور

وانْظرْ مَدامِعَ مُقْلَـــةٍ أمْسَتْ تَرَحَّمَ عن أمـوري

واكْشفْ مُحياً فاتنـــــاً كالشَّمس " في اليوم المطيـر " (١)

فواضح أن قوله في كلا القصيدتين " في اليوم المطير " مأخوذ من قصيدة المنخَّل اليشكري حين قال :

ولقدْ دخلْتُ على الفتـــا ةِ الخِدْرِ في اليوم المَطيـر (٢)

ومثال ما لم يكن كذلك ـ أي النوع الثاني فكثير أيضا كقوله :

يقولونَ : أوْقاتُ السرورِ قصيْرةٌ وأوقاتُ عمرِ الغَمِّ قد رُزِقَتْ طولا

فمَنْ كانَ بالهمِّ المبرِّح لا بثاً يظُنُّ بأنَّ العُمْرَ صارَ طويـلا (٣)

فقد صرح في الريحانة أن أبا فراس الحمداني قال في هذا المعنى في ارجوزته الطردية :

ما العُمرُ ما طالتْ به الدّهورُ العمْرُ ما تَمَّ بـه السـرور

أيامُ عزِّي ،ونفاذُ أمـــرى هي التي أحْسبُها من عمري

لو شِئْتُ مما قدْ مَللْتُ جـدّا عدَدْتُ أيامَ السرور عـدّا (٤)

---

(١) المصدر السابق ورقة ١٠٠ ٠

(٢) عبدالملك بن قريب الاصمعي ،الأصمعيات طبعة دار المعارف ـ الخامسة ص ٦٠ تحقيق احمد شاكر وعبد السلام هارون ،والشعر والشعراء جـ١ ص ٤٠٤ ٠

(٣) و(٤) ريحانة الالبا جـ٢ ص ٧٦ ،ابو فراس : ديوانه طبعة دار المعرفة بيروت ص ١٥٣ ٠

وقولـه :

لمثالِ نَعْلُ المصْطفى في ناظرِي ... حُسْنٌ يزيدُ مهابةً و جمـــــالا

لوْ يستطيعُ الناسُ من إجلالــه ... لحذوا لهُ حرَّ الخدودِ نعـــالا (١)

أخذه من قول أبي العتاهية :

نَعْلٌ بعثْتُ بها ليلْبَسَهـــا ... قَدَمٌ بها يمْشي إلى المَجْـــدِ

لو كانَ يَصْلحُ أنْ أشْركهـــا ... خدي جعلتُ شِراكَها خـــدي (٢)

و بذلك يتضح تأثر الشهاب الخفاجي بالآخرين وهو يدلنا على ما للرجل من ملكة شعرية و ثقافة أدبية واسعة وثروة لغوية ، جعلته يصل إلى ذلك المستوى الرفيع ، ولا يحسن بنا أن نعد ذلك سرقاً ، فهو لم يدع أن ذلك من بنات أفكاره ، بل نجده يصرح بأنه أخذ ذلك من الشعراء السابقيـــن مما ينفي عنه تهمة السرقة - فيما نظن .

---

(١) ديوان الشهاب نسخة الأزهر ورقة ١٦٠ .

(٢) ابو العتاهية : ديوانه طبعة دار صادر للطباعة والنشر سنة ١٣٨٤هـ ص ١٦٠ . علماً أنني لم أجدها في الديوان المنشور بتحقيق د شكري فيصل

وجوه البلاغة العربية

إن مفهوم الشعر الجيد عند الشهاب الخفاجي لا يختلف عما كان عليه الحال في القرون الاولى ،فالمثل السائر والاستعارة الجميلة والتشبيه الواقع من أهم مستلزمات الفن الشعرى وعده من اللون الجيد .

وإن كنا نستطيع من خلال اطلاعنا على نماذج عدة من شعر شعراء هذا العصر أن نخرج بحقيقة هامة مفادها ،أن الجري وراء المحسنات البديعية أصبح الشغل الشاغل لكثير من شعراء هذا العصر ،وأن النماذج المتوافرة من شعرهم توحي بأن الشعر الجيد هو الشعر الذى حرص صاحبه أن يجمع أكبر قدر ممكن من المحسنات اللفظية والمعنوية كالجناس والطباق ،ولقد كان للشهاب الخفاجي موقف يحمد عليه من هؤلاء الشعراء -كما مر بنا في نقده - من ذلك قوله معلقا على بعض أبيات ليوسف المغربي منها قوله في مليح :

رمضانٌ قَدْ جئتُهُ رَمضانــا   وهوَ بَدْرٌ يفوقُ كلَّ الحسانِ

قُلْتُ صِلْني فَقَالَ وهوَ مُجيبٌ   لا يجوزُ الوِصالُ في رَمضانِ

"واعلم أن هذا كله ليس بشعر ترتضيه الأدباء ،وهو كل شعر أكثر فيه من البديع .... وأحسن هذه الصنعة التجنيس والتورية ،وهما في الشعر كالزعفران قليله مفرح وكثيره قاتل ،ولذا لم نجد في أهل مصر من يعرف الشعر ولا ينظمه ".(١)

ويقول في موطن آخر معلقا على شعر البليني "... الا أنه تجاوز رقة النسيب ،إلى كثرة التجنيس والحوشى الغريب "(٢) وبذلك يتضح

---

(١) ريحانة الألبا جـ٢ ص ٣٤ -٣٥ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ١٢٧ .

وتوجه الخفاجي إلى الطبيعة فأسعفته بتشبيهات وفيرة كالغصن الميال فقد ذكره مرات عديدة حيث استعمله للدلالة على اعتدال ولين قوام محبوبه كقوله :

وغصن قوامٍ كلَّ غُصْنٍ لحُسْنِهِ ... بأَوْراقِهِ من خَجْلةٍ قَدْ تَستَّرا (١)

وقوله :

وغصوناً ما عِنْدهُنَّ انعطافٌ ... أنا راضٍ منكنَّ بالأوراق (٢)

ومن أضرب البيان عنده الاستعارة ،ذكر منها امثلة كثيرة في شعره منها قوله :

يا واصليَّنَ حِبَالاً ... كانَتْ تَشُدُّ المَوَدَّة

لا تَقْطَعُوها بِبُعْدٍ ... قد غَيَّرَ النأْيُ عَهْدَه

فإنْ تقولوا وَصَلْنَا ... من بَعْدِ ذا القطعِ شَدَّه

يَبْقَى وحقِّك فيها ... مِنْ ذلك القَطْعُ عُقْدَه (٣)

ومن استعاراته أيضا :

كَمْ كَريمٍ قَدْ باتَ في دَعَةٍ ... أَتاهُ سَيْلُ الصَّباحِ بالنَّكَدِ

ورُبَّ فَرْخٍ أراشهُ زمَنٌ ... فصار بالعِزِّ بَيْضَةَ الْبَلَدِ

قال المحبي : "وهو استعارة بديعة في بابها".(٤)

---

(١) ريحانة الألبا جا ص ٩٢ .

(٢) ديوانه نسخة الازهر ورقة ٣٤ .

(٣) ريحانة الألبا جا ص ٢٨٣ .

(٤) خلاصة الأثر جا ص ٣٤٠ .

لنا أن الشهاب وقف موقفا حازما من شعراء البديع المفرقين فيه إلى درجة أصبح الشعر معجوجا مستكرها يأباه صاحب الذوق السليم.

والسؤال الآن الذى يرد إلينا ، هل الشهاب في شعره التزم بتلك النظرة ؟

والجواب على ذلك يتضح من خلال إيراد نماذج من شعره ، ومدى توفر الأوجه البلاغية فيها .

ولنختر منها بعض الأوجه ، ونبدأ بالتشبيه باعتباره لب علم البيان : فلقد ورد كثيرا في شعر الشهاب ، ومن الملاحظ أنه تارة يأتي بأداة من أدوات التشبيه كالكاف ، وأخواتها ، ومنه ما أتى بغير أدوات التشبيه .

فمثال الأول قوله :

لولا مِياهُ الحُسنِ جا ... لَتْ فيه لاحْتَرَقَتْ خدودُه
كالصَبِّ لولا دَمْعُهُ ... يَهْمِي لأحْرَقَهُ وَقُودُه (١)

وكقوله :

كأنَّ الشقيقَ وسِتْرُ الضبابِ ... وزَهْرٌ تَبَقَّى عليها هزيع
مَجامِرُ تِبْرٍ علاها الدُّخانُ ... وقد أصبحَ النَّد فيها يَضُوع (٢)

وواضح أن وجه الشبه في الشاهد الثاني يأتي من الصورة المركبة من المشبه والمشبه به . ومثال الثاني قوله :

فإنك شمسٌ لا تَرَ السُّحْبُ عندها ... فلا تُنْكِرَنْ إنْ لم يَلُحْ ثمَّ آفلُه (٣)

---

(١) ديوانه نسخة الازهر ورقة ٢٩ ، والريحانة جـ١ ص ٨٠ .
(٢) نفس المصدر ورقة ٣٥ . وخلاصة الأثر جـ١ ص ٣٢٨ .
(٣) نفس المصدر ورقة ٣٧ ونفحة الريحانة جـ٤ ص ٤٣١ .

حيث استعار كلمة فرخ لولد الزنى بجامع عدم معرفة الأصل في الشكل .

ثم لنأت الآن إلى ظاهرة من الظواهر الهامة في شعره وهي ظاهرة التكرار ويمكن أن نقسمها إلى قسمين :

الأول : تكرار معاني القدماء فقد يعجب الشاعر بمعنى ما من معاني الشعراء السابقين ، ثم يقول على منواله وهذا كثير جدا في شعره غير أنه يشير في كتبه عندما يورد أشعاره إلى موطن أخذه ،وقد ذكرنا هذا النوع بأنواعه عند أخذه وتأثره بالشعراء السابقين فلا حاجة إلى اعادته هنا .

الثاني : تكرار معانيه هو ، فقد ينظم في معنى ما فيعجب به فيكرر ذلك المعنى ، ولكنه قليل لا يقاس بما سبق ، ثم أن هذا النوع في مقطعاته أكثر منه في مطولاته كقوله :

إنّ الصفيَّ الذى قَدْ كُنْتُ أَعْهدُه ... عند المُلمّاتِ ذُخْراً للوداد مُذِقْ

وَقَدْ يَغَصُّ بخير الزّادِ آكلُه ... وقد يكونُ من الماءِ الزُّلالِ شَرَق (١)

وقال أيضا في معناه :

إن كنْتَ تُوجِعُني باللّوم في زَلَلِي ... وظَلْتَ تُبْرِىءُ مني الدَّاءَ بالداءِ

فقد يسوغُ بضَرْبِ الظَّهْرِ غُصّةُ مَنْ ... قد اسْتغاثَ فلم يُنْجِدْه بالماءِ (١)

ومن أضرب البيان لديه الكناية كقوله :

إذا حَمل العَصَا شَيْخٌ فأمْسى ... ولا يَكْفيه رجلان اثْنَتَانِ

فسوف يَزيدُها حتى تراها ... وَقدْ تمّت ثلاثتُها ثمانِ

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص٣٤٩ .

وهذا كناية عن الموت فان تابوته يرفع بأربة رجال .(١)

ثم لنأت الآن للحديث عن المحسنات اللفظية والمعنوية وأثرها في شعر الشهاب ، وهل طبق ما قرره عن الإكثار من علم البديع بأنه ليس شعرا ترتضيه الأدباء ، والحق أن الشهاب خالف فعله قوله الى حدٍّ ما لأننا وجدنا في شعره كثيراً من المحسنات البديعية ، ولكنه لم يكن بتلك الدرجة التي وجدت عند بعض شعراء القرون المتأخرة أو بالأحرى ما بعد العصر العباسي الثاني .

ثم أن هذه المحسنات البديعية في نثرة أظهر منها في شعره ، وسأكتفي للدلالة على وجودها في شعره بذكر بعضها :

فالجناس له نصيب وافر وكذلك حسن التعليل والاكتفاء والطباق والمقابلة ونحو ذلك من المحسنات التي يلاحظها القارئ في شعره انظره مثلا عندما قال :

كَمْ قَدْ سَعَيْتُ للمعالي جاهداً   فَزادَ في سَعْيي إليها لَغَبي

ولسْتُ في فهْمي غَبِيّاً أبداً   وإنّني إنْ هن سوءٍ لَغَبِي (٢)

فالجناس تام بين "لغبي" بمعنى التعب والمشقة ، وبين لغبي الثانية بمعنى عدم الفهم إن اللام لام جر.

وكقوله :

أيُّ حُرٍ بعِزّةِ النّفسِ خُصّا   لِمُه سُكّرٌ يرى القَصْرَ خُصّا (٣)

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) نفس المصدر جـ١ ص ١١٨ .

(٣) ديوان الشهاب نسخة الازهر ورقة ٤٢٣ .

فالأولى من الخصوصية ، والثانية بمعنى " البيت من شجر أو قصب "(١)

ومن الجناس الناقص قوله :

فَلا عَجَبٌ أَنْ يَنْحَني غُصنُ قامةٍ قد احْتَمَلَتْ ثِقْلاً من الهَمّ والهِمَم (٢)

فالجناس بين الهم والهمم .

وكقوله :

بأَرْواحِ المعاني والمَعالي تُفَدّى الغيدِ في حُلَلِ الجمالِ (٣)

فالجناس بين المعاني والمعالي جناس ناقص .

ومن المحسنات البديعية في شعره " الإكتفاء " كقوله :

رمْتُ النّداء لمالك وقْراً لَكَيْ يُولي الجميلَ لرِقّةٍ في الحالِ

فَنَهانيَ الصّبرُ الجميلُ وقال لي لِلْكَيْسِ نادِ وقُلْ لَهُ يا مالِ (٤)

ففيه اكتفاء وتورية في قوله : " يا مالِ " أي يا مالك .

ويمكن أن أعدّ منه قوله :

رَوّى بكأسِ علومِهِ وخِتامُهُ مِسْكٌ وَفي (٥)

فلفظة " وفي " اكتفاء واشارة عن قوله تعالى " وفي ذلك فليتنافس المتنافسون " .

---

(١) المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٣٧ .

(٢) ديوانه نسخة الازهر ورقة ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر ورقة ٨٢ .

(٤) ريحانة الألبا جـ٢ ص ١١٢ .

(٥) نفحة الريحانة جـ٤ ص ٤٠٣ .

ومن أنواع البديع لديه ، حسن التعليل ، والطباق ، والمقابلة ، كقوله :

جَيْشٌ كأنّ الأرضَ مِنْ تحتِـهِ صُحُفٌ غدتْ أقلامُهُنّ الرماحُ
مُذْ سطّرَ الجُنْدُ على وَجْهِها تَرّبَها النقْعُ فلاحَ الفَلاحُ (١)

ففي البيت الثاني حسن تعليل لما حصل من مدح في البيت الاول .

ومن الطباق قوله :

ما كُنْتَ في سَعَةٍ يوماً وفي دَعَةٍ بَتْ في سرورٍ ولا تُخْرِجُهُ بالكَدرِ (٢)

وقوله :

فَشَيْبي رَغْوةٌ خَلَقَتْ شَبابي وتحت الرَّغوةِ اللبنُ الصَّريحُ (٣)

فطابق بين السرور والكدر في البيت الاول ، وطابق بين لفظتي شبابي وشيبي في البيت الثاني .

ومن المقابلة قوله :

إذا ما خَلَعْنا بُرودَ الشبابِ لَبِسْنا الوَقارَ جَديدَ الثيابِ (٤)

فقابل بين خلعنا ... الشباب وبين لبسنا الوقار ... ، إذ الوقار كناية عن المشيب . إلى غير ذلك من الأمثلة الدالة على وجوه البديع في شعره ولكنه قليل جدا إذا ما قيس بما وجد في نثره .

---

(١) ريحانة الألبا جـ١ ص٨٧ .
(٢) ديوانه نسخة الازهر ورقة ١٢٧ .
(٣) نفس المصدر ورقة ١١٢ .
(٤) نفس المصدر ورقة ٩٢ .

تحليل لقصيدته الدالية التي يقول عنها المحبي أنها من أجود قصائد الشهاب :

قَدَحَتْ رعودُ البَرقِ زَنْدا | أضْرَمْنَ أشجاناً ووجدا
فيْ فَحْمَةِ الظلماءِ إذْ | مُدَّتْ على الخضراءِ بُرْدا
حتّى تشاءَبَ نورُهُ | وتمطّتِ الاغصانُ قَدّا
وأتى الشقيقُ بمجمرٍ | للرّوض أوْقَدَ فيه نَدّا
وعلى الغديرِ مُفاضةٌ | سَرَدَتْ لهُ النّسماتُ سَرْدا
وحَبَابُه مِنْ فَوْقِهِ | قَدْ باتَ يَلْعبُ فيه نَرْدا
فَسَقى معاهدَ بالحِمى | قَدْ أنْبَتَتْ حُبّاً وودّا
تذَرُ الليالي في ثرىً | من عَنْبرِ المِسكِ أهْدى
عَجَباً لدُرٍ ناصعٍ | أودِعْنَ في مسكٍ مُندّى
في ظلِّ عَيْشٍ ناعِمٍ | بنَسيمِ أسْحارٍ تَردّى
والدّهرُ عَبْدٌ طائعٌ | أهْدى لنا شَرَفاً وسَعْدا؟
ما زَالَ أصْدَقَ ناصحٍ | كَمْ قَالَ ليْ هَزْلاً وجِدّا
سَلِمَ امْروءٌ عَنْ طَوْرِهِ | في كلِّ حالٍ ما تَعَدّى
فالخَطْبُ بَحْرٌ زاخِرٌ | فاصْبرْ لَهُ جَزْراً ومَدّا
لا يَختشي لَسْعَ الزّنام | بيرِ الّذي يَشْتامُ شُهْدا
في ذمةِ الأيامِ للأحْرارِ | دَيْنٌ قَدْ يُؤدّى
إنّ ماطَلَتْ فلربّما | أنْجزْنَ بَعْدَ المَطْلِ وَعْدا

فإذا رَمَى طَـــأطِيءْ لَـــهُ رأساً تَراهُ عَنْكَ عَـــدَّى
أَفَبَعْدَ إخوانـــــي الأُولى دَرَجُوا أخاقُ اليومَ فَقْـــدا
عَيْني إذا استُنْفِتْ بِهِـــمْ تُسْقِي بَدَمْعِ العَيْنِ خدّا
لو كانت القَـــطَراتُ تَجْـــمُدُ نَظَّمَتْ في الجِيدِ عِقْدا
قَوْمٌ لَهمُ حُسْنُ الحَـــديـثِ بِرَغْمِ أَنْفِ الدَّهرِ خُلْـــدا
وَرِثُوا المكارِمَ كابِـــراً عَنْ كابِرٍ فَرْضـــاً وَرَدّا
مِنْ كلِّ طَوْدٍ شامِـــخٍ مُتَسَرْبِلٍ بُرْداهُ مَجْـــدا
أَمْسَتْ عيونـــاً كُلُّهـــا تَرْنو إلى الأَعداءِ حِقْـــدا
تَلْقَى الوَرَى بِنَدِيِّهِـــم نِكْسَ العيونِ إذا تَبَـــدَّى
لِيَمَسَّ الجَلالِ على الجمـــالِ فَصَدَّ عَنْهُ الطَّرفُ صَـــدّا
فَهُمُ بسُلْطانِ التُّقَـــى اتَّخَذُوا قُلوبَ النَّاسِ جُنْـــدا
أَمْسوا بِغِمْدِ ضَريحِهِـــم وبقِيتُ مِثْلَ السَّيفِ فَـــرْدا
مالِيَ أُقيمُ بِبَلْـــــدَةٍ فيها بِناءُ الدِّينِ هُـــدّا
وبِها الشِّـهابُ إذا سَمَـــا يَخْشَى مِنَ الشَّيْـطانِ طَـرْدا (١)

هذه القصيدة من البحر الكامل المجزوء المرفل .

---

(١) خلاصة الأثر ج١ص ٣٢٧-٣٢٨ ،وهذه القصيدة على الرغم من طولها وجمالها فليست مثبتة في الديوان ،نسخة الازهر .

دونما مقدمات يبدأ الشاعر في تصوير أحاسيسه ، فصوت الرعد وزمجرته ، ولمعان البرق الخاطف في وسط ظـــلام حالك ،أعاد له ذكريات مضت - ولا يخفى على القارئ ما في كلمة " أضرمن " من قوة فهي مناسبة جـــدا لصوت الرعد ودويه ، وما يعترى الإنسان من خوف وبخاصة إذا كان في ليلة مظلمة كما ذكر ذلك في البيت الثاني ، فشدة ظلام تلك الليلة، ظـــلام حقيقي عبر به ليكني به عما يدور في نفسه وحياته ، فهو يعيش في ظـلام بداخله .

وكان من آثار ذلك الرعد والبرق أن " مدت على الخضراء بردا " وأتى النسيم العليل يداعب الأغصان ،وما إن احست به حتى بدأت تتفتح كأنما كانت في سبات عميق ، وهنا تأتي براعـة الشاعر اللغوية ، فهو نفسه كان غافلا نائما عن ذكرياته ،فصحى من نومه وتحركت أشجانه مما شاهده في تلـــك الليلة .

ثم يمد القارئ بصور جميلة ويربط القصيدة بعضها ببعض بحـرف العطف الواو فالشقائق أتت برائحتها وكأنما هو مجمر " أو قد فيه ندا" ، ويصور تموج الغدير لهبوب نسمات عليه كالدرع المتموج، وبين كل موجه وأخرى طرائق تصلح أن تكون مكانا للعبة النّرد ، ثم يربط القصيدة بعضها ببعض ،متمنيا سقيا مكان أنسه ، أى ما حول ذلك الغدير ،فلقد أثبتت " حُبًّا وودا " كأنما هي لحظة جديدة في حياته وكأنما يريد أن يضـرب الصفح عما مضى ،فهذه المناظر الخلابة وما فيها من أمور جميلة ،تحكي لنا بطريقة أو بأخرى عن نفس الشهاب وما يعتلج بداخلها .

وفي البيتين الثامن والتاسع يتعجب أصلا من وجود هذه المناظـــر الخيرة " في ظل عيش ناعم " ،وفي البيت العاشر يرجع الى نفســــــه

مخاطبا لها من طرف خفي قائلا : لم تعجبي من حصول ما تريـــن فليس هذا أول شيء جميل يهدى إلي ،فلكم أهدى الزمان لنا شرفـــا وسعدا ، وكم قال جادا أو هازلا من قبيل النصح ما قال ؟

ثم يربط بالبيت الثاني عشر ما سبق في أول القصيدة لتكون منتظمة كعقد جميل بعنق امرأة حسناء ،فكأنه يقول : اغتنم لحظات حياتـــك السعيدة فكم من الزمان من خير وشر، ولكن مهما حصل لك وأنت تجنـــي الخير والصلاح فانه لا يضيرك كما لا يضير من يجني العسل لسع الزنابير، وأن ما حصل لك في تلك الليلة الجميلة من أمور خيرة ما هو إلا بمثابـــة دين لك عند الزمان أداه لك مهما سبقه من مطل وارجاء .

ثم يوجه خطابه بضمير الغيبة وما فيه من التفات رائع قائلا : عليك إذا ما أحسست بشيء طالح ،أن تغمض الطرف وكأنك لم ترشيئا "تراه عنك عدّى " .

ثم يستعيد في ذهنه أصحاب تلك الذكريات التي سبب رجوعهـــا واستذكارها جمال تلك الليلة "أضر من أشجانا ودّا " أفبعد إخواني الاولى " كيف يطيب لنفسي أن تتلذذ وتتنعم ؟ ثم انهمر الدمع على خديـــه -أسفا على أحبائه - كانهمار المطر في تلك الليلة فهي التي سببت نزول تلك الدموع الغزيرة ،فالدموع شبيهة بغزارة ذلك المطر ، والذكريات التي تتدفق على خاطره بقوة وعنف شبيهة بدوي ذلك الرعد ،ثم يدبج الوانا من المدح لاولئك الإخوان :

قَــوْمٌ لَـهـمْ حُسْنُ الحـــــديـــثِ بُرُغْـمِ أَنْفِ الدَّهرِ خُـــلْدا

ويسترسل في ذكر محاسن أصحابه في سبعة أبيات رابطا آخر القصيدة بأولهـــا

ربطا لغويا - فلبس وتسربل - " لبس الجلال على الجمال " " وتسربل برداه مجدا " فهذه الأوصاف وما فيها من زينة تعيد الذهن لقوله في أول القصيدة "مدت على الخضراء مدا " ، " في ظل عيش ناعم " ، " نسيم اسحار تردى " .

ثم يقول متأسفا على اولئك الأصدقاء ، وما مضى له معهم من ذكريات :

أَمْسوا بِغِمْدِ ضَرِيحِهِم   وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيفِ فَرْدا

ذهبوا إلى حيث لا رجعة إلا في الدار الآخرة - وبقيت وحيدا ولكن لا ضير فإنَّ السيف في غمده وحيد كذلك ، لأنه يعيش في وسط مجتمع فيه بناء الدين هُدّا " ، ولا دنيا لمن لم يحيي دينا " كما قال إقبال رحمه الله ، ثم يختم القصيدة بقوله :

وبها الشِّهابُ إذا سَمَا   يَخْشَى من الشيطانِ طَرْدا

وهنا يأتي ليربط آخر القصيدة بأولها ، لأنني ذكرت أنه رمز بتلك الليلة وما حصل فيها ، مما دار بخاطره من ذكريات وأشجان ، فهو شخص يخشى على نفسه .

ثم أن في كلمة " الشهاب " نقلة لغوية ورمزا رائعا " فهو نفسه يكنى بالشهاب فحملت اللفظة ربطا جميلا فالمطر والرعد والبرق كلها آتية من السماء بتدبير الله سبحانه ، وكذلك الشهب محلها السماء ، ومن هنا تتبدى لي هذه المقدرة اللغوية وهذه الشاعرية الفذة .

ثم أن في استخدامه بعض الألفاظ ومشتقاتها وكذلك إيثاره الألفاظ الثلاثية أكثر من غيرها ، ثم الرباعية والسداسية بشكل أقل ، أضفى على الايقاع خفة ورشاقة .

وكذلك اتخاذه "الدال قافية لهذه القصيدة "ومحاولة التنسيق بينها وبين بقية الأحرف التي تكونت منها القصيدة - على أن هذا لم يكن ينال الشاعر مسبقا بل جرى الشعر على لسانه هكذا وعلى الناقد أن يبحث عن محاسن القصيدة - فعند استقرائي لأحرفها وجدت قرابة ثلث أحرف ألفاظها مناسبة لمخرج القافية أى مخرجها من طرف اللسان وهذا يكون له اثر ايجابي على الموسيقى الداخلية حيث تنساب نغماتها على اللسان وقد وفق الشاعر في ذلك أيما توفيق فيما أرى ،ويعد ذلك عملا جميلا بالإضافة إلى ما سبق من ربط لغوى .

الخاتمة

الخاتمـــــــــة

إني أحمد الله أهل الحمد الذى شملني بالتوفيق والسداد وتولاني بالهداية والرشاد في كل خطوة من خطوات بحثي ، حتى انتهى إلى ما انتهى إليه ، فما حالف الصواب فيه فإن مردّه الى الله سبحانه ، وما جانب الصواب فيه فهو من ضعفي وقلة حيلتي ، وهل أنا إلا أحد الذين قال اللــــــه سبحانه وتعالى فيهم " وخلق الإنسان ضعيفا " .

وبعـــد :

فاني خرجت من هذا البحث بعدة نتائج أهمها: كشفت لي دراسة الشهاب الخفاجي فقرا شديدا في دراسة مخطوطات هذا العصر ، وبيان شعرائه ، وبناء على ذلك وسم هذا العصر بأنه عصر انحطاط لأنــــــه رأى مبني على غير حقيقة ، ونقص في المعلومات عن هذا العصر .

إن كثيرا من كتب الشهاب الخفاجي لم تنل حظها من التحقيـــق إن لم تزل مخطوطة وهي كتب ذات قيمة علمية عالية نظرا لمكانتها الأدبية بين كتب العربية ككتابه " ديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب " ، وديوان شعره ، ثم أن كتبه المطبوعة لم تحقق تحقيقا علميا إلا كتـاب " ريحانة الألبا " بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو .

إن له مشاركة قيمة في الكتابة الانشائية ، وقد أظهر فيها براعـــة لا تنكر على الرغم أنها تغص بكثير من المحسنات اللفظية والمعنويــــة التي هي ميزة من ميزات هذا العصر ، ودلالة على المقدرة الأدبيـــــة عند كثير من أدبائه .

الا أن الشهاب وإن فعل ذلك في النثر فلم يؤثره في الشعـــــر كثيرا إذ لم يوله ذلك الاهتمام الذى اولاها في النثر .

إنه تنقل في شعره بين مختلف الموضوعات، وعالج كثيرا من فنون الشعر العربي المعروفة من مدح وهجاء ورثاء ووصف الخ .. وأنه أظهر براعة في بعضها لا تنكر، ثم أن المدح النبوى قد استأثر بجل قصائده الطوال ، وأن مقطوعاته الشعرية تمثل حوالي ثلاثة أخماس الديوان .

تميز اسلوبه الشعرى بالوضوح و عدم التعقيد و القدرة على التصوير والتشخيص أحيانا .

انه ضمن في شعره وكتاباته الانشائية من انواع الثقافات المتنوعة الدينية والأدبية والتاريخية ما يدل على نبوغه و مكانته بين علماء عصره .

انه وثق بالعلاقات الأدبية والعلمية بين كثير من علماء العصر في أوطان كثيرة ، وعرف بادباء كانوا مجهولين وذلك من خلال ترجمته لعدد وافر منهم في كتابه الريحانة إذ كثير ممن أورد ترجمته في هذا الكتاب تربطه به علاقة صداقة ومودة .

وصلى الله على نبينا محمد و على آله وصحبه وسلم .

الفهارس

قائمة المصادر والمراجع

فهرس المخطوطات

اسم الكتاب	المؤلف	رقم المخطوط ومكان وجوده
١ - تاريخ ملوك آل عثمان وولاتهم على مصر الى ولاية علي باشا .	مجهول	مصور بمركز البحث العلمي رقم ٥٨٣
٢ - خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا .	شهاب الدين الخفاجي	مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٣١٢ وبالمكتبة الازهرية رقم ٢٨٣ أباظة
٣ - ديوان الأدب في محاسن بلغاء العرب .	= = = = =	مخطوط بمكتبة عارف حكمة بالمدينة المنورة رقم ٣٠٨٥ .
٤ - ديوان شهاب الدين الخفاجي .	= = = = =	مخطوط بمكتبة الأزهر ٧١٠١ - ٥٠٥ وبدار الكتب المصرية رقم ٣٩٣ شعر تيمور
٥ - السوانح والبوارح	= = = = =	مخطوط بمكتبة الازهر رقم ٦٥٣ أباظة .
٦ - مجموعة قصائد .	= = = = =	مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦ ل مجاميع

فهارس المطبوعات

- ابن سناء الملك حياته وشعره ، محمد ابراهيم نصر ، دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٨هـ.
- أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ، عمر رشدى حسن ، دار نهضة مصر .
- الأدب الاسلامي فضولى البغدادى امير الشعر التركي القديم ، حسين مجيب المصرى ، دار الفكر.
- الأدب المصرى في ظل الحكم العثماني ، محمد سيد الكيلاني ، دار القومية العربية ١٩٦٥م.
- الأدب المصرى من قيام الدولة الايوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، عبد اللطيف حمزة ،دار النهضة مصر.
- الأصمعيات ، عبدالله بن قريب الاصمعي تحقيق احمد شاكر وعبدالسلام هارون ،دارالمعارف الطبعة الخامسة .
- الاعلام ، خير الدين الزركلي ،دارالعلم للملايين ١٩٨٠م.
- الانسان العربي والتاريخ ، انور الرفاعي ، دار الفكر سنة ١٩٧١م.
- ايضاح المكنون فيالذيل على كشف الظنون ،اسماعيل باشا البغدادى ، دار الفكر ١٤٠٢هـ.
- اللباب في تهذيب الأسماء ، عز الدين ابو الحسن بن الاثير ، دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ
- البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي القسم الأول في التشبيه ، فريد محمد بدوى ، مطبعة الأمانة ١٤٠١هـ.

- تاريخ اداب اللغة العربية ،جرجي زيدان ،دار الهلال ١٩٣١م
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ،محمد فريد بك المحامي ،تحقيق احسان حقي ،دار النفائس بيروت سنة ١٤٠١هـ
- تاريخ الشعر العربي ،محمد عبد العزيز الكفراوى ،دار النهضة مصر.
- تاريخ المعارضات في الشعر العربي ،محمد محمود قاسم نوفل ،مؤسسة الرسالة دار الفرقان ١٤٠٣هـ.
- التبيان في شرح الديوان - ديوان أبي الطيب المتنبي - ، ابو البقاء العكبرى تحقيق مصطفى السقا ،ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة بيروت ١٣٩٧هـ.
- تحفة الادباء وسلوة الغرباء ،ابراهيم بن عبد الرحمن الخيارى المدني ، تحقيق رجاء محمود السامرائي ،دار الرشيد ١٩٨٠م.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق عمر فؤاد عبد الباقي ،دار الفكر سنة ١٣٩٨هـ
- تفسير القرآن العظيم ،اسماعيل عماد الدين بن عمر بن كثير ،تحقيق عبد العزيز غنيم ،محمد احمد عاشور ،محمد ابراهيم البنا ، الشعب.
- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ، دار الكتب الحديثة ، مصر ١٣٩٦هـ.
- تلبيس ابليس ،ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ،دار الكتب العلمية بيروت.
- خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء العراق ، محمد بن صفي الدين الاصبهاني ،تحقيق محمد بهجة الاثرى ،وجميل سعيد ، المجمع العلمي العراقي ١٣٧٥هـ.
- خريدة القصر وجريدة العصر ،قسم شعراء الشام ،محمد بن صفي الدين الاصبهاني ،تحقيق شكرى فيصل ،المطبعة الهاشمية ١٣٨٨هـ.

- خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ،عبد القادر البغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

- الخفاجيون في التاريخ ،محمد عبد المنعم خفاجي ، المكتبات الازهرية .

- خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادى عشر ،محمد المحبي ،الوهبية ١٢٨٤هـ.

- دراسات في فقه اللغة ،صبحي الصالح ،دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٦م.

- دراسة في مصادر الادب ،الطاهر احمد مكي ، دار المعارف ١٩٨٠م.

- درة الغواص في اوهام الخواص ،القاسم بن علي الحريرى ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،دار نهضة مصر.

- الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، عبدالعزيز الشناوى ، جامعة القاهرة ١٩٨٠م.

- الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ،محمد كمال الدسوقي ،دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٦م.

- ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبرى ، التبيان في شرح الديوان ،دار المعرفة بيروت.

- ديوان ابي فراس الحمداني ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت.

- ديوان ابي العتاهية ،كرم البستاني ،دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٤هـ.

- ديوان امرئ القيس ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ.

- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، علي بن محمد بن بسام ، تحقيق احسان عباس ،دار الثقافة بيروت.

- تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، ابراهيم الخيارى .

- الرحلة العياشية - ماء الموائد ، عبدالله بن محمد العياشي ،الجزائر١٣١٦هـ .
- ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا ، شهاب الدين الخفاجي ،تحقيق عبد الفتاح الحلو ، عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ .
- زهر الاداب و ثمر الالباب ،ابراهيم بن علي الحصرى ، تحقيق زكي مبارك ، دار الجيل بيروت ١٩٧٢م .
- سانحات دمى القصر في مطارحات بني العصر ، درويش محمد بن احمد الطالوى ،تحقيق محمد موسى الخولي ، عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ .
- سلافة العصر وعصرة أهل العصر ، علي بن احمد بن معصوم ،الخانجي ١٣٢٤هـ .
- شرح درة الغواص ،شهاب الدين الخفاجي ، الجوائب القسطنطينية ١٢٩٩هـ .
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، محمد بن القاسم الأنبارى ،تحقيق عبد السلام هارون ،دار المعارف ١٤٠٠هـ .
- الشعر الحجازى في القرن الحادى عشر الهجرى ، عائض الردادى ،مكتبة المدني جدة ١٤٠٤هـ
- شعر زهير بن أبي سلمى ،الاعلم الشنتمرى تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الافاق الجديدة - بيروت ١٤٠٠هـ .
- الشعر والشعراء ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،تحقيق احمد شاكر ،دار المعارف مصر .
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، شهاب الدين الخفاجي ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ، المنيرية ١٩٥٢م .
- الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد وآثاره الادبية ،محمد بن سعيد بن حسين ، اليمامة ١٣٩٩هـ .
- طراز المجالس ،شهاب الدين الخفاجي ،الوهبية ١٢٨٤هـ .

- العمدة في محاسن الشعر وادبه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر ١٣٥٣هـ.
- عناية القاضي وكفاية الراضي ،شهاب الدين الخفاجي ،بولاق ١٢٨٣هـ.
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، ابن سعيد علي بن موسى الاندلسي ،تحقيق ابراهيم الابياري ،دار المعارف ١٩٤٥م.
- فن المقامات بين المشرق والمغرب ، يوسف نور عوض ،دار القلم بيروت ١٩٧٩م.
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،شوقي ضيف ،دار المعارف.
- الفوائد المحصورة في شرح المقصورة ،محمد بن احمد بن هشام اللخمي ، تحقيق احمد عبد الغفور عطار ،مكتبة الحياة بيروت ١٤٠٠هـ.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،مصطفى بن عبدالله المعروف بحاجي خليفة ،دار الفكر ١٤٠٢هـ.
- لسان العرب ،محمد بن مكرم بن منظور ،دار صادر بيروت.
- مجمع الأمثال ،احمد محمد الميداني ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي.
- مجموعة التوحيد ، احمد بن تيمية و محمد بن عبد الوهاب و نخبة من علماء المسلمين ،المكتبة السلفية المدينة المنورة.
- المدائح النبوية ،زكي مبارك ،دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٨٧هـ.
- مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى ، تحقيق على بن محمد البجاوى ،عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٧٣هـ.
- المسند ،احمد بن حنبل ،دارالفكر ١٣٩٣هـ.

- مصادر التراث العربي في اللغة والادب والتراجم ،عمر الدقاق ،المكتبة العربية حلب ١٩٦٨م.

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ،بكري شيخ امين ،الافاق الجديدة بيروت ١٣٩٩هـ.

- معجم الشعراء ،محمد بن عمران المرزباني تصحيح ف. كرنكو ،دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ.

- المعجم الوسيط ، ابراهيم مصطفى وآخرون ، المكتبة العلمية ،طهران.

- المعرب ، ابو منصور الجواليقي ، تحقيق احمد شاكر ،طهران ١٩٦٦م.

- المقامة ،شوقي ضيف ،دار المعارف.

- مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى ، محمد عبدالله عنان ، لجنة التاليف والترجمة القاهرة ١٣٨٨هـ.

- موسوعة التاريخ الاسلامي ،احمد شلبي ،النهضة المصرية ١٩٧٧م.

- نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض ، شهاب الدين الخفاجي ، دار الكتاب العربي بيروت .

- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، محمد المحبي ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٧هـ.

- يتيمة الدهر ، الثعالبي ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الفكر ١٣٩٢هـ.

فهرس موضوعات البحث

الموضوع	الصفحة
التمهيد	٣
المقدمة	٥
الباب الاول : نشأته وحياته	١٢
الفصل الاول : الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية	١٣
الحالة السياسية	١٣
الحالة الاجتماعية	١٣
الحالة الثقافية	١٨
الفصل الثاني : نشأته ورحلاته	٣٠
قبيلة الشاعر	٣١
نسبه	٣٣
طلبه العلم	٣٥
رحلته الى بلاد الحرمين	٣٧
رحلته الاولى الى بلاد الروم	٣٩
وظائفه	٤٤
العودة لمصر	٤٥
رحلته الثانية الى بلاد الروم	٤٦
سبب عزله عن القضاء	٤٨
مروره بالشام وما لقيه فيها من التكريم والتبجيل	٥٢
الفصل الثالث : مشائخه ، تلاميذه ، ثناء العلماء عليه	
نهايته ، دينه	٦١
مشائخه	٦٢
تلاميذه	٧٤
اقوال العلماء فيه	٧٧
نهايته	٨٤
دينه	٨٥

الموضوع	الصفحة
الباب الثاني : موءلفاته النثرية	
الفصل الاول	٨٩
حاشية على تفسير البيضاوى	٩١
نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض	٩٥
حاشية شرح الفرائض	٩٩
رسالة في متعلق البسملة	١٠٠
حاشية على شرح الجرجاني القسم الثاني من المفتاح	١٠٠
النفحة القدسية	١٠٠
قلائد النحور	١٠١
الرحلة	١٠١
الرسائل الاربعون	١٠١
حواشي الرضي والجامي	١٠٢
طراز المجالس	١٠٢
السوانح والبوارح	١٠٦
شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل	١٠٨
شرح درة الغواص في أوهام الخواص	١١٤
حديقة السحر	١١٨
خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا	١٢١
الفرق بينه وبين ريحانة الالبا	١٢٤
ديوان الادب في محاسن بلغاء العرب	١٢٨
نماذج من اراء الشهاب النقدية	١٣٥
الفصل الثاني : دراسة لريحانة الألبا	١٤٠
لمحة تاريخية	١٤١
سبب تسمية هذا الكتاب " ريحانة الألبا "	١٤٥
منهجه في هذا الكتاب	١٤٧
ملاحظات حول هذا المنهج	١٤٩
بعض اوجه التشابه بين الريحانة وبين بعض مثيلاتها	١٥٧
ما اهتم به الشهاب دون سائر المؤلفين	١٦٣
تأثر المحبي وابن معصوم في كتابيهما بالريحانة	١٦٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : كتاباته الانشائية ، رسائل مقامات	
فصول قصار	١٧٥
رسائله	١٧٥
رسائل اخوانية	١٧٥
رسالة في نقد المجتمع	١٧٧
رسائل علمية	١٨٢
مقاماته :	١٨٧
معنى المقامة ، عناصرها	١٨٧
لمحة تاريخية	١٨٩
مقامات الشهاب الخفاجي	١٩١
مقامة في رجل يذمه	١٩٢
ايضاح بعض كلماتها	١٩٤
المقامة الرومية	١٩٥
ايضاح لبعض كلماتها	١٩٨
مقامة الغربة	٢٠١
ايضاح بعض كلماتها	٢٠٣
المقامة الساسانية	٢٠٦
ايضاح بعض معاني كلماتها	٢٠٩
مقامة عارض بها مقامة رشيد الدين الوطواط	٢١١
المقامة المغربية	٢١٣
فصوله القصار	٢١٥
خصائص نثره	٢١٨
الباب الثالث : شعره	٢٢٣
الفصل الاول : مظاهر عامة حول شعره	٢٢٤
مظان شعره	٢٢٥
مجموعة قصائد للشهاب الخفاجي	٢٢٦
ديوان الشهاب	٢٣١
حجم نتاجه الشعرى	٢٣٤
مطالع قصائده وخواتيمها	٢٣٧
شعره بين الطول والقصر	٢٤١
شاعريته	٢٤٤

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : اغراض شعره	٢٥١
المدح	٢٥٣
المدح النبوى	٢٥٣
مدح السلاطين والولاة	٢٥٩
مديح العلماء	٢٦١
الوصف	٢٦٣
الهجاء	٢٦٧
الفخر	٢٧
الرثاء	٢٧٤
الغزل	٢٧٧
الشكوى	٢٨١
الشوق والحنين	٢٨٥
العتاب	٢٨٨
مطارحاته الشعرية	٢٩١
الحكمة	٣٠٠
النصح والوعظ والزهد	٣٠٢
النظم العلمي	٣٠٥
الالغاز	٣٠٧
تقريظ الكتب	٣٠٩
خلاصة القول في تلك الموضوعات	٣١١
الفصل الثالث : خصائص شعره	٣١٤
الخيال	٣١٥
لغة الشاعر	٣٢١
بناء القصيدة عنده	٣٢٤
اختيار القافية	٣٢٩
تأثر الشهاب الخفاجي بالاخرين	٣٣٥
وجوه البلاغة العربية	٣٤٢
تحليل القصيدة الدالية	٣٤٩
الخاتمة	٣٥٦
فهرس المصادر	٣٥٨
فهرس الموضوعات	٣٦٦